كتب للمؤلف

باللغة العربية :

١ – كيف تكتب بحثاً أو رسالة :

دراسة منهجية لكتابة الأبحاث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه .

الطبعة الثالثة (مكتبة النهضة المصرية)

٢ – تاريخ التربية الإسلامية :

دراسة عميقة شاملة لفلسفة التربية عند المسلمين، ومناهج التعليم، وأمكنة التعليم، وحالة التلاميذ والمدرسين. الطبعة الثانية (مكتبة الأنجلو المصرية)

التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية :

دراسة تحليلية شاملة فى سبعة أجزاء للتاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية فى جميع العصور وجميع الأقطار . ظهر منه الأجزاء التالية :

٣ – الجزء الأول : العرب قبل الإسلام – الرسول حياته وأعماله – الخلفاء الراشدون – فلسفة الدعوة الإسلامية

٤ – الجزء الثانى : الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها

٥ – الجزء الثالث : العصر العباسى الأول ، ودور المسلمين خلاله فى خدمة الثقافة ، والدسائس والمؤامرات فى قصور خلفائه

(يقوم بنشره مكتبة النهضة المصرية)

٦ — المجتمع الإسلامى :

أسس تكوينه — أسباب تدهوره — الطريق إلى إصلاحه

(مكتبة النهضة المصرية)

٧ — الحكومة والدولة فى الإسلام :

تكوين الحكومة الإسلامية — عملها — مصدر سلطانها — عزلها — مقارنتها بالنظم الأخرى للحكومات (مكتبة النهضة المصرية)

٨ — مقارنة الأديان :

ظهر الجزء الخاص بالمسيحية وتطورها (مكتبة النهضة المصرية)

٩ — اندونيسيا كما رأيتها تحت الطبع

باللغة الإنجليزية :

١٠ — History of Muslim Education (دار الكشاف ببيروت والقاهرة)

باللغة الاندونيسية :

١١ — Negara dan Pemerintahan dalam Islam — Nabhan : (Surabaja)

١٢ — Masjarakat Islam

١٣ — Hukum Islam

١٤ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam

١٥ — Perbandingan Agama

(١٢–١٥: Djajabakti (Djakarta))

١٦ — Perkembangan Keagamaan dalam Islam dan Masehi — Sjamsijah (solo)

محتويات الكتاب

الصفحة

تقديم

الدولة الأموية

صفحة

عبد الله بن الزبير ٢٠٣ — ٢١٣

الخوارج ٢١٤ — ٥٣٢

صفحة

صفحة

فهرست الخرائط والمخططات

صفحة

الدولة الأموية
والحركات الفكرية والثورية خلالها

تقديم

باسم الله العلى العظيم نبدأ دراستنا لتاريخ الخلافة الأموية وللحركات الفكرية والثورية فى عهدها ، ونحن ندرك الصعوبات التى تقابل الباحث وهو مُقْدِمٌ على دراسة تاريخ هذه الحقبة ؛ فقد تحالفت ظروف كثيرة على الحط من شأن الأمويين بقصد أو بدون قصد ، وتكاد المراجع التى بين أيدينا تخلو خلوا تاماً من كلمة مدح أو ثناء على أكثر خلفاء هذه الدولة ، أما عبارات القذف والطعن فقد أسهبت فيها كتب كثيرة واقتصدت كتب أخرى ، وكان أيسرها ما اكتفى باللوم والتقريع . ما الأسباب التى دعت إلى ذلك ؟ وكيف الطريق لإحقاق الحق ؟

الإجابة عن ذلك أن بنى أمية وقفوا وجهاً لوجه أمام بنى هاشم ؛ وقف معاوية فى وجه علىٍّ وصارعه وكُتِبَ له النصر . ووقف يزيد فى وجه الحسين وسقط الحسين بسيوف يزيد ، وسقط زيد بن على بن الحسين وابنه يحيى فى معارك ضد جيوش الأمويين ، ولهذه الدماء أثرها عند الرواة والكتَّاب ، فأما رواة الشيعة وكتَّابهم فقد وقفوا يعانون سخطهم على بنى أمية ، ويصفونهم بالقسوة والوحشية ، ويُزْجون الثناء والمدح إلى علىٍّ كرم الله وجهه وإلى بنيه ، وأما غير هؤلاء من الرواة والكتاب فلم يروا هذا الرأى ، ولكنهم خافوا شعور الجماهير ، فآثروا السلامة وأغفلوا الموضوع كله أو لم يتعمقوا فيه .

ولا نزاع أن الأمر كان يختلف اختلافا تاماً لو هبَّ معاوية يتهم رجلا غير علىٍّ بأنه آوى قتلة عثمان وكوَّن منهم جيشه ، ولو نشط يزيد فى وجه ثائر آخر غير الحسين فهزمه ، وهكذا دواليك ، فالمسألة فى الحقيقة ليست خطأً تاريخياً عظيما وإنما هى استغلال لدماء آل البيت . وأمسك الشيعة أو مدعو التشيع بهذا الأمر . وحركوا به العواطف ،

وكان هؤلاء فى أغلب فترات ذلك العهد يكوّنون طبقة الغوغاء ومثيرى الفوضى ، وكانوا لا خلاق لهم مع علىّ نفسه ومع أبناء علىّ ، فطالما خدعوهم وطالما خذلوهم ، بل قل إنهم هم الذين قتلوهم بسيوفهم ولما فرغوا من دمائهم أخذوا ينوحون عليهم ويطلبون الأخذ بثأرهم .

وطبقة كهذه من الغوغاء كانت مخيفة أزعجت الرواة فلم ينقلوا من مفاخر الأمويين كل ما كان يمكن أن ينقل ، وأزعجت الكتّاب فلم يدونوا ما وصلهم من أقوال الرواة ، وضاعت الحقائق التاريخية بين هذا الظلام الذى أسدله على العالم طغيان من أسموا أنفسهم شيعة أهل البيت وهم فى الحقيقة ألد أعداء أهل البيت وألد أعداء الإسلام .

وسقطت الدولة الأموية قبل عهد التدوين وقامت على أثرها دولة بنى العباس ، وقد مسحت دولة بنى العباس كل ما يمكن أن يكون قد بقى حياً من مفاخر بنى أمية ، وبدلا من ذلك أضفت على تاريخ الأمويين ألواناً من الظلام وصنوفاً من التشويه .

ولا نزاع أن العلويين عانوا من بنى العباس أكثر مما عانوه من بنى أمية ، ولكنّ ذلك لم يدوّن تدوينا كافيا لأن بنى العباس امتد بهم العمر ودُوّن التاريخ فى عهدهم فتأثر بسلطانهم ونفوذهم ما كتبه كثير من المؤرخين .

لقد اتُّهم يزيد بن معاوية بالجهل وسوء السيرة ، واتهم بذلك يزيد ابن عبد الملك وابنه الوليد ، ونستطيع أن نقول دون تردد أن عشرات من خلفاء العباسيين والفاطميين كانوا أكثر جهلا وزندقة وسوء سيرة من هؤلاء ، هذا إلى ضعف وانحلال وكل صفات الذم السياسى والخلقى التى لا نستطيع إيرادها هنا ، ومع هذا فقد أسدل التاريخ الستار على كثير من مساوئ هؤلاء ، واهتم المؤرخون بانتقاص بنى أمية باحثين عن أسباب الانتقاص هنا وهناك .

وإذا تركنا هؤلاء الضعاف الذين لابد من ظهورهم فى كل دولة ، فإننا

نرفع بعض أسماء الأمويين إلى أسمى طبقة بين ساسة العالم كله فى مختلف عصوره ، ونضع دون تردد بين هؤلاء أسماء معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، وبعض خلفاء الأمويين بالأندلس ، ونقرر دون تردد أيضاً أنه قلّ من يضارع هؤلاء بين خلفاء بنى العباس وخلفاء الفاطميين والأدارسة .

والعجيب أن أغلب المؤرخين المحدثين من مسلمين أو مستشرقين تلقوا ما كتبه المؤرخون الأول على أنه حقائق . فجاءت أكثر الدراسات الحديثة بعيدة عن الإنصاف كما سنشير إلى بعضها فى هذا التقديم وفى أثناء الدراسة . وجدير بتاريخ الأمويين أن يُكتب من جديد وأن تُتَّخذ أسسه من الواقع ؛ من حضارة الأمويين التى لا تزال تنطق بها دمشق وغيرها من العواصم الإسلامية ومدن الأندلس ، ومن صنوف التفكير التى أنتجها العقل الأموى كالبريد والسكة وتعريب الدواوين وتنظيم الجيوش وغيرها ، ومن انتصارات الأمويين التى سجلت زحفاً للإسلام لا يزال واضح الجانب . ومن أسس أخرى ستكون عمادنا فيما نقوم به من دراسة .

لقد اتهموا الأمويين بأنهم حكام عرب وليسوا حكاماً مسلمين . واستدلوا على ذلك بأنهم اضطهدوا الموالى . والعجيب أنه وجد بين المؤرخين الأوربيين من يجذبه هذا الرأى مثل Wellhausen الألمانى . ولكن هذا الاتهام لا يقوى أمام النقد البرىء وأمام الدراسة العميقة . وحقيقة الأمر أن الفرس انضموا لعلى منذ العهد الباكر وحاربوا جيوش معاوية . ثم أثاروا الفتن والدمار والتخريب وأشعلوا ألواناً من الحروب ضد الأمويين وضد المسلمين على العموم . وكان من نتيجة ذلك أن استحقوا سخط الأمويين .

فالمسألة لم تكن أكثر من دفاع عن النفس وكراهية متبادلة بين الفرس وبين الأمويين . ولقد كان بسوريا نفسها — موطن الخلافة الأموية —

مسلمون من غير العرب ، وكان بمصر مسلمون من غير العرب ، وكذلك كان فى شمال إفريقية . ولم ينل هؤلاء من سخط الأمويين ما ناله أهل فارس الذين بدءوا الخصومة واستمروا يتلمسون السبل لإشعال نارها .

ومما أخذ على بنى أمية أنهم شرعوا سب علىّ بن أبى طالب فى حياته . فلما مات استمروا على ذلك المنكر ، وتساءل الناس : كيف لم يتسع حلم معاوية لذلك الأمر ، فيترك سب خصمه الذى مات ؟ وأرى فى هذا أنه – إن عُدّ عيباً شخصياً – لا يقلل من صلاحية معاوية أو غيره من أبطال بنى أمية للخلافة ، ولا يحط من أقدارهم كقادة وساسة مبرزين ، وربما جاز لنا أن نأخذ الأمر من ناحيته السياسية فنذكر أن بنى أمية اضطروا لذلك اضطراراً ليصرفوا العامة من الناس عن تعلقهم بآل البيت لأنهم آل البيت لا غير . فأخذوا يسبون علياً وينسبون له النقائص حماية لدولتهم ، وقد وضح عبد العزيز بن مروان هذا الأمر فى حديث له مع ابنه عمر ، قال عمر بن عبد العزيز : كان أبى عبد العزيز بن مروان يمرّ فى خطبته يهذّها هذّاً ، حتى إذا وصل إلى ذكر أمير المؤمنين علىّ تتعتع ، فسألته فى ذلك فأجاب : يا بنى أدركت هذا منى ؟ قلت : نعم . قال : يا بنى اعلم أن العوام لو عرفوا من علىّ ما نعرفه لتفرقوا عنا إلى ولده[1] .

فمثل هذا السب كان دواء للعوام ، فلا شك أن الذى يترك معاوية لعلى يستطيع أن يجد وسيلة يبرر بها هذا التصرف ، ولكنه من فعل العوام أن يدع رجلٌ معاوية وينضم إلى ولد علىّ لا لكفاءة ، ولا لدهاء سياسى أو مقدرة حربية ، وإنما فقط لأنه ولد على . وشعور العامة هذا هو الذى دفع بنى أمية ليسبوا علياً ولينسبوا إليه أشياء أغلب الظن أنهم لا يؤمنون بها .

والذى يدعونا إلى التماس العذر كذلك لمعاوية فى موقفه من سبّ على ، أن معاوية كان معروفاً بالحلم وغفران السيئات ، فقد اتسع حلمه لعمرو بن

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ١١٠ – ١١١

العاص وجذبه إليه . وسنرى فيما بعد أن إحساس كل منهما للآخر لم يكن وديا ، واتسع حلمه لزياد بن أبيه ، وكان من أتباع على وقد تأبى على معاوية طيلة حياة على ، فلما مات على أمنه معاوية واسترضاه وغفر له ، واتسع كذلك للمغيرة بن شعبة الذى كان قد اعتزل الفتنة . واتسع لمروان بن الحكم الذى كان قد بايع لعلى ، واتسع لغير هؤلاء . واتسع حلمه وكرمه للحسن والحسين فلم يمسسهما سوء فى حياته ولا نقص شىء مما وعدهما به ، فالذى يجعله يستمر على موقفه من سب على بعد موته إنما هو محاولة توطيد سلطانه بصرف العامة عن على وبنيه .

وفى هذا التقديم نذكر المؤرخين وبخاصة المسلمين منهم بألوان الحلم والإصلاح وسعة الصدر التى امتاز بها رجال مثل معاوية وعبد الملك والوليد وعمر بن عبد العزيز . ونذكرهم كذلك بالزحف الإسلامى الذى قام به هؤلاء فاتحين أو معلمين مبشرين . فلقد قام الثلاثة الأول بدفع راية الإسلام إلى الأمام فى عدة جبهات حتى أصبحت تخفق على رقعة واسعة من الأرض تشمل الملايين أو مئات الملايين من البشر ، وقام الرابع بمثاليته وصلاحه يجذب هؤلاء الملايين إلى الإسلام فاستجابوا أو قل إنهم انهالوا وحدهم ينضمون للدين الذى أنتج مثل هذا الخليفة النادر ، وقد ضاعت الأندلس التى فتحها الأمويون ولكن ضياعها كان فى غير عهد الأمويين ، فالمسئول عن ضياعها أولئك الذين كان فى أيديهم حكمها .

ذلك شعاع من النور نبدأ به هذه الدراسة نقصد به إحقاق الحق وتيقيظ الغافلين ، الذين يسيرون على النهج الذى رسمه الآخرون دون تفكير فى دوافعه ، ودون يقظة ذهنية تعيد الأمور إلى نصابها . وما أحوجنا فى حياتنا الإسلامية الحاضرة إلى خلافة كخلافة بنى أمية تعيد وحدة العالم الإسلامى . وتعيد قوته التى كانت تهدد أعظم الممالك فى ذلك العهد . وفى ضوء هذا الشعاع سنسير فى دراستنا غير معادين للأمويين ولكن غير مدافعين أيضاً .

وإنما باحثين عن الحق مهما صادفنا من متاعب فى سبيل البحث عنه ، فإذا عثرنا عليه أثبتناه فرحين به غير ناظرين لسواه .

وهذا التقديم يقودنا إلى أن ننقد بقوة ما ذكره نيكلسون(١) من أن « المسلمين عدوا انتصار بنى أمية وعلى رأسهم معاوية انتصاراً للأرستقراطية الوثنية التى شنت العداء على الرسول وصحبه والتى جاهدها الرسول جهاداً طويلا حتى أخضعها لسلطانه » ولسنا ندرى منْ هم المسلمون الذين يعنيهم نيكلسون ، فالذى يحدثنا عنه التاريخ بصراحة أنه فى أثناء الصراع بين علىّ ومعاوية كانت كفة معاوية تزداد رجحاناً يوماً بعد يوم ، فى حين كانت كفة علىّ تشيل وتضعف . وأن كثيرين من أساطين المسلمين وفدوا على معاوية وأيدوه لما رأوا من الاستقرار عنده وما كان من الفوضى والتمرد بين أتباع علىّ . حتى إذا مات علىّ كان طبيعياً أن التفّ المسلمون حول معاوية جميعا . ويثبت معاوية أسباب انتصاره على علىّ فيبين أن منها أنه كان أقرب إلى قريش من علىّ ، وتلك حقيقة تكاد تكون واضحة لكل الباحثين فى التاريخ الإسلامى . يقول معاوية : أُعِنت على علىّ بأربعة . كنت أكتم سرّى وكان رجلا يظهره . وكنت فى أصلح جند وأطوعه ، وكان فى أخبث جند وأعصاه . وتركته وأصحاب الجمل وقلت : إن ظفروا به كانوا أهون علىّ منه وإن ظفر بهم طعنته بقتلهم وكنت أحَبّ إلى قريش منه(٢)

وقد سبق أن أوردنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب(٣) رأى الأستاذ الخضرى فى علىّ وأنه لم يكن محبوباً من شيوخ عصره لإهماله مشورتهم ولشدة اعتداده بنفسه . ويختم الأستاذ الخضرى عرضه لهذا الموضوع بقوله

---

(١) A Literary History of the Arabs p 139

(٢) ابن عبد ربه العقد الفريد ج ٤ ص ٣٦٦ — ٣٦٧

(٣) ص ٢٦١ — ٢٦٢

إن من أكبر الأسباب فى عدم استقامة الأمر لعلى يرجع إلى عقيدته فى نفسه ، وثقته المتناهية بما يراه ، واستغنائه عن رأى الأشياخ من قريش ، وشدته عليهم ، ويقارن أستاذنا الخضرى بين شدة عمر وشدة على بقوله : إن عمر كان يشتد والأمة كلها معه ، ولكن علياً كان يشتد ومعظم الأمة عليه[1].

ويبدو أن نيكلسون قال بهذا الرأى السطحى معتمداً على تأخر بنى أمية فى دخولهم الإسلام . وليس ذلك بمقياس صحيح ، فقد تأخر عمر فى دخول الإســـلام عن عثمان وسعد وطلحة والزبير ... ولكن ذلك لم يجعل أحداً منهم يرجح عمر . وقد اعتز المسلمون جميعاً وفى مقدمتهم الرسول صلوات الله عليه بدخول أبى سفيان دين الإسلام ، وكرّمه الرسول بأن جعل بيته حراما يجد فيه الناس الأمن والدعة ، ويوم تولى معاوية تبعه الناس جميعاً ولكن يوم تولى علىّ هبّ فى وجهه الآلاف هنا وهناك . وهذا الرأى الذى أوردناه يزكيه فان فلوتن إذ يقول : « كان السواد الأعظم من العرب يرى فى حزب بنى أمية حزب الدين والنظام »[2] .

والطريقة التى اتبعناها فى تأليف هذا الكتاب هى الطريقة التى وعدنا بها فى الجزء الأول وسرنا على نهجها هناك ، وهى طريقة دراسة الأفكار مجمّعةً موحدة ، فقد جرت عادة المؤرخين أن يتكلموا عن الفتوحات فى عهد معاوية عند الكلام عن معاويه . وعن الفتوحات فى عهد الوليد عند الكلام عن الوليد . وهكذا . كما جرت عادتهم أن يذكروا نشاط الشيعة و نشاط الخوارج مبعثرة تبعاً لكل خليفة ، واعتقادى أن هذا تمزيق للفكرة ، وتركيز لكل نشاط الدولة فى شخص الخليفة . ولذلك تحدثت

(١) تاريخ الأمم الإسلاميه حـ ٢ ص ٨٤
(٢) فان فلوتن السيادة العربيه والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية ترجمة الدكتور حسن ابراهيم ص ٦٩

عن الخلفاء فيما يتصل بهم وبميولهم وأخلاقهم وأعوانهم ، أما الفتوحات فقد جُمِّعت فى مكان واحد حيث تحدثنا عن « الفتوحات فى عهد الدولة الأموية » فدرسناها فى ميادينها المختلفة ميداناً بعد ميدان ، وأما الشيعة والخوارج وغيرهما من الحركات الفكرية والثورية ، فقد نالت كل منها دراسة مستقلة شملت الناحية الفكرية والناحية الثورية ، وذلك يجعلنا أولا نرى الشعوب وما كان لها من موجات فكرية وحركات ، ويجعلنا ثانيا نرى الموضوع الواحد فى مكان واحد فذلك أقرب لنبله والتعمق فيه ، وأرجو أن تلاقى هذه الطريقة رضا القراء .

والآن هيا بنا إلى دراسة فترة تعدُّ فى القمة من فترات التاريخ الإسلامى ، هى فترة الخلافة الأموية ، والله المسئول أن يهيئ لنا الهدى والقوة والرشاد وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم إنه سميع مجيب .

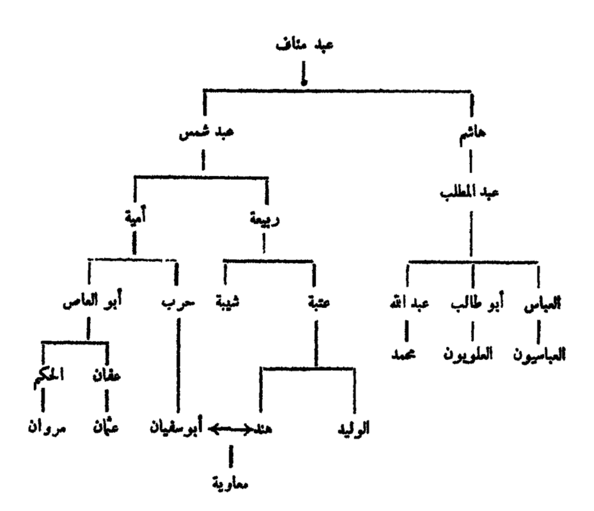
الثالث من يوليو سنة ١٩٦٠ — دكتور أحمد شلبى

الدولة الأموية (٤١ – ١٣٢ هـ)

تعريف بها :

تُنسب الدولة الأموية إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وكان أمية هذا سيداً من سادات قريش فى الجاهلية ، وكان هو وعمه هاشم بن عبد مناف متنافسين على الرياسة والشرف ، وقد تجمع لأمية عناصر السلطان فى الجاهلية ، فهو منحدر من أرومة مجيدة ، وله مال كثير ، وعَشَرَةٌ من الأولاد النجباء ، وإذا تجمعت هذه الأركان الثلاثة لشخص فى الجاهلية ضمن الشرف والسؤدد .

ولما جاء الإسلام تغيرت العلاقة بين بنى أمية وبين أبناء عمومتهم بنى هاشم إذ انقلب التنافس إلى عداء ظاهر ، لأن بنى أمية وقفوا موقفاً حازماً ضد الرسول ودعوته ، وأما بنو هاشم فقد عاونوا الرسول وحرسوه سواء منهم من دخل الإسلام ومن لم يدخل فيه ، وفى غزوه بدر كانت قوة قريش متركزة تقريباً فى بنى عبد شمس . فأبو سفيان كان صاحب العير التى كانت قادمة من الشام إلى مكة ، ولما استنفر قريشاً لمساعدته بعد أن عرف أن المسلمين سيقطعون عليه الطريق ، نفر أهل مكة بقيادة أبى جهل وعتبة بن ربيعة بن عبد شمس جدّ معاوية لأمّه ، وهكذا كان قائد العير وقائد النفير من بنى عبد شمس ، وكانت حينذاك تتمثل فى هذا الفرع من فروع قريش العزة والإباء ، ولهذا كان يضرب المثل بذلك فيقال للخامل : لست فى العير ولا فى النفير . ولم يدخل بنو أمية الإسلام إلا بعد أن لم يبق طريق غير الدخول فيه ، عندما زحف محمد بآلاف التابعين له المؤمنين برسالته وقيادته ليدخل بهم مكة .



عبد مناف : الجد الأعلى

للأسر الإسلامية التي حكمت فى القرون الأولى

وعلى هذا كان بنو أمية من المتأخرين فى دخول الإسلام . ومن أشد الأعداء له قبل أن يدخلوا فيه ، ولكن ما إن دخلوا فيه حتى أظهروا بطولة رائعة وحماسة بالغة ، كأنما كانوا يريدون أن يعوضوا مافاتهم من السبق . وأن يُنْسُوا الناس بمواقفهم مع الإسلام ما فعلوه ضده ، فلقد أبلوا بلاء حسناً فى حروب الردة والمتنبئين ومانعى الزكاة ، كما كانوا سيوفاً مشهرة وقوى هائلة فى زحف الإسلام خارج الجزيرة العربية ، كما سبق القول فى الجزء الأول من هذا الكتاب . وحسبنا أن نذكر هنا أن أبا سفيان زعيم بنى أمية فَقَدَ إحدى عينيه وهو يشترك مع الرسول فى مغازيه وفقد الأخرى فى موقعة اليرموك وهو يقاتل تحت إمرة ابنه يزيد .

كما كانت هند زوجة أبي سفيان وأم معاوية تشترك في حروب الشرك ، ويروى عنها أنها كانت تصيح في النساء : عضدوا الرجال بسيوفكم .

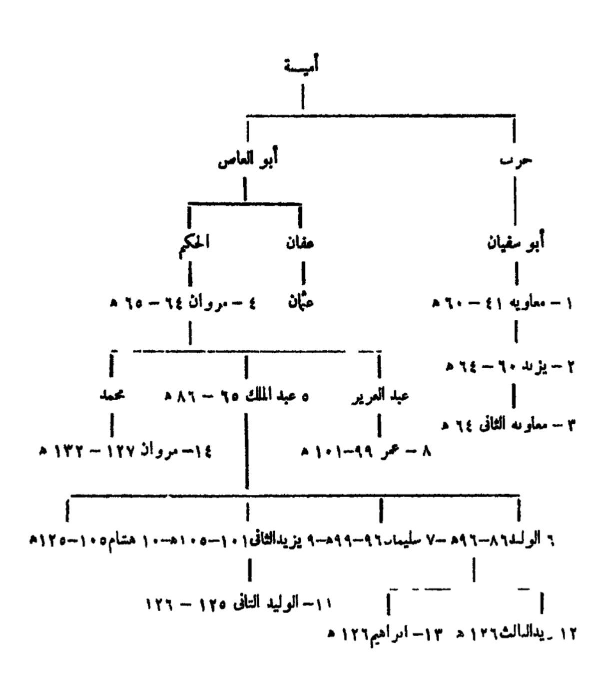
وقد تطلع بنو أمية للخلافة منذ عهدها الباكر ، ولكنهم لم يكن لهم فيها أمل فى عهد أبي بكر وعمر ، فلما طعن عمر وأسند الشورى لستّ من الصحابة فيهم عثمان ظهر أمل بنى أمية وكبر ، وأيدوا ترشيح عثمان علانية وجهاراً ، وفاز عثمان فاتجه بنو أمية إلى تأسيس خلافة أموية منذ ذلك الحين ، حتى ليمكن القول إن الخلافة الأموية بدأت منذ تولية عثمان ، فلقد كان جهد معاوية متجها فى عهد عثمان إلى تقوية نفسه وإعداد الشام ليكون لها مستقبل السلطان الإسلامى . ويُروَى أن معاوية دخل على أبيه حينما استعمله عمر على الشام ، فقال له أبوه : يا بُنَيّ ، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا ، فرفعهم سبقهم وقصَّر بنا تأخُّرُنا ، فصرنا أتباعاً وصاروا قادة ، وقد قلدوك جسيما من أمرهم ، فلا تخالفنّ أمرهم ، فإنك تجرى إلى أمدٍ لم تبلغه ، ولو بلغته لتنفست فيه[1] . واستجاب معاوية لرأى والده ونُصْحِه ، فأحسن السيرة ومهد لنفسه فى الشام ، ولم ينزل معاوية عن سلطانه بعد مقتل عثمان وظل يناضل علياً حتى خرّ علىّ وانتقلت الخلافة رسمياً إلى معاوية .

ولبنى أمية فرعان كانت فيهما الخلافة هما فرع حرب بن أمية وفرع أبي العاص بن أمية ، وأكثر الخلفاء من الفرع الثانى ، أما الفرع الأول فليس فيه إلا معاوية وابنه يزيد وحفيده معاوية الثانى ، ولم ينعم يزيد بالملك لحظةً ، أما معاوية الثانى فلم يبق فى الملك إلا بضعة أيام ، وهكذا ناضل معاوية نضالا طويلا من أجل الخلافة ولما مات لم تستقر الخلافة فى أولاده ، وبذل معاوية جهداً ضخماً ليبايع لابنه يزيد من بعده ولكن المشكلات الجسام كانت فى انتظار الابن ، فلم يضعه أبوه فوق السلطان ولكنه وضعه فوق الرحى التى استمرت تدور به دون استقرار حتى سقط ميتاً . فسبحان مالك الملك .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ١ ص ١٤ — ١٥

خلفاء بنى أميـــة



ومن ملاحظة هذا الجدول يبدو لنا أن حلفاء الدولة الأموية أربع عسره . ومدتها إحدى وسعون سنه . وهناك أربعه من الحلفاء كانت مدتهم سبعين عاما هم معاوية وعبد الملك والوليد وهشام . أما العشرة الداقون فمدة خلافتهم إحدى وعشرون سنة .

تعريف بخلفاء بنى أمية :

معاوية (٤١ – ٦٠ ﻫ)

ولد معاوية قبل الهجرة بحوالى خمسة عشر عاما ، ودخل الإسلام يوم فتح مكة مع من دخل من أهل مكة ، وكانت سنه آنذاك ٢٣ عاما ، وكان الرسول حريصاً على أن يقرب إليه حديثى العهد بالإسلام من عظماء الأسر حتى يضمن إقبالهم على الإسلام ، ويتيح لهم الفرصة ليتعمق الإسلام فى قلوبهم ، وعلى هذا قرّب الرسول إليه معاوية وضمه إلى كُتَّاب الوحى[1] ، وقد روى معاوية عن الرسول وعن كبار الصحابة وعن أخته زوجة الرسول حبيبة بنت أبى سفيان ، كما روى عنه عبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وآخرون .

وكان يزيد بن أبى سفيان قائد أحد الجيوش الأربعة التى وجهها أبو بكر لفتح الشام ، وكانت وجهته دمشق . ولما أراد أبو بكر أن يرسل مدداً لهذه الجيوش كان معاوية على رأس المدد الذى أرسل ليزيد . وحارب معاوية تحت إمرة أخيه ، وتولى قيادة الفيلق الذى فتح صيدا وبيروت وغيرهما من سواحل دمشق ، ولما تم النصر للمسلمين فى عهد عمر ، ولّى عمرُ يزيد ولاية دمشق ، كما جعل معاوية والياً على الأردن . وتوفى يزيد فى طاعون عمواس فى عهد عمر . فضم عمر إلى معاوية ولاية دمشق . وكان معاوية قوى الشكيمة ، أمينا إلى أبعد حدود الأمانة ، سياسياً بارعا ، وهذا مما حببه لعمر . ولما جاء عهد عثمان جُمِعَت لمعاوية ولاية الشام كله . وأصبح حكامه تحت أمره يوليهم ويعزلهم ، وظل أميرا عشرين عاماً كما أصبح بعد ذلك خليفة عشرين عاماً[2] .

---

(١) السيوطى . تاريخ الخلفاء ص ١٩٤

(٢) المرجع السابق ص ١٩٥

وطال عهد عثمان فاستطاع معاوية أن يكوّن نفسه ، ويضع الأساس لملكه . وأن يجعل الشام تحت أمره لا تعرف لها حاكما سواه ، فلما قُتل عثمان وبويع على كان الأوان قد آن ليبدأ دور معاوية ، واعتقادى أن معاوية ما كان لينزل عن حكم الشام أيا كان الخليفة الذى يتولى بعد عثمان ، وأيا ما كان السبب الذى يُنْهى حكم عثمان ، مقتولا مات أو مات ميتة عادية .

وهناك حديث هام جرى بين معاوية وكبار الصحابة إبّان الفتنة التى قُتِل فيها عثمان ، وهذا الحديث يصور لنا قوة معاوية واستعداده الكامل لما قد تدفع إليه الأحداث . قال ابن قتيبة :

قدم معاوية بن أبى سفيان فى خلال الفتنة من الشام إلى المدينة ، فأتى مجلساً فيه على بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمار بن ياسر ، فقال لهم يا معشر الصحابة . أوصيكم بشيخى هذا خيراً ، فوالله لئن قتل بين أظهركم لأملأنّها عليكم خيلا ورجالا . ثم أقبل على عمار بن ياسر وكان من أشد الثائرين على عثمان فقال له : يا عمار ، إن بالشام مائة ألف فارس كلّهم يأخذون العطاء مع أبنائهم وعبدانهم ، لا يعرفون عليا ولا قرابته ، ولا عماراً ولا سابقته ، ولا الزبير ولا صحابته ، ولا طلحة ولا هجرته ، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله ، ولا يتّقون سعداً ولا دعوته ، فإياك يا عمار أن تقع فى فتنة إنْ عرف أولها فقد لا يعرف آخرها[1] .

وفى ضوء هذا الاستعداد عارض معاوية خلافة علىّ ، ووجد العذر الذى يظهره وهو أنه ولىّ دم عثمان ، وأن عليا تهاون فى الدفاع عن عثمان وآوى قتلته على أقل تقدير ، وبدأت سلسلة من المعارك أهمها صفين التى هُزِم فيها معاوية فى ميدان القتال ، وانتصر فى ميدان الحنكة والسياسة كما قلنا

---

(١) الإمامة والسياسة جـ ١ ص ٢١

عند الحديث عن عليّ ، وبعد معركة صفين قامت عدة معارك انتقص فيها معاوية ملك خصمه وضيق عليه ، وكان عليٌّ يعانى عناد خصمه وقوته ، ويعانى عناد الخوارج وقوتهم ، ويعانى فى العراق تمرُّدَ أتباعه ونفاقهم وقعودَهم عن نصرته ، وفى نفس الوقت كان معاوية مسموع الكلمة يعلو شأنه السياسى من يوم إلى يوم ، واستراح عليّ من هذه المشكلات عندما طعنه ابن ملجم طعنة قاتلة ، وخلا الأمر لمعاوية .

وبعد مقتل عليّ قامت محاولة ضئيلة ترمى إلى البيعة للحسن بن على ، أو قل إنه قد بويع فعلا من بعض الشيعة ، ولكن هذا الأمل سرعان ما انطفأ فى نفس الحسن ، حينما أشيع أنّ قائده قيس بن سعد بن عبادة قد قتل ، فإذا بأهل العراق — الذين كانت الفوضى ونكث العهد قد أصبحا من أبرز خصائصهم — ينهالون على بيت الحسن يهتكون حرماته ، وينهبون متاعه ، حتى نازعوه بساطاً كان يجلس عليه . ولم يسْلَم الحسن نفسُه من بعض الطعنات من هؤلاء البرابرة الغادرين[١] .

على أن الحسن بن على كان قد عاصر المشكلات التى عاناها أبوه ، وعرف الحسن أن أباه لم يستطع أن يتغلب عليها . وإذا كان عليّ البطل عجز عن حل هذه المشكلات فما أحرى الحسن بطلب السلامة ، إيماناً منه أن تيار الأحداث كان أقوى منه . على أن صفات الحسن لم تكن تهيئه للخلافة . فلم تكن له ميزة أعظم من أنه ابن على بن أبى طالب . وتلك لا تكفى قطعاً لنيل تلك المكانة . فلم يكن للحسن علم أبيه ، ولم تكن له بطولة أبيه . ولم تكن له سابقة أبيه ، ومع هذا غلبت أباه الأحداثُ . فأنّى للشاب المزواج المطلاق الذى يُروى أنه تزوج مائة امرأة[٢] أن يملأ هذا الفراغ . لقد كان

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٢٢

(٢) عقيدة الشيعة ص ٨٩ وفى تاريخ الخلفاء للسيوطى (ص ١٩١) أن زوجاته كن تسعين أما سراريه فكن مئات .

يجر على أبيه المتاعب ويخلق له الأعداء بسبب كثرة الزواج والطلاق حتى أوصى علىّ الناس ألا ينكحوه بناتهم[١] ، فكيف يستطيع الحسن أن يقود الناس ويوجه الأمور؟ لذلك نجده يقنع بشروط اشترطها لنفسه ولذويه ، ويتعهد بالتنازل عن حقه فى الخلافة إذا قبل معاوية هذه الشروط وهى :

١ ـ ألا يأخذ معاوية أحداً من أهل العراق بإحنة .

٢ ـ وأن يؤمّن الأسود والأحمر ، ويحتمل ما يكون من هفوات الناس ؛

٣ ـ وأن يجعل له خراج الأهواز مسلّماً كل عام .

٤ ـ وأن يحمل إلى أخيه الحسين ألفى ألف درهم .

٥ ـ وأن يفضل بنى هاشم فى العطاء على بنى عبد شمس[٢] .

ولم تكن هذه الشروط موضع نظر من معاوية . فإنه كان مستعداً أن يَعِدَ بأى شىء نظير تنازل الحسن ، ولذلك يقال إنه عندما عرف ميل الحسن للصلح على أساس التنازل نظير شروط ، أرسل له صحيفة بيضاء ممضاة ليكتب فيها ما يشاء من شروط .

وتم الصلح على هذا الأساس وتنازل الحسن لمعاوية وأعلن أنه سامع له مطيع[٣] .

ودخل معاوية الكوفة بعد ذلك (ربيع الثانى سنة ٤١ هـ) حيث التقى الحسن ومعاوية وبايع الناس معاوية وبايع معهم الحسن والحسين وسمى ذلك العام عام الجماعة لاجتماع الناس فيه على خليفة واحد . وعاد معاوية بعد ذلك إلى دمشق حيث اتخذها عاصمة للخلافة بعد أن كانت عاصمة إمارته . وعاد الحسن وأسرته إلى المدينة وبقى بها حتى توفى سنة خمسين أو إحدى وخمسين . ويقال إنه توفى مسموماً وأن زوجته هى التى سمّته بإيعاز من

---

(١) عقد الفريد جـ ٤ ص ٩٠

(٢) عمدة السيعة ص ٨٦

(٣) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ١٢٤

يزيد بن معاوية حتى يخلو له الجو بعد معاوية ؛ ولكن ذلك الاتهام لم يثبت ، فقد روى أن الحسين جهد به ليخبره عمن سقاه ، فأجاب : الله أشد نقمة إن كان الذى أظن ، وإلا فلا يقتل بى برىء[1] .

ويروى ابن قتيبة قطعة من الأدب الرفيع تتصل بموت الحسن ، قال : لما بلغ معاويةَ خبرُ موت الحسن أظهر فرحاً وسروراً ، فلما عرف عبد الله بن عباس ذلك دخل على معاوية فقال له معاوية : يا ابن عباس ، هلك الحسن . فأجاب ابن عباس : نعم هلك ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، وقد بلغنى الذى أظهرتَ من الفرح والسرور لوفاته ، أما والله ما سدَّ جسده حفرتَك ، ولا زاد نقصانُ أجله فى عمرك ، ولئن أصِبْنا به لقد أصبنا بمن كان خيراً منه جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجَبَرَ الله مصيبته ، وخلف علينا من بعده أحسن الخلف . وبكى ابن عباس فبكى الحاضرون جميعاً . قال معاوية : إنه ترك بنين صغاراً . قال ابن عباس : كلنا كان صغيراً فكبر . قال معاوية : كم أتى له من العمر ؟ فأجاب ابن عباس : أَمْرُ الحسن أعظم من أن يَجْهَل أحد مولده . قال معاوية : أصبحت يا ابن عباس سيد قومك . قال ابن عباس : أما ما أبقى الله أبا عبد الله الحسين فلا . قال معاوية : لله أبوك يا ابن عباس ما استنبأتك إلا وجدتك مستعداً[2] .

وصفات معاوية أهَّلته للنجاح فى المنصب الكبير الذى تولاه ، فمنصب الحاكم يحتاج إلى حزم أحياناً وإلى سماحة أحياناً أخرى ، وكان معاوية موهوباً فى الناحيتين ، يقول عنه ابن طباطبا[3] : كان جيد السياسة حسن التدبير لأمور الدنيا ، عاقلا حكيما ، فصيحاً بليغاً ، يحلم فى موضع الحلم

---

(١) السيوطى تاريخ الخلفاء ص ١٩٢

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة حـ ١ ص ١٦٦ — ١٦٧

(٣) الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ص ٩٢ — ٩٣

ويشتد فى موضع الشدة ، إلا أن الحلم كان أغلب عليه ، وكان كريماً باذلا للمال محباً للرياسة مشغوفاً بها ، كان يفضل على أشراف رعيته كثيراً ، فلا يزال أشراف قريش مثل عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وأبان بن عثمان بن عفان وناس من آل أبي طالب يفدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم ويحسن قراهم ويقضى حوائجهم ، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ويجبهونه أقبح الجبه وهو يداعبهم تارة ويتغافل عنهم أخرى ، ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنية والصلات الجمة . ومن حلمه أنه قال يوماً لقيس بن سعد بن عبادة : يا قيس ! والله ماكنت أودُّ أن تنكشف الحروب التى كانت بينى وبين عليّ وأنت حى . فأجابه قيس : والله إنى كنت أكره أن تنكشف هذه الحروب وأنت أمير المؤمنين . فلم يقل له شيئاً . ومما أثر عن معاوية قوله : إنى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، كانوا إذا شدوها أرخيتها . وإذا أرخوها شددتها[1] . ويروى المبرد[2] فلسفة رائعة لمعاوية فى معاملاته خصومه إذ يقول : إنى لا أحمل السيف على من لا سيف له . وإن لم تكن إلا كلمة يشتفى بها مشتف جعلتها تحت قدمى ودَبْرَ أذنى . ووصفه عبد الله ابن العباس فقال : ما رأيت أليق من أعطاف معاوية بالملك والرياسة . ومرَّ عبد الملك بن مروان بقبر معاوية فأكثر الترحم عليه ، فقيل له : قبر من هذا ؟ فأجاب : قبر رجل كان والله ينطق عن علم ويسكت عن حلم . كان إذا أعطى أغنى وإذا حارب أفنى[3] . ويروى عن معاويه قوله : إنى لأرفع نفسى من أن يكون ذنب أعظم من عفوى وجهل أكثر من علمى .

---

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد ج ١ ص ٢٩

(٢) الكامل ج ١ ص ٦١

(٣) الفخرى لابن طباطبا ص ٩٥ — ٩٦

أو عورة لا أداريها بسترى أو إساءة أكثر من إحسانى . وقوله : ما من شيء ألذ عندى من غيظ أتجرعه(١) .

وقد ابتكر معاوية فى خلافته أشياء لم يُسْبَقْ إليها ؛ فهو الذى أمر أن ترفع الحراب بين يديه ، وهو الذى وضع المقصورة ليصلى بها فى المسجد ليأمن هجمات الأعداء حين صلاته ، وقد كان ذلك بسبب قتل عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وهما يصليان(٢) . ومن مبتكرات معاوية كذلك وضع نظام البريد بحيث كانت الخيل المضمرة تقف مستعدة فى مراكز على طول الطريق ، فيركب صاحب البريد واحداً منها ويسرع به حتى يصل إلى محطة أخرى فيستبدل به غيره ويتركه ليستريح وهكذا ؛ وأنشأ معاوية كذلك ديوان الخاتم وسيأتى فى الحضارة الإسلامية مزيد من الحديث عن البريد والخاتم(٣) .

ومن أعوان معاوية الذين اعتمد عليهم فى تذليل الصعاب وكبح جماح المتمردين عمرو بن العاص ، وقد مر بعض الحديث عنه ، ولكنا نضيف هنا نقطة هامة توضح فطنة معاوية ودهاءه ، تلك أن أحاسيس عمرو تجاه معاوية لم تكن ودية ، ولا كانت أحاسيس معاوية ودية تجاه عمرو ، ولكن إدراك معاوية أن عمراً أحد الدهاة المشاهير وحاجته لمثل هذا الداهية ، وإدراك عمرو أنه يستطيع أن يجنى ثمار خدمات يقدمها لمعاوية . هـــذا الإدراك من الداهيتين جعلهما يتعاونان ويتبادلان المنفعة ويخفى كل منهما ما فى نفسه تجاه زميله ، وقد كان ذلك الإحساس المكنون يظهر من حين لآخر ، ولكن كلاً منهما كان من القوة والفطنة بحيث يستطيع أن يعيد هذا الإحساس إلى ستره ومخبئه . حدث ابن طباطبا(٤) قال : « ومن دهاء معاوية استمالته لعمرو بن العاص أحد الدهاة المشاهير . وقد كان عمرو عندما

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٢٤٨ (٢) المرجع السابق ص ٩٤

(٣) المرجع السابق ص ٩٤ وصبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٦٨ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٠٠ (٤) الفخرى ص ٩٣

نشبت الفتنة بين على ومعاوية معتزلا للفريقين ، فرأى معاوية أن يستميله ويتقوى به ، ففعل ، ووعده ولاية مصر ، ومصر كانت الأمل الذى تهفو له نفس ابن العاص ، وبهذا انضم عمرو إلى معاوية وساعده مساعدة كبيرة مع أنه لم يكن بينهما مودة قلبية ، وكانا يتباغضان سراً ، وربما ظهر ذلك على صفحات وجهيهما وفلتات ألسنتهما ، ومما يدل على ذلك أن معاوية سأل يوماً جلساءه : ما أعجب الأشياء ؟ فكانت إجابة عمرو قوله : أعجبُ الأشياء أن المُبْطِل يغلِب المُحِقّ . وكان بذلك يعرّض بعلىٍّ ومعاوية . فقال معاوية يرد عليه : إن أعجب الأشياء أن يُعطَى الإنسان ما لا يستحق إذا كان لا يُخَاف . وكان معاوية بذلك يعرّض بعمرو وولاية مصر . ومع ما كان بين الاثنين فقد اتسعت نفس معاوية لعمرو واستفاد منه وأفاده » .

ومما يدل على ذلك أيضاً ما رواه الطبرى[1] أن عليا شق الجموع فى موقعة صفين حتى أصبح على مقربة من معاوية . ثم صاح به : يا معاوية ، علام تُقتَل الناس بيننا ؟ هلمّ أحاكمك إلى الله فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور . فقال عمرو لمعاوية : أنصفك الرجل . فقال معاوية لعمرو : ما أنصفتَ إذ حشّتَنى على مبارزته وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قُتل . قال عمرو : ولكن لا يجمل بك إلا مبارزته . فأجاب معاوية : طمعتَ فيها بعدى .

ويروى الطبرى[2] كذلك أنه لما بايع الحسن معاوية ودخل هذا الكوفة واجتمع بالناس فى المسجد أراد معاوية أن يخطب الناس فأشار عليه عمرو أن يُقَدّم الحسن ليخطب الناس ، ولكن معاوية كان سيئ الظن بعمرو فقال له : أما تريدنى أن أخطب الناس ؟ فأجاب عمرو : لكنى أريد أن يبدو

---

(١) تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ٢٩ ، وانظر كذلك الإمامة والسياسة لابن قتيبة جـ ١ ص ١٠٣

(٢) تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ١٢٥

عىّ الحسن للجماهير . وألحّ علَى معاوية فاستجاب وقدم الحسن ، فأجاد هذا فى خطابه القصير وغمز فيه معاوية وختم خطابه بقوله تعالى « وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين[1] » فاغتاظ معاوية من عمرو وقال له : هكذا أردت يا ابن العاص .

ولما كمل الأمر لمعاوية أعطى مصرَ لعمرو طعمة له جزاء خدماته ، فظل واليا عليها حتى مات سنة ٤٣ هـ ، وبعده ولاّها معاويةُ عبدَ الله بن عمرو ابن العاص فبقى واليا عليها حوالى سنتين[2] .

ومن أعوان معاوية كذلك المغيرة من شعبة وزياد بن أبيه وعبيد الله ابن زياد .

والمغيرة بن شعبة كان والى الكوفة لمعاوية . والكوفة والبصرة أكثر البلاد عداء للأمويين ، ولذلك كان يختار لهما أقوى الولاة وأكثرهم إخلاصاً وكان المغيرة من أحسن الولاة الذين ساسوا الكوفة لأنه استطاع أن يضمن الطاعة لأمير المؤمنين بأقل ما يمكن من الضحايا والدماء . وقد وضح سياسته بقوله : لا أحب أن أبدأ أهل المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى ، ويعز فى الدنيا معاوية ويذل المغيرة فى الآخرة . ولكنى قابل من محسنهم وعاف عن مسيئهم وحامد حليمهم وواعظ سفيههم حتى يفرق بيننا الموت . ولكن يؤخذ على المغيرة استمراره على الطعن فى علىٍّ واللعن له ، ولعل ذلك كان أساساً لسياسة ذلك العصر . وقد ظل المغيرة والياً على الكوفة حتى مات سنة ٥١ هـ فضم معاوية ولاية الكوفة إلى والى البصرة ذى اليد الحديدية والقلب القاسى زياد بن أبيه .

وزياد ابن أبيه هذا كان واليا لعلىٍّ على فارس . وقد حاول معاوية أن يستميله إليه فى حياة على فلم يستطع ، فلما قتل علىّ حتى زياد على نفسه فاعتصم بفارس ولم يبايع . ورأى معاوية أن يتغلب عليه بالحكمة فأرسل إليه المغيرة بن شعبة وما زال به حتى بايع بعد أن أرسل إليه معاوية كتاب أمان .

---

(١) البقرة ٣٦ (٢) تاريخ الامم والملوك جـ ٤ ص ١٣٠ - ١٣٨

ويعرف زياد هذا بزياد ابن أبيه أو بزياد بن سمية نسبة إلى أمه سمية ، إذ لم يكن له أب معروف ، فقد حملت به أمه نتيجة اتصال غير شرعي ، ويقال إن أبا سفيان اعترف قبيل موته ، بحضرة بعض الشهود بأنه الذى اجتمع بأم زياد ، وزياد على كل حال ليس مسئولا عن هذه الجريمة التى ارتكبتها أمه أو ارتكبها الرجل الذى اتصل بأمه . ووهب الله زيادا براعة فائقة وبطولة نادرة مما حدا بأبي سفيان أن يعترف بأنه أبوه . ولكن نسب زياد إلى أبي سفيان لم يثبت إلا فى عهد معاوية سنة ٤٤ ﻫ حيث اعترف معاوية بأخوته له لينتفع به وبمواهبه ، ومنذ ذلك الحين أصبح يطلق عليه زياد ابن أبي سفيان[١] .

وقد ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان . وكانت بلاد العراق كثيرة الشغب على معاوية . وكان الفسق والفجور والفواحش كثيرة الانتشار فى بلاد العراق . ولذلك استعان معاوية على هذه البلاد بأكثر الناس صلة به وأقواهم على إعادة الأمور إلى نصابها ، ولما دخل زياد البصرة خطب الناس خطبته المعروفة بالبتراء لأنه لم يبدأها بحمد الله . وهى خطبة قوية جداً عدد فيها مساوئ أهل البصرة وتوعدهم بالويل والثبور . وأقسم لهم فيها « ليأخذن الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى . . . حتى تستقيم قناتهم[٢] » . وبر زياد فى قسمه بل زاد عليه أن أخذ بالشبهة . ومما يروى عن أخذه الناس بغير حق أن العسس قبضوا على أعرابى وجد فى الخلاء مساء حيث حرم زياد على الناس أن يخرجوا من بيوتهم . فلما مثل الأعرابى بين يديه سأله زياد : هل سمعت النداء ؟ فأجاب : لا والله . قدمت بحلوبة لى وغشينى الليل فأقمت لأصبح . ولا علم

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٦٣

(٢) اقرأ هذا الخطاب فى الطبرى ج ٤ ص ١٦٥ - ١٦٦

لى بما كان من الأمر . فقال زياد : أظنك صادقا ولكن فى قتلك صلاح الأمة ، وأمر به فضربت عنقه[١] .

تلك كانت سياسته الطاغية ، ولكننا نتفق مع أستاذنا الخضرى فى قوله : « إن عهد زياد بالعراق على ما فيه من قسوة كان عهد رفاهة وأمن ، وهذا مما يسطره التاريخ لعرب العراق آسفاً ؛ وذلك أنهم قوم لا يصلحهم إلا الشدة ، وإذا وليهم والٍ فيه لين ورحمة فسدوا وارتكبوا المصاعب وأجرموا إلى الأمراء والخلفاء من غير بينة واضحة[٢] » .

وقد ظل زياد والياً على البصرة . فلما مات المغيرة بن شعبة والى الكوفة ضم معاوية الكوفة إلى زياد سنة ٥١ هـ . كما قلنا من قبل . وكان زياد أول من ولى الكوفة والبصرة معاً[٣] . وقد ظل زياد والياً عليهما حتى مات سنة ٥٣ هـ ، فكان يقيم ستة أشهر بالكوفة وستة أشهر بالبصرة كما روى ذلك الطبرى[٤] ، ولم تكن الكوفة والبصرة وحدهما هما التابعتين لزياد وإنما امتد حكمه إلى نصف الإمبراطورية الشرقى برمته ؛ هذا النصف الذى تم فتحه من البصرة فى حين تركز اهتمام معاوية فى الغرب[٥] . وإذا قورن زياد بالمغيرة رجحه المغيرة . فالمغيرة حقق الهدف الذى حققه زياد بضحايا أقل . وذلك هو مقياس عظمة الرجال .

ويرى أستاذنا الخضرى ونرى معه أن الطريقة التى اتبعها زياد ، واتبعها المغيرة أحياناً . هى بمثابة النظام العرفى التى تلجأ له الدول فى الظروف الخاصة . فليس بطبيعة الحال نظاماً عاماً خاضعاً للقانون الإسلامى العام[٦].

ومن ولاة العراق القساة عبيد الله بن زياد . وقد سار سيرة أبيه . وقد

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٦٧
(٢) محاضرات فى التاريخ الإسلامى ٢ : ١٧٤
(٣،٤) الطبرى ج ٤ ص ١٧٤
(٥) بركلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ١ : ١٤٧
(٦) محاضرات فى التاريخ الاسلامى ص ١٠٧

بدأ معاوية بتوليته خراسان عقب وفاة زياد فأبلى فيها بلاء حسناً ، ثم نقله معاوية إلى البصرة سنة ٥٥ هـ عندما عرف فيه قوة الشكيمة التي كان يعرفها في أبيه ، ولم يزل والياً على البصرة حتى توفى معاوية[١] . فلما ثارت الكوفة في عهد يزيد ، وكتب أهلها يستدعون الحسين ، وأرسل هذا ابن عمه مسلم بن عقيل ليرود له الطريق فاجتمع حوله أهل الكوفة ، حينئذ أشار ناصحو يزيد عليه أن يعزل والى الكوفة النعمان بن بشير وأن يضم ولاية الكوفة لعبيد الله ابن زياد والى البصرة ، فعمل يزيد بذلك[٢] ، فقدم عبيد الله إلى الكوفة وسارت الأحداث على نحو ما سنوضح فيما بعد عند الحديث عن الشيعة .

ونختم حديثنا عن معاوية ذاكرين أن عهده كان من أنضر عهود الخلافة الإسلامية ، كان فيه الأمن الداخلي مستتباً ، فقد غُلبت على أمرها كل العناصر المعادية لمعاوية ، غلبت بخلقه وعطائه أو بسيفه ومضائه ، وكان عهده حافلا بالرخاء والغنى ، أما العلاقات الخارجية فقد كان للمسلمين فيها النصر و الغلبة ، كما سنوضح ذلك عند الحديث عن الفتوحات الإسلامية . لقد كان عهد معاوية عهداً طويلا ، ولكنه كان عريضاً أيضا ، حفل بكل الأسباب التي تهيئ دولة عظيمة وأمة ناجحة .

---

(١) الطبري ـ ٦ ص ٢٠١

(٢) المرجع السابق

يزيد (٦٠ – ٦٤هـ)

هو يزيد بن معاوية وأمه ميسون الكلبية ، وهى امرأة بدوية تزوجها معاوية قبل أن يلى الخلافة ، ولكنها لم تحتمل حياة الحضر ، ويروى عنها شعر تحن فيه إلى حياة الخيام ودنيا البادية وتذم القصور واللباس الشفوف ، فأعادها معاوية إلى أهلها ومعها ابنها يزيد ، فنشأ هذا فى البادية حيث أجاد اللغة والأدب والصيد بقدر ما جهل الخداع والسياسة والإدارة .

وقد بدأت فكرة المبايعة ليزيد سنة ٤٩ هـ ، وكان الذى بدأ بها المغيرة ابن شعبة ، ويروى أنه أحس بأن معاوية ينوى عزله عن الكوفة ، فذهب إلى الشام وقابل يزيد وقال له : « ذهب أعيان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبراء قريش وذوو أسنانهم ، وإنما بقى أبناؤهم وأنت من أفضلهم ، ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة . قال : أو ترى ذلك يتم ؟ قال : نعم »[1] .

وأخبر يزيد أباه بذلك الرأى ، فاستدعى معاويةُ المغيرةَ وسأله فى ذلك . فحسَّن المغيرة له هذا الرأى ، ووصفه بأنه الطريق لحقن الدماء وجمع الكلمة . فسأله معاوية : ومن لى بهذا ؟ فأجابه المغيرة : أنا أكفيك الكوفة ويكفيك زياد البصره . وليس بعد هذين المِصْرَيْنِ أحد يخالفك .

ويروى السيوطى[2] دور المغيرة فى بيعة يزيد بصيغة أخرى ، قال : كتب معاوية إلى المغيرة يقول : إذا قرأت كتابى فأقْبِلْ معزولا . فأبطأ المغيرة على معاوية . فلما حضر سأله : ما أبطأ بك ؟ فأجاب : أمرٌ كنت أوطِّئه وأهيِّئه . قال : وما هو ؟ قال : البيعة ليزيد من بعدك . قال : أو قد فعلت ؟ قال : نعم . قال : ارجع إلى عملك . ولا تبْعُدُ عن ذلك رواية ابن عبد ربه فى العقد الفريد[3] .

---

(١) انظر الطبرى جـ ٤ ص ٢٢٤

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٠٥ (٣) الجزء الأول ص ٩٧ – ٩٨

وعلى كل حال فقد وضع المغيرة هذه البذرة فى أرض خصبة فبدأت تنمو وتزدهر ، وكوفئ عليها بأن عاد إلى الكوفة دون أن يعزل ، وقل كذلك إن حركة المغيرة كانت تعبيراً عن هَوى فى نفس معاوية ، هوى أغلب الظن أنه ساوره منذ مدة ، ولكنه كان ينتظر الأوان لإبرازه ، فانتهز معاوية هذه الفرصة ليتحسس صدى هذا الرأى عند الآخرين . فكتب إلى زياد يستشيره . فأجابه زياد بأن يتريث ، وأضاف بأن يزيد صاحب تهاون مع ما قد أولع به من الصيد[1] . وكان القوم يعدون الصيد من أمور النزق والطيش فى ذلك الوقت فهدأت الفكرة إلى حين .

ولما مات زياد ، أصر معاوية على أن يحقق لابنه أمله . واعتمد على عبيد الله بن زياد وأمثاله ممن بدءوا يرساون إليه الرسل يؤيدون هذا الرأى ويثنون على يزيد ، ولم يبق أمامه إلا الحجاز يقوده الحسين بن على وعبد الله ابن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن العباس . وقد أعان هؤلاء رفضهم لتعيين يزيد وهاجموا هذه الفكرة . فاضطر معاويه أن يذهب بنفسه إلى المدينة . فانتقل هؤلاء إلى مكه . فلحق بهم معاويه . وهناك حادثهم وذكّرهم ببرّه بهم وبآهليهم وصلته لأرحامهم مع كرههم له ، ودعاهم لمبايعة ابن عمهم يزيد. فنفروا وثاروا فتوعدهم معاويه . وصاح فيهم : « إنى كنت أخطب فيكم فيقوم إلىّ القائم منكم فيكذبنى على رءوس الناس فأصفح ، وإنى اليوم قائم بمقالة وأقسم بالله لئن رد على أحد منكم كلمة فى مقامى لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه . فلا يبقينّ رجل إلا على نفسه » ثم دعا صاحب حرسه أمامهم فقال له . أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل منهما سيف ، فإن ذهب رجل منهم يرد علىّ وأنا أخطب بكلمة تصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما . ثم خرج إلى المسجد وأخذهم معه ورقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال

---

(١) الطبرى - ، ص ١٢٥

إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبتز أمر دونهم ، ولا يقضى إلا عن مشورتهم . وأنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله . ولما سمع الناس هذا القول اعتقدوا أن زعماءهم بايعوا فأقبلوا فبايعوا[1].

ولما مات معاوية تجددت البيعة ليزيد رضى الناس أو كرهوا ، وامتنع عن البيعة الزعماء السابقون ، فكتب يزيد إلى واليه على المدينة أن يشدد على هؤلاء النفر . فبايع بعضهم وامتنع الحسين وعبد الله بن الزبير وظلا على عنادهما ، وعمل كلٌّ منهما على أن ينال الأمر بنفسه ، وبدأ صراع سنعرض له فيما بعد . سقط فيه الحسين فى كربلاء فى عهد يزيد . فخلا جوُّ المعارضة لابن الزبير الذى كوَّن له خلافة استمرت بضع سنوات . وظل يدافع عنها حتى سقط فى عهد عبد الملك بن مروان على يد الحجاج بن يوسف .

هل كان معاوية مصيباً أو مخطئاً فى تعيينه ابنه يزيد خليفة من بعده ؟

الإجابة عن هذا السؤال تكمن فى بضع نقاط هى :

أولا : كان معاوية مصيباً فى فكرة تعيين خليفة من بعده ، فالعالم الإسلامى لم ينس الأهوال التى مرت به بعد قتل عثمان بسبب الطمع فى الخلافة . وقد أيَّد هذه الفكرة كبراء مكة الذين سبق ذكرهم عندما كتب معاوية لواليه على المدينـــة مروان بن الحكم يقول له : « إنى كبرت سنى ورق عظمى وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى . وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بهذا الأمر بعدى . وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك ، فاعرض ذلك عليهم وأعلمنى بالذى يردون عليك » فلما أخبرهم مروان بنيَّة معاوية فى تعيين خليفة من بعده وافقوا . مع العلم أنه لم يحدد فى هذه المرحلة مَنْ سيكون ذلك الخليفة .

---

(١) انظر رواية الطبرى جـ ٤ ص ٢٢٦ وما بعدها . وقد أورد السيوطى فى تاريخ الخلفاء ص ١٩٧ رواية أخرى فيها نفس النتيجة . وانظر كذلك العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ٤ ص ٣٧١ وما بعدها .

ثانياً : نقم زعماء المدينة السالفو الذكر أن يعين معاوية ابنه خلفا له وصاح عبد الرحمن بن أبى بكر قائلا « ما الخيار أردتم لأمة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل » ووافقه على ذلك غيره من الزعماء بالمدينة ، ولعمرى إن سؤالا هاما يخطر بالبال ويعجز الباحث عن أن يجد له جوابا وهو : لماذا لم يُقَل مثل هذا القول عند ما كان على يطالب بالخلافة باسم قرابته من الرسول ؟ وعند ما تولى الحسن مكان أبيه عقب مقتل الأب ؟ والذى لا شك فيه أن بنى هاشم هم الذين بدأوا بخلق فكرة الهرقلية فى الحكم الإسلامى .

ثالثاً : ومن الناحية العملية كان نقل الخلافة من الأمويين إلى غيرهم فى ذلك الوقت مطلبا يكاد يكون مستحيلا . فالولاة على الأقاليم كانوا من بنى أمية أو من أتباعهم ، وانتقال الحكم إلى الحسين مثلا سيكون معناه عزل هؤلاء الولاة . ثم رفضهم العزل أو رفض بعضهم ، ثم تكرار معارك الجمل ومعارك صفين على نحو أوسع . فلا يمكن أن نطالب بشىء دون أن يكون ممكن التنفيذ ، لقد كان الحاكم فى عهدى أبى بكر وعمر يتبع هيئة معنوية هى الخلافة الإسلامية ، فأصبح بحكم الظروف آنذاك يتبع شخص الخليفة .

رابعاً : لم يكن معاوية يقصد الخير للمسلمين فى تعيينه ابنه يزيد بقدر ما كان يقصد تهيئة أسباب السعادة . لابنه وهذا مما يؤخذ عليه ، ولو كان يريد الخير للمسلمين لاختار من بنى أمية من هو أصلح من يزيد .

خامساً : على أن معاوية مع عظم سلطانه لم يستطع أن يهمل ديمقراطية الإسلام ، فنجده يعمل لتولية ابنه عدة سنوات . ويبذل العطاء ويقرب البعيد . ويقوم برحلات نائية يسأل فيها الناس أن يبايعوا ليزيد . ولولا ديمقراطية الإسلام لعيّن معاوية ابنه دون هذا العناء الذى تشعب وطال .

سادساً : لم يكن يزيد كفئاً لهذا الأمر الضخم ولكن معارضيه بالمدينة لم يكونوا أفضل منه . . هل يعدّ أفضل منه عبد الله بن الزبير ذلك الرجل

الأنانى الذى يطيب له أن يهلك الناس جميعاً ليبنى على جثثهم مجده وعرشه ؟ لقد دفع ابن الزبير بخالته عائشة إلى أتون الحرب حيث خر الآلاف من المسلمين قتلى ، ودفع ابن الزبير بالحسين ليقاوم بنى أمية لا أملا فى نجاح الحسين ولا تأييداً له ، ولكن ليموت الحسين فيخلو لابن الزبير الجو ، ومثل هذا الرجل أبعد ما يكون عن الصلاحية ليَلِيَ خلافة المسلمين ، وأما الحسين ابن على ففضله أنه من الأرومة الطيبة وأنه قريب النسب بالمصطفى صلوات الله عليه ، وفيما عدا ذلك لا يثبت له التاريخ مفخرة يستطيع بها أن يتقدم ليحمل هذا العبء ، ولقد كان إلى عمل الأغرار أقرب منه إلى عمل الحكماء حينما قبل دعوة أهل العراق وسار إليهم مع نسائه وأولاده وهو يعلم أن أهل العراق خذلوا أباه وأنهم كما وصفهم الفرزدق له : قلوب معه وسيوف مع بنى أمية ، وأما عبد الله بن عمر فرجل آخرة أكثر منه رجل سياسة وإدارة ، وأما عبد الرحمن بن أبى بكر فهو كما وصفه معاوية : إذا رأى أصحابه فعلوا شيئا فعل مثله ، ليس له همة إلا فى النساء واللهو(١).

وخلاصة القول أن تعيين معاوية لخلفه عمل حكيم ، وأن كون الخليفة الجديد من بنى أمية أمر مسلم به للضرورة ، ولم يبق إلا تحديد الأموى الذى يتولى الخلافة بعد معاوية ، ونعتقد أنه كان فى بنى أمية مَنْ يفضل يزيد كعبد الملك بن مروان مثلا ، وإن كان يزيد لم يكن أقل من نظرائه كما سبق القول ، وقد أخذ على يزيد قتله للحسين ورميه الكعبة بالمنجنيق ، ولكن التاريخ يؤكد أن ذنب ذلك يقع على من قاد الحسين للقتل وعرّض مكة لمقذوفات المنجنيق أكثر مما يقع على يزيد . وسيأتى تفصيل ذلك .

ونختم هذا الموضوع بملاحظة واضحة هى أن أكثر الذين طمعوا فى الخلافة أو رشحوا أنفسهم لها أو رشحهم الناس هم من أولاد الخلفاء ، ومعنى هذا أن النظام الوراثى كان قد وجد طريقه إلى أكثر القلوب والعقول .

---

(١) اقرأ وصف معاوية لهؤلاء الأربعة فى الطبرى جـ ٤ ص ٢٢٨ ، ٢٢٩

ومن أهم الرجال الذين اعتمد عليهم يزيد ، عبيدُ الله بن زياد ابن أبيه، ومسلم بن عقبة المرى . وقد مرّ الكلام عن الأول وسيجىء فيما بعد مزيد من الكلام عنه ، أما مسلم بن عقبة فأهم مايرتبط باسمه موقعة الحرة ، ومن حديثها أن أهل المدينة خلعوا يزيد وسجنوا مَنْ بالمدينة من بنى أمية ثم أخرجوهم منها ، فأرسل إليهم يزيد يردهم إلى الطاعة دون قتال فامتنعوا ، فأرسل لهم جيشاً كثيفاً بقيادة مسلم بن عقبة المرى ، وقال له يزيد : ادعهم إلى البيعة ثلاثة أيام دون حرب ، ولا تقاتلهم إلا بعد انقضاء هذه المدة ، ففعل مسلم ، ولكن أهل المدينة استمروا فى عصيانهم ، فهاجمهم مسلم من جهة الحرة ، وانتصر عليهم ، وأباح المدينة لجنده ثلاثة أيام[1] ، وكان ذلك فى ذى الحجة سنة ٦٣ هـ .

ومن الأسباب الهامة التى أدت إلى هزيمة أهل المدينة نذكر سببين رئيسين :

الأول : أن أهل المدينة أخرجوا بنى أمية منها . واكتفوا منهم بأن أخذوا عليهم العهود ألا يدلوا على عوراتهم ، وألا يظاهروا عليهم ، وذلك — كما ترى — عمل ساذج فلا بدّ لبنى أمية المطرودين أن يساعدوا ذويهم . وأن يرشدوهم إلى أيسر الطرق للتغلب على هؤلاء المتمردين على سلطان أسرتهم . وهذا ما كان ، فقد أدلى عبد الملك بن مروان لمسلم بن عقبة بمعلومات وأفكار كانت من أهم أسباب النصر السريع . فبناء على رواية الطبرى نصح عبد الملك مسلما أن يختار الحرة مكاناً لهجومه ، وأن يبدأ الهجوم فى مطلع النهار حيث تكون الشمس بين أكتاف أهل الشام فلا تؤذيهم، وتكون فى وجوه أهل المدينة فيصيبهم أذاها ويعميهم شعاعها[2] .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ٣١٠ وما بعدها ، والفخرى فى الآداب الإسلامية ص ١٠١ — ١٠٢

(٢) تاريخ الأمم والملوك جـ ، ص ٣٧٣

الثانى : أن أهل المدينة ولوا عليهم رجلين ، فولى الأنصار عبد الله ابن حنظلة ، وولت قريش عبد اللهبن مطيع ، وكان هذا دليل تفكك وانقسام من أول الأمر ، ويروى أن عبد الله بن عباس لما سمع بذلك قال : أميران ! ! هلك القوم[1] .

لقد سقط فى موقعة الحرة خيرة أبناء الأنصار والمهاجرين ، فمن المسئول عن هذه المعركة وهؤلاء الضحايا ؟

لست أستطيع أن أخلى أهل المدينة من مسئولية كبيرة ، فهَبْ أن يزيد لم يكن صالحاً للخلافة ، ولكن التفكير الإسلامى واضح فى أن « الإمام الجائر خير من الفتنة ، وكلٌ لا خير فيه ، وفى بعض الشر خيار » كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن أهل المدينة يستطيعون أن يقفوا فى وجه جيش الشام بعَدده وعُدَده ، فلماذا استمروا فى عصيانهم ؟ وقد دعاهم مسلم ثلاثة أيام وهو يحدق بهم ولكن العصبية الحمقاء أو الكبرياء الأهوج دفعا القوم إلى الاستمرار فى إشعال هذه النار التى صاروا لها حطباً بعد وقت وجيز .

ولا نخلى مسلم بن عقبة من مسئولية باهظة لحمقه وإسرافه فى إراقة الدماء ، فالرجل المريض الذى كانت إحدى رجليه فى المعركة والأخرى تتقدم إلى القبر ، أراد أن يختم حياته بهذه القسوة وتلك الوحشية ، فلم يكتف بالانتصار وإخضاع الثائرين ، ولكنه أباح مدينة الرسول ثلاثة أيام للجيش المنتصر ، كما استمر فى إراقة الدماء بعد أن كتب له النصر ، وإذا كان ليزيد يدٌ فى هذا التصرف الأهوج فهو شريكه فى هذه المسئولية .

نهاية يزيد

كانت نهاية يزيد قريبة ، فقد كان حكمه حوالى ثلاث سنوات فقط . ومات وهو فى شباب غض ، ولم يهنأ يزيد بالخلافة يوماً واحداً ، فقد

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد حـ ٤ ص ٣٦٩

ثارت فى وجهه الأحداث ، فأخذ يعالجها ، ولكن العلاج كان أقسى من الداء ، ثار فى وجهه الحسين كما سيأتى تفصيله عند الكلام عن الشيعة ، فقتله له عبيد الله بن زياد ، وكانَ قتله باباً من الشر على بنى أمية لم يقفل قط ، وثارت عليه المدينة فكانت موقعة الحرة المشئومة التى أراق مسلم بن عقبة فيها دماء مئات من الصحابة الأجلاء ومن أبنائهم ، فجلب ذلك الفعل سخط المسلمين على يزيد ، وثار عليه ابن الزبير بمكة فأرسل جيشاً رمى الكعبة بالمنجنيق وهدمها كما سيأتى بيانه عند الحديث عن ثورة ابن الزبير ، ويقول ابن طباطبا إن ولاية يزيد كانت ثلاث سنين وبضعة أشهر ، ففى السنة الأولى قَتَلَ الحسين بن على ، وفى السنة الثانية نَهَبَ المدينة وأباحها ثلاثة أيام ، وفى السنة الثالثة غزا الكعبة[1] .

ومات يزيد وخلف هذه التَركة المثقلة ، فناء بها ابنه ، وحملها مروان ابن الحكم مدة عام ، ثم تولى حماها البطل عبد الملك بن مروان ، فاستطاع أن يلمّ الشعث ويوحّد العالم الإسلامى مرة أخرى ، ويضمن عمراً جديداً للخلافة الأموية ، بعد أن كانت هذه الخلافة على وشك الزوال كما سيأتى فيما بعد .

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٩٨ ورواية الطبرى (ج ٤ ص ٣٧٠) تجعل وقعة الحرة سنة ٦٣ . وعلى هذا ففى سنة ٦٢ لم يكن فيها أى من هذه الأحداث الثلاثة .

معاوية الثانى (٦٤ هـ)

لا نخصص فراغا يذكر للحديث عن معاوية الثانى ، فقد كان شابا ضعيفاً لم تطل خلافته أكثر من أربعين يوما ، ثم تنازل عن الخلافة لمرضه ، وانزوى فى بيته حتى مات بعد ثلاثة أشهر .

كيف آلت الخلافة إلى هذا الشاب المريض الذى لم يطمع فيها قط ؟ الجواب أن جده معاوية وضع أسس الوراثة فى الخلافة وكافح سنين عدة لتتم بيعة يزيد ، وبالتالى تهيأ الناس للأخذ بهذا النظام ، ولذلك بايع أهل الشام معاوية بعد موت أبيه . ولكن ابن الزبير كان قد أعلن نفسه خليفة فى عهد يزيد ، ومات يزيد قبل القضاء على ابن الزبير ، ولما مات يزيد كبر أمل ابن الزبير فى النجاح ، وجاء معاوية الثانى فى هذه الظروف فأدرك أنه لا قوة له للاشتراك فى هذا الصراع فجمع الناس بالمسجد وخطب فيهم خطبة قال فيها : إنى قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر ابن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده . فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم . فأنتم أولى بأمركم ، فاختاروا له من أحببتم ، فما كنت لأتزودها ميتا وما استمتعت بها حيا[1] .

وانتهت بذلك صفحة معاوية الثانى من التاريخ ، وانتهى بانتهائه العهد السفيانى وبدأ العهد الأموى الثانى . وهو عهد بنى الحكم بن أبى العاص ابن أمية . ويروى أن عبد الملك بن مروان كان يرى أن سرعة نهاية الفرع السفيانى جاءت نتيجة لقتل الحسين . ولذلك كتب إلى الحجاج يقول : جنِّبْنى دماء بنى عبد المطلب فليس فيها شفاء الحرَب (بفتح الراء ومعناه الغضب) وإنى رأيت بنى حرب نداعى ملكهم لما قتلوا الحسين بن على[2] .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٠٩ ، وانظر كذلك الفخرى لابن طباطبا ص ١٠٢ ؛ تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢١١

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٤٠٢

مروان بن الحكم (٦٤ – ٦٥ هـ)

مرّ بنا الحديث عن مروان بن الحكم فى عهد عثمان وفى موقعة الجمل ، ولما انتهت موقعة الجمل اعتزل مروان السياسة وبايع علياً وأقام بالمدينة ، ولما آلت الخلافة إلى معاوية قرّبه معاوية اعترافاً بالمساعدات التى قدمها إليه يوم كان حاملا لخاتم عثمان ، وإيماناً منه بأن مروان لعب دوراً هاماً فى حرب الجمل أضعف به علياً وقضى بسهمه على طلحة ، وأما مبايعته لعلى بعد ذلك فقد أخذها معاوية على أنها للضرورة لحماية مصالح بنى أمية بمكة والمدينة ، ثم كان حلم معاوية الذى اتسع للجميع ورغبته الاستفادة من الكفاءات المختلفة .

وعلى هذا ولّى معاوية مروان ولاية المدينة . وفى عهد يزيد كان مروان مقرباً إليه وكان بين مشيريه بدمشق . ومات يزيد ثم تنازل خلفه عن الخلافة دون أن يعين من يخلفه . واختلفت كلمة بنى أمية فيما بينهم واختلف الناس عليهم فأوشك ملكهم أن يضيع ، ويُروى أن مروان نفسه كان على وشك أن ينطلق لابن الزبير فيبايعه لولا أن عبيد الله بن زياد قال له : « استحييت لك مما تريد ، أنت كبير قريش وسيدها تصنع ما تصنعه ، فدب الأمل فى نفس مروان وأجاب : ما فات شىء[1] .

وكانت حالة ابن الزبير فى ذلك الوقت فى تقدم واضح فقد دان له الحجاز وتبعه أهل الكوفة والبصرة — وكان عبيد الله بن زياد قد أخلاهما وفرّ تحت ضغط الأحداث — كما تبعه أهل الجزيرة وأمراء الشام وهم من قيس . ولم يبق على الولاء لبنى أمية إلا الأردن وكان واليها حسان بن مالك من [illegible] كان الحالة التى حققها عبد الله بن الزبير أو شوقت له جعلت بعض

[illegible]

المؤرخين يراه خليفة ذلك العصر ، ويَعُدُّ مروان بن الحكم متمرداً عليه ولا يعترف له بخلافة ، كما لا يعترف بخلافة عبد الملك إلا من يوم موت ابن الزبير واجتماع الكلمة عليه[1] .

ويجدر بنا أن نعطي بعض التفاصيل عن الحالة بالشام في ذلك العهد ، فإن العصبية كانت قد بدأت تظهر بين عرب الشمال (قيس) وعرب الجنوب (كلب) ، وكان عرب الشمال يميلون إلى ابن الزبير فبايعوا له وعلى رأسهم الضحاك بن قيس أمير دمشق والنعمان بن بشير أمير حمص وزفر بن الحارث الكلابي أمير قنسرين ، أما كلب فكانت تعضد الأمويين ولكنها انقسمت على نفسها فبعضها يريد البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية لأنهم أخوال أبيه ولأن منزلته ستكون لهم كما عبَّر عن ذلك مالك بن هبيرة ، وبعضهم يريد البيعة لمروان بن الحكم لسنّه وتجاربه ، وكان على رأس هؤلاء الحصين بن نمير الذي أجاب : لا بعمر الله لا تأتينا العرب بشيخ ونأتيهم بصبي ، وأخيراً اجتمعت كلمة كلب وبني أمية في مؤتمر الجابية الذي عقد في ذي القعدة سنة ٦٤ على البيعة لمروان بن الحكم ثم خالد بن يزيد من بعده ثم عمرو بن سعيد بن العاص[2] . وبهذا رضي كل الطامعين في الخلافة من بني أمية كما رضي أتباعهم .

كان أمام مروان صراع طويل أوله صراع بالشام مع القيسية الذين يقودهم الضحاك بن قيس ، وبعد ذلك يخرج الصراع إلى العراق والحجاز ومصر وغيرها ، وقد حصلت موقعة كبيرة بين الضحاك وبين مروان في «مرج راهط» في المحرم سنة ٦٥هـ قتل فيها الضحاك وكثيرون من قومه وفرّ بعدها النعمان وزفر ، وخلت الشام بذلك لمروان[3] . وبعدها سار إلى

---

(١) اقرأ تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢١٢ ، ٢٠٠ ، ٢١٥ والعقد الفريد ج ٤ ص ٣٦١

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٥٠٠ – ٥٠١

(٣) المرجع السابق ص ٤١٥ – ٤١٦ .

مصر فافتتحها وبايعه أهلها وترك بها ابنه عبد العزيز والياً عليها ، وأرسل عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق إلى فلسطين حيث كان مصعب بن الزبير قد زحف عليها ، فانتصر عمرو فى هذه المعركة ، وعاجلت المنية مروان قبل أن تظهر نتيجة الصراع الذى بدأ فى الحجاز والعراق فمات فى رمضان سنة ٦٥ هـ بعد أن عهد بالخلافة من بعده لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز وأهمل قسم مؤتمر الجابية السالف الذكر(١) .

وكان مروان يتمتع بحكمة وسداد رأى وفصاحة وشجاعة ، وكان يجيد قراءة القرآن ، ويروى كثيراً من الحديث عن كبار الصحابة وبخاصة عمر ابن الخطاب وعثمان ، وإليه يرجع الفضل فى ضبط المكاييل والموازين .

ومن أهم الرجال الذين اعتمد عليهم مروان ، عبيد الله بن زياد وعبد الملك ابن مروان وعبد العزيز بن مروان . وقد تحدثنا من قبل عن عبيد الله وسنعود للحديث عنه فيما بعد . أما عبد الملك فلنا عنه حديث طويل عند الكلام عن خلافته . والحديث عن خلافة عبد الملك سيشمل كذلك حديثنا عن أخيه عبد العزيز بن مروان .

---

(١) [illegible]

عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ)

عبد الملك هو المؤسس الثانى للدولة الأموية ، تولى الخلافة والعالم الإسلامى متفكك ، فابن الزبير أعلن نفسه خليفة فى الحجاز ، والشيعة ثائرون ، والخوارج متمردون ، والمختار بن أبى عبيد الثقفى يقود جيشاً كبيراً يبطش به دون أن يعرف لماذا يبطش ، وسيأتى تفصيل الكلام عنه . وقد استطاع عبد الملك أن يرد البلاد كلها إلى الطاعة وأن يقضى على كل تمرد وعصيان فاستحق أن يوصف بأنه المؤسس الثانى للدولة الأموية .

وعبد الملك كان يتمتع بثقافة عالية وكان يُعَدّ أحد فقهاء المدينة ، من طبقة سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير . ويقول الشعبى عنه : ماذاكرت أحداً إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك فإنى ماذاكرته حديثاً إلا زادنى فيه ، ولا شعراً إلا زادنى فيه[1] . وكان يقال فقهاء المدينة أربعة : سعيد ابن المسيب وعبد الملك بن مروان وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب . وقال ابن عمر عنه : ولد الناس أبناء وولد مروان أباً[2] .

وقد عهد له أبوه بالخلافة بعد فترة قصيرة من مؤتمر الجابية الذى تقرر فيه أن يلى خالد بن يزيد الخلافة بعد مروان . ثم يليها من بعده عمرو ابن سعيد بن العاص . ولم يُحْدِث التغيير الذى قام بها مروان أثراً كبيراً لأن العالم الإسلامى ــ كما قلنا من قبل ــ كان قد اتجه إلى نظام الثورات السياسى . ثم لأن شخصية عبد الملك كانت ترجح كل شخصيات ذلك العهد نفرياً ، ولم يسخط على بيعة عبد الملك إلا عمرو بن سعيد فدفع رأسه ثمناً لهذا السخط كما سيأتى فيما بعد .

ويبدو أن عبد الملك كان رجل ساعة . فقد كان ثابت الجأش لا تزعزعه الشدائد ، بل كان يميل إلى مصارعة الشدائد ليزعزعها هو . ويروى

(١) الفخرى ص ١٠٦ (٢) السيوطى . تاريخ الخلفاء ص ٢١٦

المسعودى[1] أن عبد الملك سار على رأس الجنود الشامية ليساعد عبيد الله ابن زياد الذى كان يحارب المختار بن عبيد . وحطّ عبد الملك رحاله فى الطريق ليلةً . فجاءه خبر مقتل عبيد الله وانهزام جنده ، ثم جاءه بعد قليل خبر انهزام جيشه الذى أرساه لمحاربة ابن الزبير بالمدينة . وتلاه خبر ثالث بدخول جنود ابن الزبير أرض فلسطين . وخبر رابع بمسير إمبراطور الروم مهاجماً حدود الدولة الإسلامية عند المصيصة . وخبر خامس بأن عبيد دمشق وأوباشها أطلقوا المسجونين وهاجموا السكان . وخبر سادس أن بعض الأعراب أغاروا على حمص وبعلبك . . . . . قال المسعودى : يُروى أن عبد الملك لم ير فى ليلة قبلها أشد ضحكا ولا أحسن وجهاً ولا أبسط لساناً ولا أثبت جناناً من تلك الليلة تجلداً وسياسة . وواجه هذه الأحداث وانتصر عليها ، وأعاد الأمن وقطع دابر الفتن .

ومن أهم الأحداث التى واجهت عبد الملك ثورةُ عمرو بن سعيد الأشدق . وقد كان عمرو يطمع فى الخلافة بعد مروان . وكان مروان نفسه يبدو يطمعه أن يقدمه على خالد لحداثة سِنِّ خالد ولانشغاله بالعلوم عن الخلافة . ولهذا نجد عمرو بن سعيد يجاهد جهاد الأبطال لتثبيت الأمر لمروان . ولكن مروان خدعه وولّى عهده ولديه عبد الملك ثم عبد العزيز .

ورأى عبد الملك من الحكمة أن يداهن عمْراً فيبدو أنه وعده بالخلافة من بعده وذكره أن من العار أن يختلف بنو أمية وهناك ابن الزبير على وشك أن ينتصر أمره ويَسْتحق أعداءه . فبقى عمرو بين القناعة بهذا الوعد وبين الرغبة فى إعلانه وتثبيته . وظل الحال على ذلك حتى سنة ٦٩ أو سنة ٧٠ هـ حيث خرج عبد الملك تجاه العراق يريد مصعب بن الزبير ومعه عمرو . فقال هذا لعبد الملك : قد كان أبوك وعدنى هذا الأمر من بعده . وعلى هذا جاهدتُ معه وقد كان من بلائى معه ما لم يخف عليك . فاجعل

---

(1) مروج الذهب ج ٢ ص ١٠٣ ؛ وانظر كذلك تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٢١

لى علناً هذا الأمر من بعدك . فلم يجبه عبد الملك بشيء . فانصرف عمرو عائداً إلى دمشق فى غفلة من عبد الملك . وهناك استولى عليها وتحصن بها ، ولما عرف عبد الملك ذلك عاد إلى دمشق ودارت مناوشات بين الاثنين ولعبت السياسة دوراً هاما فاصطلح الاثنان وعاد مظهر الصفاء بينهما ، ولكن عبد الملك لم يغفر لعمرو خروجه عليه ، ووجد أن ملكه مزعزع ما دام عمرو سيئ النية به .

وفى إحدى الليالى أعدّ عبد الملك عدته واستدعى عمراً لزيارته فخرج هذا إليه فى عدة من مواليه وأتباعه ، ودخل عمرو ولكن أتباعه كانوا يحجزون أولا بأول خلف الأبواب فلما وصل عمرو إلى حيث يجلس عبد الملك كان عمرو وحده ليس معه إلا وصيف واحد . وفتك عبد الملك بعمرو ، ولما أحس بأعوان عمرو يهتمون به ويحيطون بالقصر ألقى إليهم رأسه وألقى معها بدر الأموال فلما رأى الناس رأس عمرو يئسوا من مساعدته وانهالوا على بدر الأموال يلتقطونها وينصرفون بها ، واستتب أمر دمشق لعبد الملك(١) .

وكان عبد الملك يقود جيوشه بنفسه فى أكثر الأحوال . وكان النصر حليفه . ومن أهم المعارك التى قادها معركة العراق ضد مصعب بن الزبير وقد انتصر فيها عبد الملك وقتل مصعب ، وسيأتى مزيد من الكلام عن عبد الله بن الزبير وصراعه مع الدولة الأموية ، ولكنا هنا نقول إن عبد الملك حينما أراد أن يقود جيش الشام ليلتقى بمصعب أشار عليه رؤساء أهل الشام أن يقيم هو بالشام ويبعث على الجيوش قائداً غيره ، فإن ظفرت جيوشه فذاك وإلا أمدّهم بجيوش أخرى . وقالوا له : إننا نخشى أن تُصاب بسوء فلا يكون للناس ملك يدبّر أمرهم ، فأجاب عبد الملك : إنه لا يقوم

---

(٢) اقرأ القصة كاملة فى الطبرى ج ٤ ص ٥٩٦ — ٦٠٠ . والعقد الفريد ج ٤ ص ٤٠٧ — ٤٠٩ ، والإمامة والسياسة ج ٢ ص ٢٣ — ٢٥

بهذا الأمر إلا قرشى له شجاعة وله رأى فى الحروب وله فراسة وسياسة ، وإنى أجد هذه الشروط فى نفسى ، فأوثر أن أتولى أنا قيادة هذه الجيوش[١] :

ومن أخلاق عبد الملك اعتدادهُ بنفسه وإيمانه أنه ليس هناك من يضارعه من معاصريه ، وهو يقول فى ذلك : ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى ، وإن ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام . ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائساً[٢] .

ومن أعمال عبد الملك المجيدة أنه عرب الدواوين ، فقد كان ديوان الشام يكتب باليونانية . وكان ديوان فارس يكتب بالفارسية ، وكان ديوان مصر يكتب بالقبطية ، فعزم عبد الملك على نقلها جميعاً إلى اللغة العربية . وقد تم فى حياته نقل ديوان الشام إلى العربية على يد سليمان بن سعد ونقل ديوان فارس على يد صالح بن عبد الرحمن ، أما ديوان مصر فقد تم نقله فى عهد الوليد[٣] ، وسيأتى مزيد من الكلام عن حركة التعريب عند الكلام على الدواوين فى الحضارة الإسلامية .

ومن الأعمال المجيدة لعبد الملك أيضاً سك النقود الإسلامية سكا منتظما[٤] وسيأتى كذلك الحديث عن النقود الإسلامية ودور عبد الملك فى سكها عند الحديث عن الحضارة الإسلامية .

ومن أعظم رجال عبد الملك أخوه عبد العزيز وقائده الشهير الحجاج بن يوسف الثقفى . أما أخوه عبد العزيز فقد صحب أباه مروان بن الحكم عندما ذهب ليسترد مصر من عامل ابن الزبير . ولما تم له ذلك ولّى ابنه عبد العزيز عليها وعاد هو . وقد كان عهد عبد العزيز من أحسن العهود

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٦ - ١ (٢) المرجع السابق ص ٢١٣

(٣) [illegible] اقرأ البلاذرى ص ١٩٦ - ١٩٧ [illegible]

[illegible]

(٤) [illegible] البلاذرى ص ٤٤١ و ٤٥١ - [illegible]

على مصر ، أدخل خلاله ألواناً من الإصلاحات ، فبنى مقياس النيل ، وأقام قنطرة على خليج أمير المؤمنين ، كما هدم جامع عمرو وزاد فيه من جهاته الأربع[١] ، وقد عُنى عبد العزيز بمدينة حلوان عناية كبيرة ، واتجه لإعدادها لتكون عاصمة إمارته ، فأنشأ بها بركة ماء ، وغرس الأشجار والنخيل وأقام المساجد ونقل لها بيت المال ودواوين الحكومة ، وكان عبد العزيز سمحا كريماً لم يدخر مالا ويُذْكَر مع أن مصر كانت طعمة له ، أى لا يرسل من دخْلها شيئاً لعاصمة الدولة الإسلامية ، ويُروى أنه أنفق كل ثروته ، فلما مات لم يترك غير سبعة آلاف دينار وهو مبلغ زهيد إذا قيس بهذا الرجل ومكانته وثرائه .

أما الحجاج فهو فيما نعرف أشهر القواد المسلمين ، وربما جاءت شهرته من ناحية بطولته ومقدرته الحربية التى استطاع بها أن يثبت عرش بنى أمية وكان يهتز تحت خلفاء الأمويين ، وربما جاءت هذه الشهرة من ناحية قسوته وعنفه وسفكه الدماء بحق أو بدون حق ، ومن المؤرخين من يلومه على ما أزهق من أرواح وما سفك من دماء ، ومنهم من يلتمس له العذر ذاكرين أن الفتن بالعراق كانت متصلة ، وأن تاريخ العراق يثبت أنه لم يعرف الدعة إلا فى ظل القهر والدماء والتنكيل . فهم بهذا يلقون اللوم على الثائرين لا على من أطفأ الثورة ، ولكن المقياس الذى نراه صحيحاً هو إباحة الشدة اللازمة لضمان الأمن والسلام ، وأعتقد أن الحجاج كان يستطيع أن يحقق ذلك بأقل مما سفك من دماء وبما أزهق من أرواح ، ولذلك فلا نخليه من مسئولية ما أهرق من دماء وما وزّع من أموال بدون مبرر ، وقد أدرك عبد الملك إسراف الحجاج فى الدماء والأموال فكتب إليه « أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك فى الدماء وتبذيرك فى الأموال ، ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس ، وقد حكم عليك أمير المؤمنين

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢١٥

فى الدماء بالدية فى الخطأ وبالقود فى العمد ، وحكم عليك فى الأموال بردها إلى مواضعها . . . . » وقد رد الحجاج بكتاب جاء فيه : « أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفى فى الدماء وتبذيرى فى الأموال ، ولعمرى ما بلغت فى عقوبتى أهل المعصية ما هم أهله ، وما قضيت حق أهل الطاعة بما استحقوه . . . . ووالله ما قتلت إلا فيك ولا أعطيت إلا لك . . . » .

وسنرى من استعراض الأحوال فى ذلك العهد أن قسوة الحجاج كانت ضرورية ، ولكنها كما قلنا قد دخلها السرف :

كان المختار بن عبيد الثائر بالكوفة عدوا لكل من عبد الملك وعبد الله ابن الزبير ، ولذلك اشترك الاثنان فى محاربته ، لأن كل واحد من هذين الاثنين كان يرغب فى ضم العراق إليه ، ومن أهم المعارك التى وقعت موقعة نهر الجازر . وكان يقود جيوش عبد الملك يومئذ عبيد الله بن زياد ، أما جيوش المختار فكان يقودها إبراهيم بن الأشتر . وقد دارت الدائرة على ابن زياد وقتل هو وحصين بن نمير وعدد كثير من جند الشام ، واستقرت الكوفة بذلك للمختار[1].

وحينئذ ولّى ابن الزبير أخاه مصعباً على البصرة وأمره بتخليص الكوفة . فسار بجيش كبير وكانت ضلالات المختار قد اشتهرت ، فتخلى عنه الملك إبراهيم بن الأشتر ووجوه أهل الكوفة . فقتله مصعب وقتل من بقى معه وخلص العراق بذلك لابن الزبير[2] .

ولم يهنأ ابن الزبير بالنصر الذى أحرزه ضد المختار ، إذ أن عبد الملك . عاد ما سار بنفسه ومعه قادته وجنده إلى العراق والتقى بمصعب ومعه

(١) [illegible] عقد الفريد ج ٤ ص ٤٠٠ [illegible] العصرى [illegible] [illegible] الحكم [illegible] ([illegible] ص ٤٠)

(٢) عقد [illegible]

جنده العراقيون ، ولكنهم سرعان ما انفضوا من حوله فهزم وقتل غيلة[١] ، وكان الحجاج ضمن قادة عبد الملك فى هذه المعركة ، ولما قتل مصعب استسلم قادته فأمنهم عبد الملك وأبقاهم فى مناصب القيادة ومن هؤلاء المهلب بن أبى صفرة الذى أصبح من خيرة القادة للخلفاء الأمويين وإبراهيم بن الأشتر الذى كان قد اصطنعه مصعب ثم أمَّنَه عبد الملك بعد قتل مصعب .

ولم يبق أمام عبد الملك إلا الحجاز حول ابن الزبير . فأرسل عبد الملك قائده الحجاج لمقاتلته ، فسار الحجاج سنة ٧٢ هـ وحاصر مكة ورماها بالمجانيق ، واشتدت الحال على أهل مكة حتى تخلوا عن ابن الزبير . وكان ممن تخلى عنه ابناه حمزة وخبيب . واستشار ابن الزبير أمه فيما يفعل . فأشارت عليه أن يظل يدافع عن عقيدته حتى يموت كما مات أصحابه ، فاستجاب لرأيها وصمد فى المعركة حتى قتل ، وعيّن عبد الملك الحجاجَ والياً على الحجاز .

وتجددت الفتن بالعراق كالعهد به ، فلم يجد عبد الملك بداً من تعيين الحجاج والياً على العراق ليقمع تمرّده . فنقله من ولاية الحجاز إلى ولاية العراقين فسار للكوفة سنة ٧٥ هـ ودخلها فى اثنى عشر راكباً ، وصعد المنبر وهو ملثم ثم كشف اللثام وألقى خطابه الشهير الذى جاء فيه :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا　　متى أضع العمامة تعرفونى

يا أهل الكوفة إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها . وكأنى أنظر إلى الدماء بين اللحى والعمائم . . . . وإنكم لكأهل قرية « كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله . فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون[٢] » . . . وبعد أن أتم خطابه القاسى المملوء بالتهديد والتحذير أمر غلامه أن يقرأ عليهم كتاب الخليفة

---

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ١٠٤　　(٢) النحل ١١٢

إليهم فقرأ الغلام : بسم الله الرحمن الرحيم ، مِنْ عبد الملك أمير المؤمنين إلى مَنْ بالكوفة من المسلمين ، سلام عليكم . فلم يردوا السلام ، فقال الحجاج للغلام : توقَّفْ ، والتفت الحجاجُ للناس وصاح فيهم : يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون ! والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن . اقرأ ياغلام . فبدأ الغلام يقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ،مِنْ عبد الملك أمير المؤمنين إلى مَنْ بالكوفة من المسلمين ، سلام عليكم . فلم يبق أحد بالمسجد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام[1] . وترك الحجاج الكوفة إلى البصرة حيث كرر شدته ووعيده وحيث خضع أهل البصرة واستكانوا كما فعل أهل الكوفة .
وامتد نفوذ الحجاج بعد ذلك حتى شمل الشرق كله ، فعين مِنْ قِبَله المهلب ابن أبي صفرة والياً على خراسان وظل بها حتى وفاته سنة ٨٣ هـ[2] .

ويعلق أستاذنا الخضرى على موقف أهل العراق من هذه الحالة بقوله .
وتبين هذه الخطبة حال أهل العراق وسكونهم إلى الذلة ، جبنهم الحجاج فى بضعة عشر راكباً وفيهم الأشراف والرؤساء فيخطبهم وينوعدهم بالمصائب وهم ساكتون لا يرد أحد منهم عليه قولا ، و وبخهم على ترك السلام على أمير المؤمنين فيستكينون ويخضعون وهم هم الذين فتحوا أبواب الشرور[3] .

وخضع أهل العراق لتهديد الحجاج وأمرهم بالانضمام لجيوشه ففعلوا فجنَّد من الكوفة عشرين ألفا ومن البصرة عدداً مثل ذلك وأمَّر عليهم عبد الرحمن ابن الأشعث الذى ينحدر من كندة ، تلك القبيلة التى كان منها ملوك فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وأرسل الحجاجُ عبدَ الرحمن وجيشه إلى سجستان لحرب الملك رتبيل صاحب الترك ، وكان بين هذا الملك وبين المسلمين عهد

---

(1) [illegible] الكامل ج ١ ص ٣٣٣ - ٣٣٤
(2) ابن [illegible] ص ٢٠٤
(3) [illegible] ج ٢ ص ٢٤٥

على أن يدفع جزية ، ثم نقض هذا الملك العهد وهجم على سجستان الإسلامية وهزَم جيش المسلمين وقتَل والى سجستان عبيد الله بن أبى بكرة ، فسيّر إليه الحجاج جيش العراق بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث الذى نجح فى جولته الأولى نجاحاً عظيما ، وفتح كثيراً من البلاد ، ثم توقف من تلقاء نفسه زاعماً أن من الخير ألا يتعمق فى تلك البلاد دفعة واحدة بل أن يأخذها مرحلة مرحلة وأن يجعل كل مرحلة فى عام وكتب للحجاج بذلك ، فرد عليه الحجاج مسفهاً رأيه طالباً منه أن يستمر فى السير ، فعرض عبد الرحمن بن الأشعث الأمر على جنوده واستشارهم أيطيع أم يخالف . وهيهات أن يشير أهل العراق بالطاعة وهم يرون فى الحجاج عدوهم الأول وقائد أعدائهم بنى أمية ، ثم إن الفتنة من طبيعتهم ، فزينوا له المخالفة وأكدوا له طاعتهم له واتّباعهم لأمره فيما يتخذ من خطوات(١) .

وهكذا استدار الجيش الذى أعده الحجاج . ليحارب الحجاج ، وهكذا كانت فتنة ابن الأشعث الشهيرة . وقُدّر لها أن تصادف بعض النجاح فقد هزَم ابن الأشعث جيوش الحجاج واستولى على البصرة سنة٨١هـ ، ثم استولى ابن الأشعث على الكوفة سنة ٨٢هـ ، وجرت بعد ذلك سلسلة من المعارك الفاصلة الطويلة فى المكان المعروف بدير الجماجم سنة ٨٣هـ ، واستمرت هذه المعارك حوالى مائة يوم ، وواصل عبد الملك إرسال المدد إلى الحجاج حتى تم له النصر فى هذه المعارك وفى معارك « مسْكِن » حيث استؤنف القتال بين الحجاج وبين ابن الأشعث مع فلول جيشه . وفى فتنة ابن الأشعث هذه سقط آلاف لا تحصى من أشراف العراق ورؤسائه . وأسرف الحجاج فى قتل الأسرى بعد موقعتى دير الجماجم ومسكن . فكان ذلك مما أضعف فتن العراق بعد ذلك . أما ابن الأشعث فقد فرّ ولجأ إلى رتبيل فطالبه الحجاج فقتل نفسه وأرسلت رأسه إلى الحجاج(٢) .

---

(١) الطبرى حـ ٥ ص ١٤٠ – ١٤٦

(٢) انظر الطبرى جـ ٥ ص ١٤٦ – ١١٨

وقبل أن نترك فتنة ابن الأشعث يجدر بنا أن نشير إلى رواية أوردها الطبرى لأنها إن صحت تُعَدُّ سقطة كبيرة من سقطات الحجاج ، فقد روى الطبرى(١) أن ابن الأشعث كان أبغض رجل إلى الحجاج بالعراق ، وأن الحجاج كان يقول : ما رأيته قط إلا أردت قتله ، ويروى الطبرى كذلك أن الحجاج لما عين ابن الأشعث على جيش العراق جاء إسماعيل بن الأشعث عم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى الحجاج فقال له : لا تبعثه فإنى أخاف خلافَهُ ، والله ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوالٍ من الولاة عليه طاعة وسلطاناً . فقال الحجاج : ليس هناك ما هو لى أرغب من أن يخالف أمرى أو يخرج من طاعتى . وأمضاه على ذلك .

إن عهدنا بالحجاج أنه فطن ذكى لا يولى عدواً يبادله الكراهية على أحد جيوشه الكبيرة ، ولكن إذا صحَّتْ هذه الروايات فإنها كما قلنا آنفاً سقطة عظمى تحسب على الحجاج ويحتمل وزرها ، وبخاصة أن الجيش عراقى دأبُهُ العصيان والتمرد ما وجد لذلك سبيلا ، وبين هذا الجيش وبين الحجاج تِراتٌ عظيمة وغلٌّ قديم . ويقول الطبرى(٢) إن أهل العراق أغروا ابن الأشعث بالثورة لاجتماعهم على بغض الحجاج والكراهية له .

وقد بلغ من قسوة هذه الفتنة أن عبد الملك أبدى استعداده للتضحية بقائده الحجاج وعزله عن العراق إذا كان ذلك يرضى العراقيين ويعيدهم إلى الطاعة(٣) ، ولكن أهل العراق ما كانوا يطلبون غير التمرد وسفك الدماء ولم يكن لهم فيما يبدو هدف ثابت فى تلك الأثناء . .

بقى هناك شىء ذو بال يوضع فى الميزان قبل الحكم على الحجاج ، ذلك هو ما قام به من إصلاحات عمرانية ، والعجيب أن الذى يدرس الحجاج لا يجده عقلية عسكرية فقط ، ولكنه كذلك ذو عقلية بنَّاءة فى زمن

---

(١) تاريخ الأمم والملوك جـ ٥ ص ١٤٠ – ١٤١

(٢) المرجع السابق جـ ٥ ص ١٥٦ (٣) المرجع السابق

السلم ، وقد قام بإصلاحات مدنية جليلة النفع ، فهو الذى بنى مدينة واسط فى منتصف الطريق تقريباً بين الكوفة والبصرة وجعلها مقر حكمه ومنزل جنده الشاميين ، وعمل على إنعاش البلاد بعد أن أنهكتها الحروب عشرين عاماً ، فأصلح القنوات التى تحمل مياه دجلة والفرات إلى أطراف البلاد وتعهدها بالعناية الدائمة ، وأصلح السدود التى تصون خصب الأرض من عادية الصحراء ، وقاوم الحجاج بشدة الهجرات الريفية إلى المدن ، وأقام التجارة على قواعد الطمأنينة والثقة بإصـلاح نظام النقد ونظام الموازين والمكاييل والمقاييس ، وتذهب الروايات كذلك إلى أنه عنى بإعجام القرآن[1].

على أن الحجاج لم يكن يعمل لنفسه ولا يعمل باسمه ، وعلى هذا فعبد الملك وابنه الوليد شريكان للحجاج فى كل ما قام به من خير وشر ، وقد وضح يزيد بن أبى مسلم ذلك لسليمان بن عبد الملك عندما سأله هذا : أترى الحجاج استقرّ فى قعر الجحيم بعد ؟ فأجاب أبو مسلم : يا أمير المؤمنين ، لا تقل ذلك فى الحجاج فإنه عن يمين أبيك وعن يسار أخيك فحيث كانا كان[2] .

وبعد ، فهذا هو الحجاج وذلك قبس من حياته وتصوير سريع له فى حالتى السلم والحرب ولمحة خاطفة للظروف التى أحاطت به والمشكلات التى عاش فيها ، فهل يميل القارئ بعد ذلك إلى لومه أو إلى الاعتذار عنه ؟

ولنعد إلى عبد الملك الخليفة العالم والرجل النادر بين الرجال لنصوّر انقلاباً حدث فى حياته عندما تولى الخلافة ، فقد روينا شيئاً عن مكانته العلمية وكيف كان معدوداً بين مشاهير الفقهاء وكان فى القمة من بين الباحثين والمجتهدين ، ثم ضاع منه هذا الاتجاه العلمي بين صليل السيوف الذى غمر

---

(١) بركلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ١ ص ١٧٦ – ١٧٧

(٢) المبرد : الكامل ج ٢ ص ٥٤٧ – ٥٤٨

معظم عصره ووقع القنا الذى شغل لبه ، ويبدو أن عبد الملك اندمج فى حياة الخلافة ، وسعد بها واطرح ماضيه العلمى فلم يُؤثر عنه فى أثناء خلافته بحث علمى ذو بال ، ويروى أن الخلافة آلت إليه والمصحف فى حجره ، فأطبقه وقال : هذا آخر العهد بك[1] . ولم يَصْحُ عبد الملك من سكرته بحب الجاه والسلطان إلا فى آخر أيامه حيث سجل صحوته فى مقطوعة شعرية رقيقة نقتطف منها الأبيات التالية :

لعمرى لقد عُمِّرْتُ فى الدهر برهةً ... ودانت لى الدنيا بوقع البواتر
فأضحى الذى قد كان مما يسرنى ... كلمحٍ مضى فى المزمنات الغوابر
فياليتنى لم أعنَ بالملك ساعة ... ولم ألْهَ فى لذات عيش نواضر
وكنت كذى طمرين عاش ببُلْغَةٍ ... من الدهر حتى زار ضنك المقابر[2]

الحجاز من السياسة إلى الأدب والفن :

الحجاز هو مهبط الدعوة الإسلامية وعاصمة الدولة فى عهدها الأول ، ولما انتقل علىّ إلى الكوفة اعتبر الحجاز أن ذلك عمل استراتيجى موقت دعت له دواعى الحرب بين على وأصحاب الجمل ، أو بينه وبين معاوية والخوارج ، وأمّل الحجاز أن يعود له السلطان عقب الانتهاء من تلك الحروب ، فلما تم النصر لمعاوية واتخذ دمشق عاصمة له لم يضع أمل أهل الحجاز واعتبروا ذلك شيئاً موقتاً أيضاً سببه أن معاوية كان والياً على دمشق وكانت دمشق عاصمة لولايته عشرين عاماً قبل خلافته ، وعلى كل حال لم يستطع الحجاز أن يقاوم معاوية لما أحرزه من انتصارات وما حققه من دهاء .

وفوجئ الحجاز بعد ذلك بحقيقة مرة هى انتقال الخلافة من الشورى

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢١٧
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٠ — ٢٢١

إلى الوراثة واستقرار الخلافة فى بنى أمية ، ومعنى ذلك ضياع سلطان الحجاز نهائياً ، فهب الحجاز يناضل ، ولعل أهم سبب لنضاله هو محاولته استعادة سلطانه الغابر وعهده الذى أوشك أن يزول ، فكانت وقعة الحرة التى قصصنا طرفاً من حديثها من قبل [١] ، وفى هذه الموقعة المشئومة سقط زهرة شباب الأنصار والمهاجرين ، كما سقط كثير من الصحابة والتابعين ، وهناك من نجا من هول المعركة ولكن حكم الإعدام كان ينتظره من مسلم بن عقبة .

وتجدد أمل الحجاز بعد ذلك فى ابن الزبير بعد موت يزيد ، واتسع شأن ابن الزبير ، ولكن مكة تعرضت فى عهد ابن الزبير لأهوال جيش الشام مرتين : إحداهما فى عهد يزيد حينما سار إليها جيشه عقب الانتهاء من موقعة الحرة ، وقد آلت رياسة هذا الجيش إلى الحصين بن نمير لموت مسلم بن عقبة قبل أن يصل الجيش إلى مكة ، وقد أنزل هذا الجيش النوازل بمكة ، ولكنها نجت من التدمير بموت يزيد وانسحاب ذلك الجيش ، وثانيتهما فى عهد عبد الملك حيث قضى الحجاج على ابن الزبير وقضى فى نفس الوقت على أمل الحجاز فى استرداد سلطانه .

وهكذا أصبح الحجاز ولا أمل له فى السلطان السياسى ، وقد ضحَّى الحجاز بأغلى ما به من دماء ليستعيد مكانته ولكن هذه التضحيات لم تأت بطائل ، ونشأ بعد ذلك جيل جديد فى الحجاز ، جيل لم يطمع فى سلطان سياسى ، ولم يكن موضع ثقة خلفاء دمشق فلم تُوكَل لهم أعمال ذات بال : وورث هذا الجيل ثروة طائلة جمعها الجيل السابق الذى كانت له الصدارة من قبل ، فاجتمع بذلك فى مكة والمدينة الشبابُ والفراغ والجدة ، واتجهت المدينتان المقدستان إلى الأدب والفن تجد فيهما السلوى عما فقدتا من جاه عريض وسلطان ضخم ، وهكذا أصبح النسيب فنًّا قائما بذاته بعد أن كان يظهر فى مطلع القصائد فقط ، وظهر بمكة عمر بن أبى ربيعة الشاعر الغزل

---

(١) اقرأ تفاصيلها فى الطبرى ج ٤ ص ٣٧٠ – ٣٨١

الشهير ، وظهرت حلقات الغناء والموسيقى ، فظهر طويس وابن سريج والغريض ، وقد أبدع الغريض فى الغناء حتى توهم الناس أنه يتلقى غناءه من الجن . ويروى أنه خرج مرة إلى طريق الحجاج ووقف حيث يراهم ولا يرونه وأخذ يغنى من شعر عمر بن أبى ربيعة :

أيها الرائح المجد ابتكارا قد قضى من تهامة الأوطارا

فملك الطرب قلوب السامعين وقالوا : طائفة من حجاج الجن[1] :
وهكذا انتقل الحجاز من قمة إلى قمة ، من قمة فى السياسة إلى قمة فى شئون الأدب وشئون الفن .

الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ)

ولد الوليد سنة خمسين للهجرة ، وتلقى بعض الثقافات الإسلامية ولكن ثقافته فى اللغة العربية كانت ضعيفة فقد كان لحَّانا ، وروى أن أباه عبد الملك قال : أضر بالوليد حُبُّنا له فلم نرسله للبادية . وكانت البادية مدرسة لمن أراد أن يتعلم اللغة الفصحى بعيداً عما انتشر بالمدن الإسلامية من لحن بسبب اختلاط العرب بغير العرب ، ولكن أباه لم يدعه فى لحنه وخطئه بل قال له فى حزم : إنه لا يلى أمر العرب إلا من يحسن كلامهم . ولهذا دخل الوليد بيتاً وأخذ معه جماعة من علماء النحو وأقام مدة يشتغل فيه[1] .

وكان مروان بن الحكم قد بايع لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز ، ولكن عبد العزيز مات قبل وفاة عبد الملك فعين عبد الملك ولديه : الوليد ثم سليمان سنة ٨٥ هـ ، وكتب بذلك إلى البلدان فبايع الناس ولم يمتنع غير سعيد بن المسيب بالمدينة[2] ولما مات عبد الملك جدد الناس البيعة للوليد .

وقد مرَّ بنا الجهد الكبير الذى بذله عبد الملك ليعيد وحدة العالم الإسلامى ، والعناء المتصل الطويل الذى استلزم صراعا امتد حوالى عشرين عاما ، ولكن عبد الملك استطاع أن يحقق أمله وأن يصل إلى غايته ،وترك لابنه الوليد ملكا مستقراً هادئاً متَّحدا . وكان الوليد خير من يتسلم هذا الملك . وأعظم من يرعى هذا التراث ، وكأنَّ عبد الملك كان رجل صراع فجاء فى عهد يحتاج للصراع ، وكان الوليد رجل سلم وإصلاح فجاء فى عهد سلم وقام بالإصلاح . لقد بنى عبد الملك البناء شاهقا وجاء الوليد فزينه وحسنه ونمَّاه :

---

(١) الفخرى ص ١٠٩

(٢) اقرأ قصة ذلك فى الطبرى جـ ٥ ص ٢٠٩ — ٢١٠

الإصلاحات الداخلية

إن ما قام به الوليد من إصلاحات داخلية يدل دلالة واضحة على سُمُوّ روح الإسلام وعظم مبادئه وتوجيهاته ، ويدل كذلك على عبقرية عظيمة لهذا الخليفة العظيم ، إنها أعمال لو تمت فى العصر الحديث لكانت مفخرة ، فما بالك وقد تمت منذ حوالى ثلاثة عشر قرناً أى فى عهد كان الظلام والجهل مطبقين على أكثر بقاع الدنيا ، تعال بنا نجل جولة سريعة فى إصلاحات هذا الخليفة الفذ .

من أعمال الوليد العظيمة أنه تعهد الأيتام وكفلهم ورتب لهم المؤدبين ، كما رتب للزمنى من يخدمهم وللأضرّاء من يقودهم ورتب لهؤلاء جميعاً الأرزاق المنتظمة[1] ، كما وضع المجذومين فى بيت يرعاهم طبياً حتى لا يخرجوا على الناس بعاهاتهم ورتب لهم الأرزاق ، وأعطى كل مقعد خادماً يهتم بأمره وأجرى لهم الأرزاق كذلك[2] .

واهتم الوليد كذلك بالعمران فأنشأ الطرق ومهدها وبخاصة الطرق المؤدية للحجاز ، كما حفر الآبار على طول هذه الطرق ، ووظف من يعنى بهذه الآبار ويمدّ الناس بمائها[3] ، ويروى أن الوليد كان شديد الكلف بالعمارات والأبنية واتخاذ المصانع حتى اشتهر بذلك شهرة سليمان بحب النساء والطعام وشهرة عمر بن عبد العزيز بالتقوى والورع ، وكان الناس يلتقون [illegible] والناس كما يقولون على دين ملوكهم — فيسأل بعضهم [illegible] . فلما تولى سليمان واهتم بالنساء والطعام كان [illegible] والجوارى . فلما ولى عمر بن عبد العزيز

[illegible] ص ٢٢٣

[illegible]

ويبرز فى التقوى كان الرجل فى عهده يقابل الرجل فيسأله : ما وردك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟[١]

ومن آثار الوليد الخالدة فى العمارة المسجد الأموى بدمشق ، وكان يعد أحد عجائب الدنيا ، ولا يزال حتى اليوم ناطقاً بعظمة الوليد وجهده البالغ ، ومن آثاره كذلك عمارة المسجد النبوى وقد قام بذلك والى المدينة عمر بن عبد العزيز ، فهدم البناء القديم بأمر الخليفة وأعاد بناءه بعد أن وسعه بإدخال حجرات أزواج الرسول فيه وكذلك بإدخال دور أخرى اشترت لهذا الغرض .

وكان الوليد أميل إلى العدل والقسطاس ، روى أن محمد بن يوسف عامله على اليمن حمل له هدايا وألطافا ، فقيل للوليد إن محمداً غصب هذه الهدايا من الناس وكلفهم عملها دون أجر ، فامتنع الوليد عن أخذ الهدايا ، وأصر محمد على أنها من ماله الخالص ، فلم يقبلها الوليد حتى حلف محمد بين الركن والمقام فى مكة خمسين يميناً ما غصب شيئاً منها ولا ظلم أحـداً ولا أصابها إلا من طيب[٢] .

وكان عهد الوليد على العموم عهد سعة ورخاء وأمن واطمئنان ، وفى ظل هذا اليسر وتلك الوحدة القوية ، تم فى ظل إيمان الوليد وقوته اتسع العالم الإسلامى وامتد حتى شمل الأندلس وشمل السند وغيرهما من البقاع على ما سيأتى إيضاحه .

ومن أهم الرجال الذين اعتمد عليهم الوليد الحجاج قائد أبيه وقد مر ذكره ، وقد أوصى عبد الملك ابنه الوليد بالحجاج وصية تمثل مكان الحجاج فى ملك بنى أمية ، قال عبد الملك : وانظر الحجاج فأكرمه فإنه هو الذى وطأ لكم المنابر ، وهو سيفك يا وليد ويدك على من ناوأك ،

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٦٦ – ٢٦٧

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٧

فلا تسمعن فيه قول أحد ، وأنت إليه أحوج منه إليك[١] . وقد كانت هذه الوصية عميقة الأثر فى نفس الوليد وجدير بها أن تكون كذلك ، روى عن الوليد قوله : كان عبد الملك يقول : الحجاج جلدة ما بين عينىّ وأنفى وأنا أقول : إنه جلدة وجهى كله[٢] .

وتختلف الروايات عن إحساس الوليد تجاه الحجاج فى أخريات أيام الحجاج ، فيروى الطبرى أن الحجاج ثقل على الوليد قبيل موته ، ولكن الوليد لم يستطع أن يعزله أو يمسه بسوء ، وبقى الحجاج حتى مات ففرح الوليد بموته[٣] ولكن ابن عبد ربه يروى أنه لما مات الحجاج فى آخر أيام الوليد بن عبد الملك تفجع عليه الوليد[٤] ، وتتفق رواية المبرد مغزى مع رواية ابن عبد ربه . فقد روى عن الأصمعى أن الوليد خرج يوما على الناس وهو مُشْعَانّ الرأس (منتفخ الشعر متفرّقة) فقال : مات الحجاج ابن يوسف وقُرَّة بن شَريك وجعل يتفجع عليهما[٥] . وذلك الرأى هو ما نميل إليه ، فكل الدلائل تدلّ على عمق الصلة بين الوليد والحجاج حتى آخر اللحظات .

ومن الرجال الذين اعتمد عليهم الوليد كذلك عمر بن عبد العزيز الذى ولاه المدينة سنة ٨٧ هـ ، وسيأتى مزيد من الكلام عنه عند الحديث عن خلافته . ومنهم كذلك محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وموسى ابن نصير وسنتحدث عن هؤلاء الثلاثة عند الحديث عن الفتوحات فى عهد الدولة الأموية .

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفا ص ٢٢٠

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٥ ص ٥٥

(٣) تاريخ الأمم والملوك جـ ٥ ص ٢٦٦

(٤) العقد الفريد جـ ٥ ص ٥٥

(٥) الكامل فى اللغة والأدب جـ ٣ ص ٥٢؛

سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ)

ولد سليمان بن عبد الملك سنة ٥٤ هـ وبويع له بعد موت أخيه الوليد ، وكان الوليد قبيل وفاته فكر فى عزل أخيه سليمان من ولاية العهد وتولية ابنه عبد العزيز ، واستشار الوليد لذلك خاصته وقادته فوافق الحجاج ومحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم[١] ، وعارض فى ذلك عمر بن عبد العزيز وصاح : إن لك ولأخيك سليمان بيعة واحدة فى أعناقنا فإما أن تبقى أو تسقط ولكنها لا تتجزأ . ولم يتم رأى الوليد لذلك ، ولهذا نقم على عمر ابن عبد العزيز فعزله عن ولاية المدينة .

وقد كانت حادثة تغيير ولى عهد الوليد حادثة مشئومة صبغت مطلع عهد سليمان . بصبغة كريهة ، وجعلت الفترة الأولى من حكمه مملوءة بالانتقام المر ، الانتقام لشخصه من القادة البارعين الذين ملأ ذكرهم البقاع ، وقد كان الحجاج يحس بالجفوة والكراهية بينه وبين سليمان ، وكان يتمنى أن يموت قبل الوليد . وقد حقق الله له أمنيته فنجا الحجاج بالموت من عدوان سليمان . أما آل الحجاج ومحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم فقد ذاقوا العذاب الوبيل من سليمان ، وهكذا عُذِّبَ وقتل محمد بن القاسم درة عصره والذى على يده دخل الإسلام السند ، وقتل قتيبة بن مسلم الذى دفع الفتح الإسلامى إلى خراسان وما وراء النهر والذى كان ميمون النقيبة يلقب عند أهل خراسان بملك العرب . ويقال إن قتيبة بن مسلم هو الذى بادر — لخوفه من سليمان — بعزله فثار عليه بنو تميم وكانوا يكوِّنون عنصراً هاماً فى جيشه وولى الثائرون أمرهم رجلا منهم اسمه وكيع بن حسان التميمى . ثم هجموا على قتيبة فقتلوه ، وعلى كل فقد قُتِل قتيبة من جراء ولاية عهد الوليد[٢]. ويروى

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٢٦٧ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٢٩

(٢) اقرأ تفاصيل قتل قتيبه فى الطبرى جـ ٥ ص ٢٧٣ وما بعدها وفى البلاذرى ص ٤١١ وما بعدها

الطبرى(١) أن رجلا من أهل خراسان قال للعرب : يا معشر العرب قتلتم قتيبة ، والله لو كان قتيبة منا فمات فينا جعلناه فى تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا .

وهناك تنكيل أكثر حُمْقاً أوقعه سليمان بالقائد العظيم موسى بن نصير ، ولم يكن هذا التنكيل مرجعه ولاية العهد ، ولكن سببه شره سليمان وحبه للدنيا ، فيروى أن موسى بن نصير قدم من الأندلس ومعه هدايا وطرف ، ولما كان فى الطريق مرض الوليد . وطمع سليمان فى موت الوليد كما طمع فى الحصول على هدايا الأندلس وطرفه لنفسه ، فكتب إلى موسى يطالب منه أن يتريث فى سفره ريثما يموت الوليد ، فلم يقبل موسى وواصل سفره فنقم عليه سليمان وعذبه وحبسه وصادر أمواله وألزمه غرامة كبيرة جعلته يسأل العرب المعونة لسدادها(٢). تلك كانت مأساة الانتقام التى حدثت فى عهد هذا الخليفة ، وهى بلا شك نقطة سوداء فى تاريخه ، وفيما عدا هذه النقطة فإننا نجد المؤرخين يذكرونه بخير ، فيقول الطبرى(٣) إن الناس كانوا يقولون عن سليمان إنه مفتاح الخير أطلق الأسارى وعفا عن المسجونين وأحسن إلى الناس واستخلف عمر بن عبدالعزيز .

ويقول السيوطى(٤) إن سليمان كان من خيار بنى أمية وكان فصيحاً مفوّها موثراً للعدل محبًّا للغزو ، ويروى كذلك عن ابن سيرين أنه قال : يرحم الله سليمان . افتتح أيامه بإحيائه الصلاة لمواقيتها ، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز .

والحقيقة أنه كان عملا نبيلا من سليمان أن يترك ولديه ويولى عهده ابن عمه ، وقد رأى سليمان بنفسه حرص الآباء على تولية أبنائهم ، رأى ذلك فى جديه معاوية ومروان ، وفى أبيه عبد الملك وأخيه الوليد ، ولكن

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٢١٢

(٢) ابن قتيبة : فى الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٩ – ١٠

(٣) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٣٠٤

(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٥ – ٢٢٦

سليمان كان من القلائل الذين آثروا المصلحة العامة للمسلمين وجعلوها ترجح مصلحة أبنائهم وتتغلب على عواطف الأبوة ، ثم إن اختياره كان موفقاً إلى أبعد حدود التوفيق ، فوضع بين خلفاء بنى أمية الرجل العظيم الذى يعتبر بحق فى عداد الخلفاء الراشدين .

وقد عرف عن سليمان حبه لقصره الصحراوى فى الرملة وإمضاؤه أغلب وقته فيه ، وكان اتجاها عاما للأمويين قبل سليمان وبعده أن يتخذوا القصور الصحراوية لتَنْقِيَاتهم من ضجيج الحياة بدمشق إلى هدوء الصحراء ونسيمها العليل وجوها الصحى السليم من الأوبئة ، ولكن سليمان يمتاز عن غيره بأنه تأنق فى قصره بالرملة ، فلما تولى الخلافة استكمل القصرُ أناقته فأصبح كأنه عاصمة صغيرة لأن الخليفة بنى مسجداً بجوار القصر وحفر الآبار ومد الأنهار وأذن لكثير من أتباعه بالبناء حول قصره[1] .

وسليمان كان يمتاز بشباب مورق وجمال رائع ، وكان يعجب بنفسه إذا نظر فى المرآة ويقول : أنا الملك الفتى ، ويروى أنه فى يوم لبس حلة خضراء وعمامة خضراء واتجه إلى المرآة فأعجب بنفسه وطرب بها ، وشهدته جارية من جواريه وهو فى عجبه وتيهه فأنشدت :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير ألا بقاء للإنسان
أنت خاو من العيوب ومما يكره الناس ، غير أنك فان

فلم يمض أسبوع واحد حتى مات[2] .

ومن الرجال البررة الذين اعتمد عليهم سليمان رجاء بن حَيْوَة ، وسنتكلم عنه عند الكلام على عمر بن عبد العزيز . ومن رجال سليمان المبرزين كذلك يزيد بن المهلب بن أبى صفرة الذى خلف أباه كعامل على

---

(١) انظر فتوح البلدان ص ١٤٣ والأغانى ج ١٣ ص ١٦٠ ومعجم البلدان عند الكلام عن بلدة « الرملة » .

(٢) الطبرى ج ٥ ص ٣٠٥ والعقد الفريد ج ٤ ص ٣٢٥

خراسان ، ولكن سرعان ما نشب الخلاف بين يزيد وبين الحجاج الذى كان له الإشراف على الشرق كله ، وكان الحجاج قد تزوج أخت يزيد ولكن ذلك لم يقلل من حدة الخلاف ، وانتهى الأمر بأن قبض الحجاج على يزيد وأسرته وأطلق أعوانه يعذبونهم ، ولم يقبل شفاعة زوجته فيهم بل طلقها عند ما رأى سخطها لما ينزل بآلها ، واستطاع آل المهلب الهرب من سجن الحجاج ، ولحقوا بسليمان بن عبد الملك فى الرملة فاستجاروا به ، وكانت بينهم وبينه صلة فأجارهم . وكتب الحجاج للوليد يوغر صدره ضدهم ، فطلب الوليد من سليمان أن يرسل له آل المهلب مقيدين فأرسلهم سليمان مقيدين فى سلسلة تضم ابنه أيوب أيضا ومعه خطاب من سليمان يستعطفه ويرجوه ألا يمس جواره فاستجاب له الوليد وكتب للحجاج أن يكف عن بنى المهلب فسكت الحجاج عنهم[1] .

ولما تولى سليمان الخلافة شغل آلُ المهلب له خير الأعمال . وأصبح يزيد من كبار رجال دولته ، فأسندت له ولاية خراسان وقيادة جيوش المسلمين فى نواحى جرجان وطبرستان . وقد انتصر فى معاركه فى هذه النواحى انتصارا عظيما ، ولما كان فى قمة النصر كتب إلى الخليفة يصف له الفتح العظيم والغنائم الكبيرة التى حصل عليها ويقول « وقد صار عندى من خمس ما أفاء الله به على المسلمين بعد أن صار إلى كل ذى حق حقه من الفىء والغنيمة ستة آلاف ألف وأنا حامل ذلك لأمير المؤمنين إن شاء الله »[2] ومات سليمان دون أن يأخذ شيئاً من هذه الأموال . فطالبه عمر بن عبد العزيز بها ، فادعى أنه كان يبالغ اعتقادا منه أن سليمان ما كان ليأخذ منه شيئاً . فحبسه عمر[3] . وظل فى محبس عمر حتى مرض عمر ففرَّ يزيد من المحبس وأعلن عصيانه ليزيد بن عبد الملك . وسيأتى بعض التفصيل لموقفه من يزيد بن عبد الملك عند الكلام على هذا الخليفة .

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٣٠ وما بعدها

(٢) المرجع السابق ص ٣٠٢ (٣) المرجع السابق ص ٣١٢

عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ)

نحن الآن أمام صفحة رائعة من صفحات التاريخ الإسلامى ، صفحة وصلت ما انقطع من تاريخ أبى بكر وعمر ، ومن الممكن أن نقرر أن عهد عمر بن عبد العزيز — على قصره — كان عهداً قائماً بذاته ؛ له خواصه ، وله فلسفته الإسلامية الصافية ، التى لم تتأثر بما يؤخذ على بنى أمية من اتجاهات ونظم :

وقد ولد عمر بن عبد العزيز بمدينة حلوان بالقرب من القاهرة فى أثناء ولاية أبيه على مصر ، كما جاء فى تهذيب الأسماء للنووى[١] . ويروى ابن عبد الحكم أنه ولد بالمدينة[٢] . ويتصل نسبه من جهة أمه بالخليفة الثانى عمر ابن الخطاب ، ولذلك ورث منه كثيراً من الخلال الكريمة والصفات النادرة . كما أمضى سنيه الأولى مع أعمام أمه بالمدينة ، فتلقى فى هذا الجو العطر كثيراً من التوجيهات الرشيدة ونبت نباتاً حسناً . وكان لتربيته تلك أثر كبير فيما عرف عنه من مزايا ومحامد .

ولما شب تزوج فاطمة بنت عمه عبد الملك . وكان عبد الملك يقربه ويحبه ، وفى عهد الوليد كانت لعمر ولاية المدينة . فأحسن فيها السيرة ولكنه كما يقول ابن عبد الحكم كان يعصف ريحه ، ويرخى شعره ، ويسبل إزاره ، ويتبختر فى مشيته ، وهو مع ذلك لا يعاب فى بطن ولا فرج ولا حكم[٣] .

وقد عزله الوليد عن ولاية المدينة لخلاف بين عمر وبين الحجاج . أو لرفض عمر الموافقة على عزل سليمان بن عبد الملك والبيعة لابن الوليد كما مر .

---

(١) انظر ترجمة حياة عمر بن عبد العزيز فى تهذيب الأسماء

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٩

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٠

وعمر من الخلفاء القلائل الذين سعت لهم الخلافة دون أن يسعوا إليها .
أو يحاولوا الحصول عليها ، بل إنه كان حريصاً على إبعادها عنه . ويرى
فيها امتحاناً قاسياً يثقل عليه حمله . وكان لسليمان ولد اسمه أيوب يرشحه
للخلافة ولكنه مات قبل أبيه . فلما مرض سليمان استشار وزيره رجاء بن
حيوة فيمن يعهد له بالخلافة . وسأله رأيه فى عمر بن عبد العزيز ، فأثنى
رجاء على عمر وحسّن لسليمان أن يعهد إليه . وأدرك عمر بفطنته اتجاه سليمان
إليه فخلا برجاء وقال له : يا رجاء . إنى أرى أمير المؤمنين فى الموت .
ولا أحسبه إلا سيعهد . وأنا أنا شدك الله إن ذكرنى بشىء من ذلك إلا صددته
عنى . وإن لم يذكرنى ألا تذكرنى له فى شىء من ذلك . وأراد رجاء
أن يصرف عمر بن عبد العزيز عن الحديث عن ذلك الموضوع فقال له : لقد
ذهب ظنك مذهباً ما كنت أحسبك تذهبه ؛ أتظن بنى عبد الملك يدخلونك فى
أمورهم[1] ؟ وهكذا خُدعَ عمر فسكت ولم يَفْتَتِحْ بعد ذلك هذا الموضوع .
ولكن الأمر كان قد دُبِّر على نحو الاتفاق الذى تمّ بين سليمان وبين رجاء .
فإن سليمان عهد لعمر بن عبد العزيز ، وجعل من بعده يزيد بن عبد الملك
وكتب بذلك عهداً وأعطاه لرجاء ، وطلب سليمان من بنى أمية ومن قادة الجند
أن يبايعوا لمن ارتضاه الخليفة لهم فبايعوا . ومات سليمان بعد ذلك . فكتم
رجاء خبر وفاته وجمع وجوه الناس وطلب منهم تكرار البيعة ففعلوا .
ثم نعى رجاء لهم سليمانَ وفضّ الكتاب . وأعلن أن عمر هو الخليفة الجديد .
فاسترجع عمر حين ذلك وقال : والله إن هذا الأمر ما سألته قط فى سر
ولا علانية[2] ، ثم صعد المنبر وانطلق يقول : أيها الناس . إنى قد ابتليت
بهذا الأمر من غير رأى كان منى فيه . ولا طلبةَ لى . ولا مشورة من
المسلمين . وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم ص ٣٠ – ٣١

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٣١

وأخذ عمر ينزل من فوق المنبر ، ولكن الناس صاحوا به : قد اخترناك ، وأقبلوا عليه وبايعوه[١] .

وسار عمر يدفن سليمان ، ولما رجع رآه مولاه مغتماً فسأله : مالى أراك مغتماً ؟ قال : لمثل ما أنا فيه فليُغتمّ ، ليس أحد من الأمة إلا وأنا ملزم أن أوصّل إليه حقه ، غير كاتب إلىّ فيه ولا طالبه منى[٢] . وهكذا كان إدراك عمر للمسئولية منذ اللحظة الأولى ؛ ويروى أن زوجته دخلت عليه عقب توليته الخلافة فوجدته يبكى ، فقالت له : ألشىء حدث ؟ قال : لقد توليت أمر أمّة محمد، ففكرت فى الفقير الجائع ، والمريض الضائع والعارى المجهود ، والمقهور والمظلوم ، والغريب والأسير . والشيخ الكبير ، وعرفت أن ربى سائلى عنهم جميعاً ، فخشيت ألا تثبت لى حجة فبكيت[٣] .

ويمكن القول أن الخلافة شطرت حياة عمر شطرين . فشطر حياة عمر كان فيه خيلاء وغناء وعطر وثراء وكثير من مظاهر الجاه والسؤدد ، وأما الشطر الآخر فكان خشونة وصراعاً ، ويغلب أن تكون كذلك حياة الملوك ، ولكن حياة الخشونة والحرمان يعرفها الملوك قبل أن ينالوا الملك ، فإذا نالوه نالوا معه نعيم الحياة ورخاء البال ، ولكن عمر بن عبد العزيز كان على العكس من ذلك ، فشطر حياته قبل الخلافة كان شطر السعادة والثراء ، أما بعد الخلافة فكانت حياة الكفاح والقناعة والعمل الدائب .

فعمر سليل بنى أمية وأبوه عبد العزيز بن مروان . وعمه الخليفة العظيم عبد الملك ، وزوجته فاطمة بنت عبد الملك وأخت الوليد . ومن هنا انفسح له الرزق ، وعرف حياة القصور وعاش فيها . وربى فى نعيم وخير

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٣٠٧ وابن الجوزى ص ٥٥ والصحرى ص ١١٠

(٢) السيوطى . تاريخ الخلفاء ص ٢٣١

(٣) ابن عبد الحكم ص ١٧٩ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٣٦

ورخاء ، وامتد ثراؤه فأصبحت له قطائع يغلها في الحجاز والشام وفي مصر واليمن والبحرين ، وقد وفد عليه منها دخل ضخم من المال قدروه بأربعين ألف دينار كل عام[١] .

وعرف عمر قبل الخلافة الطيب ومُطْرَف الخزّ ، كما عرف الغناء وطرب له وصفق للمغنين ، ثم تمادى في ذلك فغنى ووضع الألحان للغناء ، وزود عمر قصوره بأفخر الأثاث وأغلى الرياش[٢] ، ويروى أنه كان مما يؤخذ على عمر قبل الخلافة مبالغته في التنعم وإفراطه في حسن المظهر واختياله في مشيته[٣] . وكانت مشيته تسمى العمرية نسبة إليه . وكان الجوارى يتعلمنها من حسنها وتبختره بها . وكان يستعمل نوعاً رائعاً من الطيب فإذا مشى ضاعت رائحته في المكان الذى يمرّ فيه[٤] .

ثم جاءت الخلافة إلى عمر فكانت حداً فاصلا بين حياته السابقة وحياته اللاحقة . فقد أحس بالمسئولية ضخمةً بالمظالم كثيرةً . والتبعات ثقيلةً ، كما ذكرنا آنفاً ، فبدأ يعمل بجد من اللحظة الأولى . وأول ما ابتدأ به أنه جيء له بمراكب الخلافة عقب دفن سليمان . وكانت هذه المراكب تشمل البراذين والخيل والبغال ولكل دابة سائس وجهاز . فسأل : ما هذا ؟ فقالوا : مراكب الخلافة . فأجاب : دابتي أوفق لي . وباع هذه المراكب ووضع ثمنها في بيت المال كما باع السرادقات والفرش والأوطئة المخصصة للخلفاء الجدد وضم ثمنها كذلك إلى بيت المال[٥] .

وعاد عمر بعد ذلك إلى نفسه يحاسبها ، فجرد نفسه من كل نعيم ، ورد

---

(١) عبد العزيز سيد الأهل . الخليفة الزاهد ص ٣٢ — ٣٣

(٢) المرجع السابق من الصفحات ١٦ ، ١٧ ، ٤٠ ، ٤١

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٩

(٤) ابن عبد الحكم ص ٢١

(٥) ابن عبد الحكم ص ٣٥ والطبري ج ٥ ص ٣٠٩ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٢٠ — ٢٢١

القطائع التي كانت قد وُهِبَتْ له ، وتخلص من القطائع والأموال التي كان قد ورثها اعتقاداً منه أنها لم تكن حلالا طيباً[١] ، ونزع ثيابه واستبدل به كساء بثمانية دراهم ، ويروى ابن عبد الحكم أن عمر كان قبل خلافته يرى الكساء الذى يبلغ ثمنه ثمانمائة درهم خشناً ، فأصبح يرى الكساء الذى يبلغ ثمنه ثمانية دراهم ليناً ويبحث عن كساء أكثر منه خشونة[٢] ، وغسل عمر الطيب عن نفسه ، ودعا الحجام فقص فضلة شعره ، وباع ما عنده من ملبس وعطر ووضع الثمن فى بيت مال المسلمين ، وترك عمر ألوان الطعام الجميلة ، وأخذ يأكل الطعام الجاف ، وتولى خدمة نفسه بنفسه ولم يسمح لأحد أن يخدمه[٣] .

وانثنى عمر إلى زوجته وهى — كما قلنا — حفيدة خليفة وبنت خليفة وأخت خلفاء ، وقد انحدر لها من هذا المحتد أغلى الجواهر واللآلىء ، وأثمن المتاع والرياش ، فقال لها عمر : قد علمتِ حال هذا الجوهر ومن أين أصابه ذووك ، فإما أن تختارينى وتدعى كل هذا المتاع وإما أن تختارى متاعك وأسرحك . فاختارته وقبلت العيش معه فى البساطة التى أرادها[٤] .

وكان الخدم حين استُخلِف عمر ظنوا أنهم قد سادوا الناس ، فلما صارت حالهم إلى هذا الشر حزنوا لولايته وتفرقوا عنه ، وكان له غلام يقال له درهم ، فقال له عمر بعد أن مضت أيام من خلافته : ما يقول الناس يا درهم ؟ فأجاب : وما يقولون ؟ الناس كلهم بخير وأنا وأنت بشر . قال عمر : وكيف ذلك ؟ قال : إنى عهدتك قبل الخلافة عطِراً لبَّاساً فاره المركب طيب الطعام ، فلما وليتَ رجوتُ أن أستريح وأتخلص فزاد عملى شدة

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٤٥ ، ٦٠ والسيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٣١ — ٢٣٢

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٤٨

(٣) ابن عبد الحكم ص ٤٢

(٤) المرجع السابق ص ٦٠ — ٦١ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٣٢

وصرت أنت فى بلاء . قال عمر : فأنت حر ، فاذهب عنى ودعنى وما أنا فيه حتى يجعل الله لى منه مخرجاً(١) .

وبذلك أصبح عمر وزوجته وبيته فى حالة متواضعة تصورها لنا القصة التالية :

قدمت إلى عمر امرأة من العراق تطلب عطاء لها ولبناتها الخمس ، فلما صارت إلى باب الخليفة قالت : هل على أمير المؤمنين من حاجب ؟ فقالوا : لا ، ادخلى إن أحببت . فدخلت المرأة على فاطمة زوجة عمر وفى يدها قطن تغزله فسلمت وجلست ، ثم رفعت بصرها فلم تر فى البيت شيئاً ذا بال ، فقالت : إنما جئت لأعمر بيتى من هذا البيت الخراب . فقالت فاطمة : إنما خرب هذا البيتَ عمارة بيوت أمثالك . ولما جاء عمر وعرف حالة المرأة بكى وفرض لها ولبناتها ما يكفيهن(٢).

ولما فعل عمر بنفسه ذلك أصبح مستعداً أن يفعل ذلك بالآخرين ، وكان كثيرون من بنى أمية قد نالوا بعض أموال المسلمين أو أموال البلاد المفتوحة عن طرق غير مشروعة كالاستيلاء . أو عن طرق تبدو مشروعة وهى أبعد ما تكون عن الشرع كالقطائع والهبات ، ويروى ابن الجوزى(٣) أن عمر انقطع عن الناس ثلاث ليال اضطرب لها وجوه بنى مروان وبنى أمية وأشراف الجند والعرب ، ووقفوا ببابه ينظرون ما يخرج عليهم منه . أما هو فقد أخذ مع مزاحم وزيره ومستشاره يجمعان سجلات القطائع التى أقطعت للأمراء وسجلات الهبات الضخمة التى صرفت لهم . وعهود الأموال التى تجرى عليهم ، فلما اجتمعت لديهما السجلات والكتب أمر عمر أن ينادى بصلاة جامعة فاجتمع الناس وخرج عمر فصعد المنبر ووقف مزاحم دونه . وكان عمر يرتدى ثياباً رخيصة ، ثم خطب فقال : إن السابقين أعطوا عطايا

---

(١) ابن الجوزى ص ١٧٥ وابن عبد الحكم ص ٤٦ والعقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٥

(٢) [illegible] ص ١١١ (٣) عمر بن عبد العزيز ص ١٠٦

ما كان لهم أن يعطوها وما كان لها أن تُقْبل ، وإنى قد بدأت بنفسى فرددت الحقوق إلى أصحابها ، رددت القطائع والأموال إلى بيت مال المسلمين ، وثنَّيتُ بأهلى ، اقرأ يا مزاحم ، فأخذ مزاحم يقرأ سجلا سجلا ، ثم يأخذه عمر فيمزقه ويعلن عودة الأرض إلى بيت المال أيا كان المعطِى ، وأيا كان الموهوب له ، وما زالا كذلك حتى جاء وقت الظهر .

أما الأرض المغتصبة والتى لا سجل لها ، فقد أعلن عمر عودتها إلى أصحابها أو إلى بيت المال إن لم يكن لها صاحب .

وسارع عمر فخلع الولاة الظالمين والعمال القساة ؛ فعزل أسامة بن زيد التنوخى عن صدقات مصر ، وكان غاشماً ظلوماً كثير الاعتداء ، وعزل يزيد ابن أبى مسلم عن إفريقية ، وصالح بن عبد الرحمن عن العراق ، والحارث بن عبد الرحمن الثقفى عن الأندلس[١] .

وأوقف عمر الحروب مع غير المسلمين أو مع المتمردين من المسلمين ، واستبدل بذلك دعوة غير المسلمين للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما حاجَّ المتمردين والخوارج ليتغلب عليهم بالدليل والإقناع ، وقد انتصر عمر فى الحالتين ، انتصر فى دعوته غير المسلمين للإسلام وانتصر فى مناظراته مع الثائرين من المسلمين ، وكانت سيرته العطرة خير مساعد له لتحقيق هذا الانتصار ، فدخل ملوك السند الإسلام بدعوته وتبعتهم شعوبهم ، كما دخل الإسلامَ كثيرٌ من المصريين والسوريين والفرس الذين لم يكونوا قد دخلوا الإسلام من قبل على الرغم من دخول الإسلام بلادهم ، مكتفين بدفع الجزية والدخول فى الذمة . ثم جذبتهم سماحة عمر إلى الإسلام مما جعل عصره يسمى عصر إسلام البلاد المفتوحة[٢] .

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٣٤ – ٣٥

(٢) الطبرى جـ ٥ ص ٣٢١ واقرأ كذلك « التاريخ السياسى للدولة العربية » للدكتور ماجد » عند الحديث عن عمر بن عبد العزيز .

أما الخوارج – وسيأتى حديث خاص عنهم – فقد بهرتهم سيرته وأعماله فأوقفوا نشاطهم الثورى والتقوا مع عمر للتفاهم معه بالحجة ، فغلبهم بخلقه وبيانه وانصاع له كثيرون منهم[١] .

وخفف عمر من أثقال الخراج الذى يؤخذ من النصارى ، وأوقف أخذ الجزية ممن دخل الإسلام منهم ، فانهال الناس على الإسلام تقديراً للإسلام ولعمر وتخلصاً من الجزية ، فكتب له عامل أهوج يقول : إن هذا يضر بالجزية ، فتلقى من عمر الجواب الآتى : قبح الله رأيك ، ارفع الجزية عمن أسلم ، فإن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يُسْلِمَ الناس جميعهم على يديه .

وسوّى عمر بين العرب وغيرهم كما تقضى بذلك شريعة الإسلام ، فأوقف مشكلة الموالى التى أكثر المؤرخون الحديث عنها ، وسيأتى شرح هذه المشكلة عند الكلام عن الناحية الاقتصادية فى الحضارة الإسلامية .

وامتاز عهد عمر بكثير من الإصلاحات التى تدل على نضج فى التفكير وعلى الوعى الكامل ، وله فى ذلك كتاب أرسله فى صيغة نشرة دورية إلى جميع العمال ، شرح فيه بعض ما كان مشكلا ، ويمكن أن يُسمى هذا الكتاب مواد القانون الأساسى فى عهد عمر ، ونحن نقتطف من هذا الكتاب بعض الأفكار[٢] :

نظّم عمر الدعوة للإسلام وبين سبلها ، وأباح الهجرة لمن يشاء إلى حيث يشاء ، ونظم الحمَى ، وتحدث عن الفىء والغنيمة والأخماس ، وشرح مضار الخمر والنبيذ . . . . . ونظم عمر الكيل والميزان حتى لا يوجد بخس ولا تطفيف . وألغى عمر المكس والسخرة وقال إن المكس بخس والله نهى عن البخس بقوله « ولا تبخسوا الناس أشياءهم[٣] » .

---

(١) [illegible] ص ٣١١ وابن عبد الحكم فى الصفحات ٨٣ ، ١٩ ، ١٣٠

(٢) [illegible] ابن عبد الحكم ص ٩٣ - ١٠٠

(٣) [illegible]

. ومن إصلاحات عمر أنه أصلح كثيراً من الأرض للزراعة ، وحفر الآبار وعمر الطرق وأعدّ الخانات لأبناء السبيل ، واهتم اهتماماً كبيراً بالمحتاجين والمرضى كما أكثر من المساجد ولكنه لم يكن يتأنق فى إعدادها ، ولما طُلِبَ إليه أن يدفع مبلغاً كبيراً لذلك أجاب : لَأَنْ أنفقه على أكباد جائعة أحب إلىّ من أن أنفقه على الجدران والأثاث .

وقد انتقلت الحالة الاقتصادية فى عهد عمر بن عبد العزيز إلى مستوى يدعو للدهشة ، فكل المراجع التى بين أيدينا تؤكد أن الفقر والعوز والحاجة قد غُلبتْ على أمرها فى عهده ، ولم يعد لها وجود تقريباً حتى كان دافع الزكاة لا يجد من يأخذها منه ، ويروى ابن عبد الحكم عن رجل من ولد زيد بن الخطاب قوله : إنما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً ، فما مات حتى جعل الرجل يأتى بزكاة ماله يبحث عن مستحق لها ، فما يبرح حتى يرجع بماله ؛ قد أغنى عمر الناس(١) :

ومثل ذلك أيضاً يرويه يحيى بن سعيد قال : بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخذها منا ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناسَ ، فاشتريت بها رقاباً فأعتقتهم(٢) .

ومن اهتمام عمر بالفقراء ما يروى أن مولاة سوداء اسمها فرتونة من مصر أرسلت له خطاباً تقول فيه إن عندها حائطاً قصيراً وأن دجاجها يضيع بسببه ، فرد عليها عمر يذكر أنه كتب لعامل مصر ليرفع لها الحائط ويؤمّن دجاجها ، وكتب فى الحال إلى العامل يطلب منه أن يمشى بنفسه إلى فرتونة ويباشر رفع حائطها وتأمينها وتأمين دجاجها(٣) .

---

(١) ابن عبد الحكم ص ١٢٨

(٢) ابن عبد الحكم سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٩

(٣) المرجع السابق ص ٦٥ — ٦٦

ومن إصلاحات عمر فى البريد أنه لم يجعله لحمل الأخبار الرسمية إليه فقط من العمال والموظفين كما كان من قبل ، وإنما أصبح لخدمة الناس كذلك ، فقد أمر أن يتسلم عامل البريد كل الرسائل التى تعطى إليه لتوصيلها إلى ذويها[١] ، وكان خطاب فرتونة سالفة الذكر أحد الرسائل غير الرسمية التى حملها البريد إلى الخليفة .

وكان من الطبيعى أن يسير عمالُ عمر سيرته ، فلقد أحسن اختيارهم وأحسن مراقبتهم ، ويروى ابن عبد الحكم أنه خرج يوماً مع وزيره مزاحم للعسس ، فرأيا ركباً قادماً تجاه الشام من المدينة فاستقبلا الركب ، وسألا المسافرين عما خلفهم ، فقال رئيس الركب وهو لا يعرفهما : إن شئتما جمعت لكما الخبر وإن شئتما بعّضتُه لكما تبعيضاً . فقالا : بل اجمعه . فقال : إنى تركت المدينة والظالم بها مقهور ، والمظلوم بها منصور ، والغنىّ موفور ، والعائل مجبور . فسُرَّ بذلك عمر وقال : لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحبُّ إلىَّ مما طلعت عليه الشمس[٢].

ومن سياسة عمر فيما يتعلق بالعمال أنه رفع مرتباتهم حتى وصل مرتب العامل أحياناً إلى ثلاثمائة دينار ، ولما سئل عن ذلك أجاب : أردت أن أغنيهم عن الخيانة[٣].

وقطع عمر بن عبد العزيز سبَّ على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان بنو أمية يسبونه على المنابر ، كما سبق القول ، وجعل مكانه قوله تعالى « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون[٤] » وقد رثاه الشريف الرضى لذلك بقوله :

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٥ (٢) المرجع السابق ص ١٣٠

(٣) ابن عبد الحكم سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٤٣

(٤) سورة النحل الآية ٩٠ .

يا ابن عبد العزيز لو بكت العيـ ـن فتى من أمية لبكيتك
أنت أنقذتنا من السبّ والشتـ ـم فلو أمكن الجزاء جزيتك[١]

ولم يمت عمر بن عبد العزيز حتّى هزل جسمه من كثْرة ما بذل من جهد وما عانى من حرمان . روى أن يونس بن أبي شهيب قال : شهدت عمر بن عبد العزيز وإن حُجزْة إزاره لغائبة فى عُكَنة (من سمنته وبدانته) ثم رأيته بعد ما استخلف ولو شئت أن أعد أضلاعه من غير أن أمسها لفعلت[٢] . وقالت فاطمة زوجته : ما أعلم أنه اغتسل لا من جنابة ولا من احتلام منذ استخلفه الله حتّى قبضه[٣] .

وعلى الرغم من قصر مدة خلافة عمر فقد ثقل على كثيرين من بنى قومه لكثْرة ما استرده منهم مما امتلكوه من قبل ، حتّى لقد خيف أن يمسوه بسوء أو يسقوه سمًّا ، ولذلك نصحه أرطأة بن منذر بأن يتخذ حرساً ويحترز فى طعامه وشرابه . فأجاب عمر : اللهم إن كنت تعلم أنى أخاف شيئاً دون يوم القيامة فلا تؤمّن خوفى[٤].

وقبيل وفاة عمر مات أعوانه ، سهلٌ أخوه ، وعبد الملك ابنه ، ومزاحم مولاه ، ودخل المرض على عمر ، فيروى أنه قام وتوضأ ، ثم أتى المسجد فصلى ركعتين ثم قال : اللهم إنك قد قبضت سهلا وعبد الملك ومزاحماً وكانوا أعوانى على ما قد علمت . فلم أزدد لك إلا حباً ولا فيما عندك إلا رغبة فاقبضنى إليك غير مضيّع ولا مفرّط . فما قام من مرضه

---

(١) البحترى ص ١١١
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٣٤
(٣) المرجع السابق ص ٢٣٥ وابن عبد الحكم ص ٥٠
(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٣٤

حتى قبضه الله تعالى[١] . ولما أحس بدنو أجله اشترى موضع قبره بدير سمعان ودفن فيه بعد وفاته عقب ذلك[٢] .

وأعوان عمر هم هؤلاء الذين مرّ ذكرهم بالإضافة إلى رجاء بن حيوة . وهم طبعاً من خيره الأعوان ومن صفوة الناصحين ، ولا عجب فمثل عمر لا يصاحب إلا النخبة الأمجاد .

يزيد بن عبد الملك (١٠١ ــ ١٠٥ هـ)

يمكن القول أن خلافة عمر بن عبد العزيز التى كانت نعمة وخيراً على الإسلام والمسلمين وضعت فى الوقت نفسه نهاية لدولة بنى أمية وذلك يرجع إلى سببين :

أولا ــ عرف المسلمون فى عهد عمر العدالة وذاقوا طعمها وأنِسُوا إليها ، وصعب عليهم بعد عمر أن يعودوا إلى احتمال الطغيان والظلم والعسف الذى حاول يزيد أن يعيدهم إليه .

ثانياً ــ كُرْهُ عمر لسفك الدماء أعطى فرصة للشيعة أن يدبروا أمرهم ويعدوا عدتهم للقضاء على بنى أمية ولوضع الأساس لدولة هاشمية ، وسيأتى مزيد من الإيضاح لهذا .

وقد سبق أن وصفنا الجهد الضخم الذى بذله عمر لرد المظالم وحماية بيت مال المسلمين باسترداد القطائع والهبات ، وسرعان ما هدم يزيد هذا الجهد فأعاد القطائع وأعاد الهبات .

ومن أهم الأحداث التى وقعت فى عهد يزيد ثوره يزيد بن المهلب ، وقد سبق أن قلنا أن يزيد كان فى محبس عمر . وهرب من محبسه فى مرض الموت الذى مات فيه عمر ، وكتب ابن المهلب إلى عمر يعتذر من هربه ويقول « إنى والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ولكنى خفت أن يلى يزيد فيمانى شر قتاه » وكان من الواضح أن هناك عداء بين يزيد ابن المهلب ويزيد بن عبد الملك ، فإن الأزل انضم إلى سليمان بن عبد الملك فى نكايته بآل الحجاج ، وكان [illegible] يزيد [illegible] وأسرة الحجاج [illegible] ، فقد كان [illegible] عمر بن عبد العزيز [illegible] (١)

(١) الطبرى [illegible]

ولما فرّ ابن المهلب من السجن اتجه إلى العراق ، وكان العراق كما كان دائماً مستعداً أن يستقبل أعداء بنى أمية ويثور لهم ويحارب معهم ، وكانت البصرة مكانه المختار ، وفيها تجمع حوله الساخطون فكوّن جيشاً كبيراً ؛ أما يزيد فقد أرسل إليه جيشاً من أهل الشام بقيادة أخيه مسلمة ، وقد انتصر جيش الشام وقتل ابن المهلب وتضعضع جيشه وانهزم ، وكانت الموقعة بمكان يدعى العقير بالقرب من كربلاء ؛ ويقول الكلبى : نشأت وهم يقولون ضحى بنو أمية يوم كربلاء بالدين ويوم العقير بالكرم[1] ، ذلك لأنهم باعوا نساء بنى المهلب وأطفالهم على غير ما جرت به عادة العرب .

وكانت هذه هى النهاية المشئومة لأسرة المهلب بن أبى صفرة التى طالما شهرت السيف فى وجه أعداء بنى أمية وطالما كسبت لهم النصر .

بقى أن نذكر عن يزيد شيئاً تعوّد المؤرخون أن يذكروه ، ثم لنا تعليقنا على ذلك بعد إيراد ذلك الخبر الشهير :

روى الطبرى[2] والأصفهانى[3] وعنهما أخذ ابن الأثير[4] والفخرى[5] وغيرهما من المؤرخين القدامى والمحدثين أن يزيد هذا كان خليعاً شغف بجاريتين اسم إحداهما سلامة واسم الأخرى حبابة . فقطع معهما زمانه ، ولما مرضت حبابة اضطرب يزيد وظهر عليه اليأس . فلما ماتت أفلت منه الزمام وسفه وأخذ يردد قول الشاعر :

كفى حزناً بالهائم الصب أن يرى　　منازل من يهوى معطلة قفرا

وأشار عليه مسلمة أخوه ألا يظهر للناس خوف أن يبدو لهم سفهه

(١) السيوطى [illegible] ارخ الخلفاء ص ٢٤٧

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٣١٤ – ٣١٥

( ) [illegible] ج ١٣ ص ١٠٧ – ١٥٨

(٤) [illegible] ج ٤ ص ٦٦

(٥) [illegible] الآداب السلطانية ص [illegible]

واضطرابه ، فاعتزل الناس بعد موتها ولم يزل كذلك حتى مات بعد سبعة أيام من موتها ، فكانت الجارية الثانية تردد قول الشاعر وهى تبكى سيدها ومجدها الزائل :

لا تلمنا إن خشعنا ... أو هممنا بالخشوع
قد لعمرى بت ليلى ... كأخى الداء الوجيع
للذى حل بنا اليو ... م من الأمر الفظيع

هذا بعض ما رواه هؤلاء المؤرخون ، ولست أعفى يزيد من شىء من الخلاعة ومجون الشباب ، ولكنى أعتقد أن الخيال لعب دوراً كبيراً فى نسج هذه القصص ، كما لعب العداء لبنى أمية دَوْره فى عصر التدوين ، فإذا بالهفوة تصبح جريمة ، وبالصغائر تصبح كبائر ، وفى هذه القصة دليل واضح على هذا التصرف ، فإنْ يَسْفَهْ رجل فضلا عن خليفة من أجل موت جارية ويمتدّ سفهُه واضطرابه حتى يموت شىء إلى القصص أقرب منه إلى الحقائق ، فلم تكن الجوارى قد انتهت من الوجود ، ولا عجز سلطانه أن يهيئ له مائة حبابة بدل تلك التى نفقت ، ويبدو أن أعداء بنى أمية — كما أشرنا من قبل — هالهم أن يوجد فى هذه الأسرة رجل نابه مثل عمر بن عبد العزيز ، ولم يستطيعوا أن يمسوا ذكره بسوء لأن صيته قد طبق الآفاق فعمدوا إلى خافه يتأرون منه ليقللوا من قيمة بنى أمية عملا بسنتهم التى دأبوا عليها .

وقد انتبه إلى هذا الاحتلاق المستشرق كارل بركلمان فقال[1] عنه : « والروايات المعادية للأمويين تصور يزيد الثانى كما صورت سَمِيَّه (يزيد الأول) من قبل رجلا مستهتراً انغمس فى مناعم اللهو والموسيقى

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية جـ ص ١٨٣ — ١٨٤

وشغلته القيان والمغنيات فترك شئون الأمصار إلى أمرائه وعماله يصرفونها كما يشاءون ، والواقع أن عهده القصير ظل حافلا بضروب النشاط الجدى حتى بعد القضاء على الفتنه بالعراق ، فلقد وحَّد الإدارة فى مكة والمدينة وأدخل اصطلاحات مالية كثيره . . . . . . وإنه لمن العسير أن يُنسب إلى مثل هذا الرجل من العاطفة ما جعله يحزن لوفاة جارية من جواريه المقربات ــ كما تحاول بعض الروايات أن تثبت ــ حزناً أدَّى إلى وفاته .

هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ)

كان يزيد بن عبد الملك يريد أن يعين ابنه الوليد ولياً للعهد من بعده ، ولكن أصحابه أرشدوه إلى أن الوليد صغير السن ولا يستطيع أن يحمل عبء الخلافة ، ولهذا عين يزيد أخاه هشاماً لولاية العهد على أن يتلوه الوليد ، فتولى هشام تبعاً لذلك . واتخذ هشام الرصافة مقراً له غالباً وهي تقع على نهر الفرات .

وقد طالت مدة هشام فكانت حوالى عشرين عاماً ، وكان هشام من خيرة الخلفاء ، اشتهر بالحلم والعفة ، وقد نظم الدواوين وضبط الحسابات بعناية فائقة ، قال عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس ــ والفضل ما شهدت به الأعداء ــ جمعتُ دواوين بنى مروان فلم أر ديواناً أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام[١] ؛ وبذلك أصبحت مالية الدولة تسير فى انتظام شامل ، ولم يعد هناك طريق لاختفاء أى مبلغ مستحق لبيت المال ، وفى حين كانت الموارد منتظمة كانت النفقات قليلة لأن هشاماً كان ممسك اليد إن لم نقل إنه كان بخيلا[٢] ، ومما روى من قصص إمساكه ما رواه الطبرى أن عقّال بن شبّة دخل على هشام حينما أراد هذا أن يرسله إلى خراسان سنة ١٢٥ هـ ، قال عقال : وكان هشام يلبس قباء أخضر . فجعلتُ أتأمل هذا القباء ، ففطن هشام لذلك وسأل عقّالا : ما لك تطيل النظر إلى القباء ؟ فأجاب عقال : رأيت عليك قباء مثل هذا قبل أن تلى الخلافة (منذ عشرين عاماً) حتى لحسبت أنه هو . قال هشام . هو والله نفس القباء مالى قباء سواه ، وأما ما ترونه من جمعى هذا المال وصونه فهو لكم[٣] . وهناك روايات أخرى تذكر أن هشاماً كان يجود أحياناً .

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٥١٦

(٢) انظر الفخرى ص ١١٢

(٣) الطبرى ج ٥ ص ٥١٥

وأن الشعر كان يهز نفسه فيسخو . روى ابن عبد ربه أن نُصَيب بن رَباح الشاعر الأسود دخل على هشام فأنشده قصيدة منها :

إذا استَبَق الناس العلا سبَقتَهُمُ ... يمينُك عفواً ثم صلَّت شِمالُك[١]

فقال هشام : بلغت غاية المدح فسلني . فقال : يا أمير المؤمنين ، يداك بالعطية أطلق من لسانى بالمسألة . قال هشام : لا بد أن تفعل . قال نصيب : لى ابنة نفضت عليها من سوادى فكسدَتْ . فلو أنفقها أمير المؤمنين بشىء يجعله لها . فأقطعها هشام أرضاً وأمر لها بحلى وكسوة فنفقت السوداء[٢] .

ويروى ابن عبد ربه كذلك أنه لم يكن فى ملوك بنى مروان أعطر ولا ألبس من هشام وأنه قد خرج حاجاً فحمل ثيابه معه على ستمائة جمل[٣] .

وهكذا نجد حديث بخل هشام حديثاً منقوضا . ويبدو لى أنه كان دقيقاً غير مفرط لا يخدع ، فاعتبر هذه الصفات بخلا فى وقت كان الخلفاء يتباهون بالعطاء بل بتباهون أحياناً بالسرف فيه .

وقد عرف هشام بالحلم والتقوى . ويروى أن رجلا أغلظ له القول فلم يرد عن أن قال له : ليس لك أن تغلظ لإمامك . ومن تقواه ما روى أنه تفقد بعض ولده فلم يجده حضر لصلاة الجمعة . فسأله فيما بعد : ما منعك من الصلاة ؟ قال : نفقت دابتى . قال هشام : أعجزت عن المشى ؟ ومنعه الدابة عاماً كاملا[٤] . ومن تقواه وعدله ما روى أنه لم يكن يُدْخل بيت ماله مالاً حتى يشهد أربعون قسامة أن هذا المال أخذ من حقه وأن كل ذى حق أعطى حقه[٥] .

---

(١) سبقتهم أى [illegible]
(٢) العقد لفريد ج ١ ص ٣٠١
(٣) [illegible] ج ٤ ص ٤٦ .
(٤) الطبرى [illegible] ص ١٦ .
(٥) سيوطى [illegible] ص ٢٠٧

وينقل ابن عبد ربه عن عبد الله بن عبد الحكم فقيه مصر قوله : سمعت الأشياخ يقولون : سنة خمس وعشرين ومائة أُديل من الشرف وذهبت المروءة ، وذلك عند موت هشام بن عبد الملك[١] .

ومن الرجال البارزين الذين اعتمد عليهم هشام خالد بن عبد الله القسرى وأخوه أسد ونصر بن سيار ومروان بن محمد ، وفى مطلع عهد هشام عزل هذا عمر بن ربيعة عن العراق وما كان إليه من عمل المشرق وولى ذلك كله خالد بن عبد الله القسرى ، فعين خالد أخاه أسداً أميراً على خراسان فى العام التالى (١٠٦ هـ) وبسبب العصبية التى اندمج فيها أو أثارها أسد فى خراسان عزله الخليفة سنة ١٠٩ وأخذ الخليفة يولى بنفسه عاملا على خراسان فولّى أشرس بن عبد الله السلمى فالجنيد بن عبدالرحمن وغيرهما ولكن حال خراسان لم يصلح واستمرت الاضطرابات فيها فأعادها الخليفة إلى سلطان خالد بن عبد الله القسرى سنة ١١٧ فأعاد هذا أخاه أسدا واليا عليها . واستمرت ولاية خالد على الشرق خمسة عشر عاما كانت له فيها إصلاحات ذات بال ، فقد جفف مستنقعات دجلة حول واسط ، وبذلك أعدّ أرضا واسعة للزراعة ، وكان خالد يغتر بأعماله وبغناه الواسع الذى جمعه طيلة مدة ولايته حتى وصل به الغرور أن قال لابنه : ما أنت دون مسلمة بن هشام (الخليفة) فإنك لتفخر على الناس بثلاث لا يفخر بمثلها أحد : سكّرتُ دجلة ولم يتكلف ذلك أحد ، ولى سقاية مكة ولى ولاية العراق[٢] . وقد كان ذلك مع عوامل أخرى سبباً فى أن عزله هشام سنة ١٢٠ هـ . وبعد عزله نزلت به ألوان من المصائب وبخاصة فى عهد الوليد بن يزيد ، وقد مات تحت العذاب سنة ١٢٧[٣] .

وبعد خالد تولى يوسف بن عمر ولاية الشرق فولّى جديع بن على

---

(١) العقد الفريد جـ ٤ ص ٤٥١

(٢) الطبرى جـ ٥ ص ٦٨ . (٣) الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ١٢٤

الكرمانى خراسان ولكن سرعان ما عين الخليفة نصر بن سيار واليا على خراسان ، وبقى نصر واليا على خراسان حتى سقطت الدولة الأموية . وبهذا عاصر نصر أعقد المشكلات فى تلك البقاع .

وفى عهد هشام خطت الدولة الأموية خطوة نحو الضعف . وذلك بسبب قيام العصبية بين عرب الشمال وعرب الجنوب وبخاصة فى خراسان ، وكان هذا مما ساعد الشيعة على تحقيق انتصارات جديدة فى تلك البقاع[1] . وفى غير خراسان كانت هناك أيضاً ثورات سببها مع العصبية سوء سيرة بعض العمال ، وربما كانت أخلاق هشام من حرص على المال ودقة فى إنفاقه ، ومن لين وحلم ، مما ساعد على استمرار هذه الهزات والثورات .

أما مروان بن محمد فقد ولاه هشام أرمينية وأذربيجان وسيأتى الحديث عن الدور الذى سيلعبه مروان لتثبيت الدولة ولكن محاولة مروان جاءت بعد فوات الأوان .

الوليد بن يزيد (١٢٥ – ١٢٦ هـ)

ولد الوليد سنة ٩٠ من الهجرة وتولى أبوه الخلافة والوليد فى الحادية عشرة ومرض أبوه مرض الوفاة والوليد فى الخامسة عشرة ، وقد حكينا عن يزيد أنه كان فيه خلاعة ومجون ، والولد سر أبيه ، فلا عجب أن يكون فى الوليد خلاعة أبيه ومجونه ، ولكن هناك شيئاً آخر ذا بال يبدو أنه أفسد حياة الوليد بن يزيد ، فيحكى الطبرى[١] أن يزيد بن عبد الملك عقب توليته الخلافة أراد أن يعقد لابنه الوليد ليكون وليا لعهده ، ولكن الوليد لم يكن قد بلغ سن الرشد فاضطر يزيد أن يجعل هشاما وليا لعهده وبعد هشام يجىء الوليد بن يزيد ، ولكن يزيد بن عبد الملك ظل حياً حتى بلغ ابنه الوليد سن الرشد وجاز له فى رأيه أن يكون خليفة من بعده ، فكان يزيد يأسف لأنه قدّم أخاه على ابنه ؛ وروى عنه أنه كان يقول الله بينى وبين من جعل هشاما بينى وبينك .

وتولى هشام فى مثل هذا الجو ، وأراد هشام بدوره — كعادة أكثر الخلفاء — أن ينحى ابن أخيه ليولّى ابنه هو ، فيمكن القول أن الكراهية كانت متبادلة بين الوليد بن يزيد وهشام ليس فقط منذ تولى هشام الخلافة بل يرجع تاريخ هذه الكراهية إلى ما قبل ذلك .

وكان فى الوليد خلاعة ورثها عن أبيه كما أشرنا آنفا ، وألقى به السخط خارج دمشق ، فعاش فى البرية فى ضيعة بالأردن ، وصادف أن مؤدبه عبد الصمد بن عبد الأعلى كان مطعونا فى خلقه ، وهذه الظروف فيما يبدو دفعت الصبى أن يخفف أساه وباواه وأن يدفن همومه فى الكأس وبين صحبته الجوارى وفى أحضان الآثام .

وانتهز هشام هذه الفرصة فراح يشنع على الوليد ليأخذ من ذلك وسيلة

---

(١) اريخ الأمم والملوك جـ ٥ ص ٥٢٠

لعزله وتولية ابنه ، واعتقادى أنه لو صح عن الوليد ما أشيع عنه من آثام ومعاص لكانت هذه فرصة تحقق لهشام مأربه ، ولذلك أرى أن الوليد لم يكن من الفسق للدرجة التى تروى عنه ، ولو كان كذلك لما شهدناه خليفة مع أن هشاما كان يتربص به ، وأرى كما ذكرت من قبل أن الروايات المعادية لبنى أمية أطنبت وبالغت وانتهزتها فرصة أن بنى أمية أنفسهم يذيعون عن الوليد هذا الفجور ويطنبون فيه .

ومما يروى عنه مما لا يسهل تصديقه أنه لما تولى الحج سنه ١١٩ حمل معه كلابا فى صناديق ، وحمل معه الخمور وأراد أن يسرب بجوار الكعبة فى الحرم[١] ، وإن الإنسان ليحس أن هذه قصص موضوعه أُريدَ بها زياده التشويه لذلك الإنسان الضال ، وإلا فهل ضاقت به الدنيا حتى يسرب فى المكان المقدس الذى ذهب لتعظيمه وذهب ليقود جماهير الحجاج التى تؤمه من كل صوب ؟

والذى يتأمل الروايات التى يوردها الطبرى يدرك أن مثار سخط هشام كان إحساسه بأن الوليد ولىُّ عهده دون ولده . فمما رواه الطبرى أن الوليد شرب يوماً هو ومؤدبه ونديمه عبد الصمد ، فلما أخذ منهم الشراب قال الوليد لعبد الصمد قل شعراً فقال :

لعــل الوليد دنا ملكه فأمسى إليه قد استجْمعا

وكنا نؤمِّـل فى ملكه كتأميل ذى الجدب أن يمْرِعا

عقدنا لــه محكمات الأمو ر طوعاً فكان لهــا موضعا

وبلغ ذلك الشعر هشاماً فقطع عن الوليد ما كان يجرى عليه ، وكتب إليه أن يخرج عبد الصمد من صحبته[٢] .

ولما مات هشام وتولى الوليد بن يزيد وكان [illegible] كان قد أوقت بالحق

---

(١) [illegible] ص ٥٢٠ – ٥١١ وتاريخ [illegible] ص ٢٥٠

(٢) [illegible] ص ٥١٢

أو بالباطل أو قل بالحق والباطل معاً ، وربما يكون قد بالغ فى فسقه حينما خلا له الجو وآل له المال الوفير الذى جمعه هشام باقتصاده ودقته ، فإذا به أغنى الناس وقد كان على وشك أن يكون مأزوماً حينما قطع عنه هشام ما كان يُجْرَى عليه ، فأفلت زمامه وافتضح أمره ، وبالغ فى طلب اللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق ، كما اتهم باتصاله الجنسى بأمهات أولاد أبيه[1] .

ومما أُخذ على الوليد أنه اتجه إلى الانتقام المرّ من أولاد هشام فأنزل بهم صنوف الأذى ؛ ضرب بعضهم وحبس آخرين منهم وصادر ما استطاع من أموالهم وممتلكاتهم[2] .

وفى هذا الجو من الفسق والاتهام به ، وفى هذا الجو من الكراهية والتحدى والانتقام هب الناس يتحدثون ساخطين عليه ، وبايعوا سرا يزيد ابن الوليد بن عبد الملك ، ولما تأكد يزيد من قوته أعلن ما كان سراً ، وزحف إلى دمشق ، وخاض معارك صمد فى بعضها الوليد ولكنه هزم فى النهاية ، ودخل قصره ولجأ إلى المصحف يقرأ فيه ويهتف : يوماً كيوم عثمان . وتسوَّر الثائرون بيته ، ودخلوا عليه وقتلوه[3] .

واعتقادى أن قتل الوليد كان فرصة لواضعى الروايات من أعداء بنى أمية فخلقوا من ذلك الشىء الكثير ، وابتدعوا صوراً جديدة تَنْسُب للوليد ألواناً من الفسق ، كما وضعوا باسمه الأشعار التى تصوره زنديقاً محتقراً للقرآن الكريم مهاجماً تعاليم الإسلام ، والذى يجعلنى أشير إلى هذه المبالغات أن مقاومة الوليد كانت كبيرة وأن أتباعه عند اصطدامه بجيوش يزيد بن الوليد كانوا كثيرين ، وأن مروان بن محمد زحف لمساعدته بجند لو أسرع

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٥٣٨

(٢) الطبرى جـ ٥ ص ٥٢٥ — ٥٢٦ والعقد الفريد جـ ٤ ص ٤٦٢

(٣) الطبرى جـ ٥ ص ٥٥١

قليلا لحقق له النصر ، وأن الثورات التى طالبت بالثأر له لم تهدأ حتى انتصر أتباعه بقيادة مروان بن محمد وأُخرجت جثة قاتِلِه يزيد بن الوليد وصُلِبت[1] ، ورجل فيه ذلك الفسق الذى يصورونه لا يعقل أن ينال كل هذا التأييد .

وكان الوليد شاعر ممتازاً ولكن أهم موضوعات شعره كانت تافهة ، فلقد استغل مواهبه فى الحديث عن الخمر والنساء ، ولما تولى الخلافة اتجهت مواهبه إلى شعر الشماتة من هشام .

---

(١) الطبرى : ٥ ص ٦٠٦ وما بعدها

يزيد بن الوليـــد (١٢٦ هـ)

لم يهنأ يزيد بالخلافة التى سعى لها سرًّا وجهراً ، فكانت مدة خلافته حوالى ستة أشهر ، وكانت هذه المدة القصيرة مملوءة بالمتاعب فقد ثار أهل حمص فى وجهه مطالبين بثأر الوليد ، وثار فى وجهه أيضاً مروان بن محمد ، وكانت الحرب على وشك أن تقع بينهما ، ويروى أن يزيد بن الوليد كتب إلى مروان : أما بعد فإنى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام . فأتته بيعته[1] . وهكذا نجد العصبية على أشدها لا فى خراسان وحدها بل فى الشام نفسها ، وكان جند الشام هم عدة بنى أمية ، فإذا انقسم هؤلاء الجند على أنفسهم كان ذلك إيذاناً بانقضاء دولتهم[2] .

وقد مات يزيد بعد هذه الشهور القليلة وأوصى بالخلافة من بعده لأخيه إبراهيم .

---

(١) ابن عبد ربه . العقد الفريد جـ ١ ص ٥٩

(٢) انظر الطبرى جـ ٥ ص ٦٤٤ وما بعدها .

إبراهيم بن الوليد (١٢٦ هـ)

لم يستقر الأمر ليزيد بن الوليد وبالتالى لم يستقر الأمر لأخيه إبراهيم ، ولم تكن خلافته موضع إجماع من المسلمين ، ولم تتم له بيعة إجماعية ، ولذلك كان بعضهم يناديه خليفة وكان آخرون ينادونه أميراً[١] ، ومن أهم الثورات التى قامت فى وجهه ثورة مروان بن محمد والى الجزيرة وأرمينية ، فإنه إذا كان قد تمسك بالصبر فى عهد يزيد بن الوليد لم يستطع أن يمضى بيعته لإبراهيم ، ولذلك نجده يقود جيشاً كبيرا ويتجه به للشام مطالباً بثأر الوليد بن يزيد وبحقوق أبنائه ، فأرسل له إبراهيم بن الوليد جيشاً بقيادة سليمان بن هشام فهزمه مروان ، فعاد سليمان إلى الشام فقتل ابنى الوليد الثانى وسار إلى تدمر ، وكان مروان قد ادعى فى أول الأمر أنه يقاتل فى سبيل هذين الولدين وكان القيسية يشدون أزره ، فلما قتلا طالب بالأمر لنفسه فبايعه الناس[٢] .

---

(١) الطبرى - ٥ ص ٥٩٦

(٢) دوايت دونلدسن : عقيدة الشيعة ص ١٣١

مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢ هـ)

لم يستقر الأمر لمروان إلا فى عام (١٢٧ هـ) فقد كانت هناك شهور نضال إذ أن مرواناً لم يتول ببيعة سابقة وإنما تولى بحد السيف فلم تتم له البيعة إلا بعد وقت مملوء بالكفاح والجهاد .

على أن الثورات استمرت فى وجه مروان بعد البيعة وقد شملت هذه الثورات الشام كله ؛ فثار عليه أهل حمص فقاتلهم ، وثار عليه أهل الغوطة فحاربهم ، وهب فى وجهه سليمان بن هشام فحاربه .

وبالإضـــافة إلى ذلك هبت ثورات الخوارج وهبت ثورات بالحجاز ، واشتد الصراع الشيعى فى خراسان ، وكسب الشيعة النصر فى كثير من المعارك .

لقد كان مروان عظيما شجاعا صاحب دهاء ومكر[1] وكانت له خبرة واسعة فى الحروب ، ومن أهم ما يتصل به أنه وضع خطة لإعادة تنظيم القوات الإسلامية ، فبدلا من تقسيم الجيش إلى فرق تنتسب كل منها إلى قبيلة ، رأى تأليف جيش نظامى يخدم أفراده برواتب معينة بإمرة قادة محترفين ، وينقسم الجنود المجندون للخدمة العسكرية إلى فرق قليلة العدد تفوق فى سرعة حركتها وقوتها نظامَ الخطوط الطويلة عند العرب[2] . ولكن هذا كله لم يغن عنه شيئاً لأن الظروف كلها كانت ضده وكانت عوامل فشله محكمة ، فقد جاء فى وقت تهلهل فيه ثوب الخلافة الأموية ولم يعد هناك أمل فى إصلاحه ولا مكان لوضع الرقاع فيه ، وقد شغلت أحداث الشام والعراق والحجاز الخليفةَ فلم يستطع أن يقدم عوناً لواليه على خراسان

---

(١) السيوطى ص ٢١٧

(٢) عقيدة الشيعة ص ١٣٠

فانهزم واليه نصر بن سيار أمام أبي مسلم الخراسانى ، واستمر زحف الشيعة من خراسان حتى شمل العراق فالشام فمصر وحرّ مروان فى مصر قتيلا فى قرية اسمها بوصير من قرى الصعيد سنة ١٣٢[1] بعد حياة مملوءة بالكفاح والجلاد ، وبموته انتهت الدولة الأموية .

أما زحف الشيعة فسورد له تفاصيله الوافية عند الكلام عن قيام الدولة العباسية .

---

(١) الفخرى ص ٧

التوسع الإسلامي
في عهد الدولة الأموية

امتدت الدولة الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين امتدادا شرحناه فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، ولكن هذا الامتداد لم يصل بها إلى حدود ثابتة ، فلا تزال هناك منازعات واتصالات حربية على الحدود فى مختلف الاتجاهات ، ولا تزال الأرض التى امتد لها الإسلام معرضة لحملات غير المسلمين من وراء الحدود ، وأكثر من ذلك فقد حصل انتقاص فى الدولة الإسلامية فى أثناء الخلافات والثورات الداخلية ، وفى بعض الأحيان كان الخليفة المسلم يقف بين ثائر داخلى وتهديد من الخارج ، فكان عليه فى هذه الحالة أن يشترى بالمال سلامةَ حدوده قبل أن يقدم على مواجهة الفتن الداخلية وقمعها . وسنذكر بعض أمثلة لذلك فيما بعد ، وعلى هذا كان لا بد من معارك أخرى بين بنى أمية وجيرانهم فى أكثر الميادين التى انتهى عندها الفتح الإسلامى فى عهد الخلفاء الراشدين ، وقد تسلسلت هذه المعارك على النحو الذى سيرد ذكره . وسارت خطوة خطوة ، فربما كان هدف المسلمين الأول أن يفتحوا الشام وفلسطين للأسباب التى أوردناها فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، فلما تمَّ لهم ذلك وجدوا ألاَّ مناص من دخولهم مصر ليؤمنوا جيوشهم فى فلسطين من زحف يقوم به جند الروم بمصر ، فلما تم لهم فتح مصر خافوا على جيوشهم من جند الروم بليبيا أو هوجموا فعلا بجيوش الرومان وهكذا دواليك ، فطبيعة الحروب الامتداد ما دام لم يقف حدٌّ فاصل طبيعى بين الجيشين المتعادين .

هذا سبب أول لامتداد الفتح فى عهد بنى أمية ، وهو سبب كما نرى اسلاس . وهو فى طبيعته دفاع وليس به صبغة العدوان . وهناك جانب دا... ... لا يمكن أن نغفله . وذلك هو الجهاد المقد...

الإسلام ، وقد اتّجه هذا الاتّجاهَ بعضُ المسلمين ورأوا أن من واجبهم أن يحاربوا غير المسلمين وبخاصة جنود الشرك التى كانت تحول بين التفكير الإسلامى وبين قلوب الناس المتطلعين إليه .

على أن عصر بنى أمية يمتاز بأنه عنى بالدولة ، ومعنى هذا أن روح المُلْك والرغبة فى السلطان بدأت تظهر عند الخلفاء ، وأصبح التوسع يحقق رغبة فى نفس الخليفة ويضمن لدولته الهيبة أمام ملوك عصرِه .

وننتقل بعد ذلك إلى نقطة أخرى هى أن التوسع والفتوحات لا بدّ لها من استقرار فى الداخل ، ولا بد لها كذلك من خليفة قوى طموح ، وفى ضوء ذلك ، وفى ضوء الدراسات التى سبق أن سقناها عن خلفاء بنى أمية ، يتضح لنا أن الوقت المناسب للفتح والتوسع فى العصر الأموى كان عصر معاوية ، والسنين الأخيرة من عهد عبد الملك ، ثم عهد ابنه الوليد ، وعلى هذا فقد تمت فى هذه العهود فتوحات رائعة سنذكرها بشىء من التفصيل فيما بعد ، وفى غير هذه العهود توقفت الفتوحات أو حققت انتصارات محدودة ، فقد كانت الدولة الأموية مثقلة بثورات فى الداخل ، أو كان يحكمها خلفاء محدودو المواهب كبعض خلفاء العهد الأخير ، أو خليفة يتجه طموحه لإرضاء الله لا لتوسيع سلطانه ورقعة الأرض الخاضعة له كعمر بن عبد العزيز .

وبعد بنى أمية توقف التوسع الإسلامى فلم تستطع الدولة العباسية أن تخطو للأمام خطوة واحدة ، بل لم تستطع أن تمدّ سلطانها على أملاك الأمويين بعد سقوط دولتهم . على أن حركة التوسع الحربى إن كانت قد توقفت فإن حركة انتشار الإسلام لم تتوقف بل إن الإسلام واصل سيره بطريق الدعاة والتجار فوصل إلى الملايا وإندونيسيا واقتحم قلب إفريقيةّ كما سنتحدث عن ذلك فيما بعد . وقد استؤنفت كذلك حركة التوسع الحربى فى ظل الغزنويين والعثمانيين . والمهم الآن أن التوسع فى العهد الأموى شمل الميادين الثلاثة الهامة التى انتهى عندها الفتح الإسلامى فى عهد عثمان وهذه الميادين هى :

أولا : ميدان الحرب ضد الروم فى آسيا الصغرى وقد امتدت الحرب فى هذا الميـدان فشملت حصار القسطنطينية وغزو بعض جزر البحر الأبيض المتوسط .

ثانياً : ميدان الشمال الإفريقى ، وقد امتد هذا الميدان حتى المحيط ، ثم عبر مضيق جبل طارق وامتد إلى أسبانيا .

وهذا الميدان وسابقه يمكن أن يطلق عليهما ميدانا الغرب وسنوضحهما خريطة واحدة ستأتى عند الحديث عنهما .

ثالثاً : الميدان الشرقى وقد امتد هذا الميدان وتفرع فرعين سار أحدهما إلى الشمال تجاه ما وراء النهر وهبط الآخر إلى الجنوب فشمل بلاد السند .

وسنتكلم بالتفصيل عن كل ميدان من هذه الميادين الثلاثة .

الميدان الأول : حروب المسلمين ضد الروم فى آسيا الصغرى :

لا نزاع أن هذا الميدان كان من أهم الميادين بالنسبة للدولة الأموية ، فالدولة الأموية اتخذت دمشق عاصمة للإمبراطورية الإسلامية ، وأصبحت العاصمة بذلك قريبة من الحدود البيزنطية ، وكان معاوية والياً على سوريا منذ عهد عمر بن الخطاب ، ولذلك اعتبر مسئولا عن حدود سوريا منذ ذلك الحين ، فلا عجب إذاً أن يتجه الأمويون لتحصين حدود سوريا وإبعاد العدو عنها ، ذلك العدو الذى كان يحلم باستعادة هذه الأرض الغالية التى فقدها إلى الأبد .

وفى أثناء الفتنة التى سبقت عهد معاوية ، تلك الفتنة التى شملت السنين الأخيرة من عهد عثمان وشملت كذلك خلافة على بن أبى طالب ، فى أثناء هذه الفتنة استعاد الروم بعض أجزاء من أرمينية كان قد تمّ فتحها(١) ، كما رأى معاوية تحفز ملوك الروم للزحف على حدوده عند ما اشترك فى الفتنة التى تلت قتل عثمان ، ولذلك اضطر معاوية قبل أن يواجه جيوش علىّ أن

(١) معجم البلدان جـ ١ ص ٢٠٣

يعقد هدنة مع الإمبراطور قنسطانز وأتباعه من الجراجمة[١] وقبل أن يدفع لهم إتاوة ليضمن سلامة أراضيه[٢].

ولما تم الأمر لمعاوية وسكنت الفتنة اتجه معاوية إلى مواجهة القوة بالقوة، وبدأ خطته باستئناف نظام الشواتى والصوائف للدفاع عن الثغور الإسلامية أو لزحزحة العدو إلى الوراء والاستيلاء على حصونه التى كانت تواجه حصون المسلمين[٣]، على أن معاوية سرعان ما عدل فكرته وأراد أن يضرب ضربة قوية يقصم بها ظهر الإمبراطورية البيزنطية، وذلك بالاستيلاء على عاصمتها «القسطنطينية»، وخيل إليه أن سقوط العاصمة سيجعل الإمبراطورية كلها تخر له كما خرت من قبل إمبراطورية الفرس بعد سقوط عاصمتها «المدائن».

وقد أعد معاوية لهذا الأمر الجليل عدته فنمى أسطوله حتى صار ١٧٠٠ سفينة مزودة بالعدة والسلاح، ثم غزا جزر البحر الأبيض المتوسط فاحتل منها رودس سنة ٥٣ هـ وأقريطش (كريت) سنة ٥٤ كما غزا جزيرة صقلية وجزيرة صغيرة اسمها أرواد بالقرب من القسطنطينية[٤] بالإضافة إلى جزيرة قبرص التى كان معاوية قد فتحها فى عهد عثمان[٥]، وكان جنادة بن أبى أمية قائد الأسطول الإسلامى فى أثناء غزو أكثر هذه الجزر[٦].

(١) ينسب الجراجمة إلى مدينة اسمها جرجومة بالقرب من انطاكية، وقد صالحوا المسلمين فى عهد أبى عبيدة ولكنهم لم يدخلوا الإسلام، وانتقل بعضهم إلى جبال لبنان، والمتتبع لتاريخهم يجدهم يظاهرون المسلمين إن كانت للمسلمين الغلبة على الروم، فإذا ظهر وهن فى الجانب الإسلامى ساعدوا الروم على المسلمين ولذلك كثر انتقاضهم وكثر اخضاعهم. (اقرأ البلاذرى ص ١٦٣ — ١٦٧)

(٢) فتوح البلدان ص ١٦٤ واليعقوبى ٢ : ١٥٧

(٣) فتوح البلدان ص ١٦٧ و ١٨٩

(٤) انظر فى البلاذرى «فتح جزائر فى البحر» ص ٢٣٧ وانظر كذلك الطبرى جـ ٤ ص ٢٣٨ وتقع جزيرة أرواد بالقرب من الضفة الغربية لبحر مرمرة كما يقول بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية ١ : ٥١)

(٥) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٣٣

(٦) البلاذرى ص ٢٣٧

ولما هدد معاوية البر وسيطر على البحر تقدم لهدفه العظيم ، فأعد مئات من المراكب الثقيلة عليها الأسلحة اللازمة لحصار مدينة كالقسطنطينية قوية الأسوار محكمة الحصون ، وقد سارت مراكب المسلمين إلى بحر مرمرة ، وحققت فى طريقها انتصارات باهرة ، ثم وصلت المدينة العظيمة وألقت عليها الحصار ، وكان جيش المسلمين بقيادة يزيد بن معاوية(١) ومعه مجموعة من أبطال المسلمين المغاوير ، منهم الصحابى أبو أيوب الأنصارى وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وابن العباس ، وتبعاً للرواية التى يوردها ابن الأثير(٢) كانت القيادة لسفيان بن عوف ، وربما كانت القيادة الفعلية لسفيان وكان معه يزيد حيث أراد معاوية لابنه أن يشتهر بالبأس والنضال فى سبيل الله(٣).

وحول المدينة العتيدة دارت معارك عنيفة بين المهاجمين والمدافعين ، ولكن كان واضحاً أن أسوار المدينة وحصونها كانت أقوى من عُدّة المهاجمين ، ولذلك قاومت القسطنطينية هذا الحصار الطويل الذى امتد حوالى سبع سنوات على أقوى الروايات (من سنة ٥٤ إلى سنة ٦١) وقد مات فى هذه المعارك الصحابى الشهير أبو أيوب الأنصارى ودفن تحت أسوار القسطنطينية ، وبذلك أصبح قبر أبى أيوب مثار قصص وأشعار تدعو المسلمين لمعاودة الحصار وفتح القسطنطينية ، حتى لا يبقى البطل أبو أيوب وحيداً فى مدفنه بتلك البقاع .

ولم يعرف بالضبط سبب انسحاب الأسطول الإسلامى ، وترى الروايات الأجنبية أن ذلك كان بسبب احتراق بعض قطع هذا الأسطول بإلقاء النار عليه(٤) ، ولكن إذْ اتضح لنا أن انسحاب الأسطول كان فى أواخر عهد معاوية أو أوائل عهد يزيد كان من الضرورى أن نربط بين هذا الانسحاب

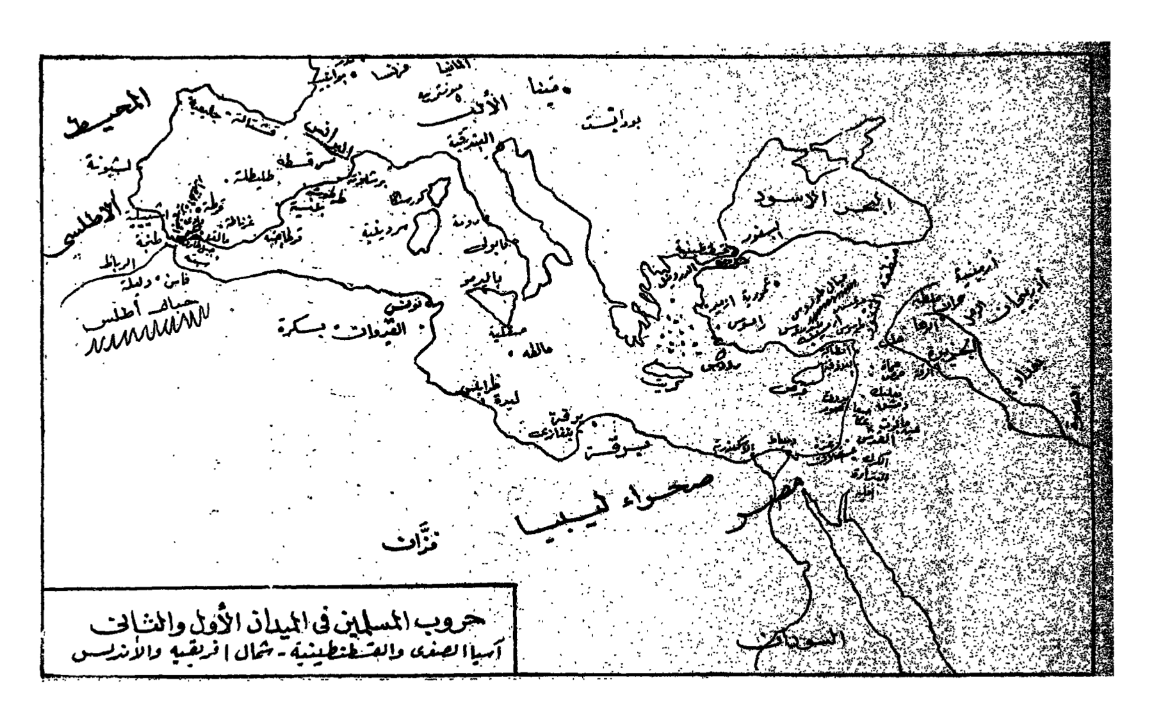
---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ١٧٣

(٢) الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٢٢٧

(٣) ويروى ابن عبد ربه أن القيادة الفعلية كانت بيد يزيد (انظر العقد الفريد جـ ٤ ص ٣٦٧)

(٤) انظر هذه الروايات فى : التاريخ السياسى للدولة العربية للدكتور ماجد جـ ٢ ص ٤٨.



حروب المسلمين فى الميدان الأول والثانى
آسيا الصغرى والقسطنطينية - شمال افريقيه والأندلس

وبين انتقال الخلافة من معاوية إلى يزيد ، وما كان يدركه معاوية من أن يزيد سيصادف بعض المتاعب ليستقر له الأمر وتجتمع حوله الكلمة ، ثم ماصادفه فعلا يزيد من ثورات وسخط شغلت عهده كله ، وضرورة وجود يزيد نفسه فى العاصمة الإسلامية فى هذه الفترة وكان قبل ذلك قائداً للجيش المحاصر ، ولا نزاع أنى أميل لهذا الرأى وبخاصة أن المؤرخين العرب لم يذكروا شيئاً عن احتراق بعض قطع الأسطول الإسلامى .

وانتكس هذا الميدان فى أثناء الفتن والحروب الداخلية التى تلت وفاة معاوية واستمرت حتى شملت معظم عهد عبد الملك بن مروان . فقد انتهز الروم هذه الفرصة وهاجموا ثغور المسلمين واستولوا على بعضها(١) ، كما تدخلوا فى شئون أرمينية فاستولوا على بعضها أيضاً ، وساعدوا كذلك بعض زعمائها على الاستقلال بمناطقهم(٢) . وهاجموا ساحل سوريا وهدموا بعض مدنه مثل عسقلان وصور وعكة(٢) . ومرة أخرى اضطر المسلمون أن يشتروا سلامة حدودهم بالمال ، فقد صالح عبد الملك ملك الروم على أن يؤدى له فى كل جمعة ألف دينار خوفاً منه على المسلمين(٣) . فلما قضى عبد الملك على الفتن الداخلية عاد إلى الميدان الخارجى يرد بقوة عبث الروم بمناطق الحدود ، فاسترد عبد الملك ما استولى عليه الروم من ثغور المسلمين ، وأعاد إخضاع أرمينية ، ونظم سلسلة الشواتى والصوائف ، كما دعم حصون المسلمين وأكثر من حراسها وزودهم بالعتاد والسلاح ، وفى سنة ٨٤ هـ أرسل جيشاً بقيادة عبد الله بن عبد الملك فغزا الروم وفتح المصيصة(٤) .

وجاء عهد الوليد أو قل جاء عهد الظفر الواسع ، ولكن ميدان الروم على كل حال كان قليل التأثر بحركة التوسع الهائلة التى امتاز بها عهد الوليد .

---

(١) فتوح البلدان ص ١٨٩ (٢) فتوح البلدان ص ٢٠٧ – ٢٠٨

(٣) الطبرى جـ ٥ ص ٢ والبلاذرى ص ١٦٤

(٤) تاريخ الأمم والملوك ص ١٨٥

ولعل الميادين الأخرى شغلت بال الوليد وجنده فاتجه إليها بقوته دون ميدان آسيا الصغرى ، واكتفى فى ميدان الروم ببضع ضربات إن لم تكن حاسمة فقد كانت قوية ، فقد دفع خط الدفاع الإسلامى إلى الأمام مسافة طويلة بأن استولى على بعض حصون الروم وأعاد ترميمها وإعدادها وأسكنها الجنود الأشداء ، ومن هذه الحصون حصون مرعش وعمورية[1] التى ستكون عظيمة الشهرة فيما بعد فى عهد المعتصم العباسى ، كما استولى على أنطاكية[2] .

وتجدد الأمل مرة أخرى فى فتح القسطنطينية ، ويقال إن الوليد لم يرد أن يقدم على هذا التصرف قبل أن يمهد له الطريق بدك حصون الروم وضمان سلامة الطريق ، ولكن الوليد مات قبل أن يرسل جيشاً لمحاولة أخرى لفتح القسطنطينية لانشغاله فى الميادين الأخرى كما سبق القول ، أو لعدم ضمان سلامة الطريق للعاصمة العتيدة ، وعلى كل حال فقد قام سليمان بن عبد الملك بهذه المحاولة الجريئة وأطمعه فى ذلك اضطراب الأحوال فى الدولة البيزنطية والخلاف على العرش ، كما أطمعه انضمام ليون المرعشى إليه وَوَعْدُه أن يحارب بجوار المسلمين وأن يحكم باسم الخليفة إذا وصل إلى العرش .

وتحركت الحملة العظيمة برا وبحرا وتحرك معها الخليفة فترك عاصمته وأقام فى دابق بالقرب من حلب ليكون أقرب إلى ميدان القتال ، وكان قائد الحملة مسلمة بن عبد الملك وهو رجل شجاع مشهود له بالصرامة ، وحققت الحملة فى طريقها كثيرا من الفوز حتى وصلت القسطنطينية وألقت عليها الحصار[3] ، ولكن هذه الحملة لم تأت بنتائج تذكر لأن ليون وصل إلى العرش بمساعدة المسلمين ثم انقلب يحاربهم ، كما قاسى المسلمون من

---

(١) فتوح البلدان ١٦٧ والكامل لابن الأثير ٤ ١١٠

(٢) الطبرى حـ ٥ ص ٢٥٧

(٣) الطبرى جـ ٥ ص ٢٩١ — ٢٩٢

الشتاء ومن انقطاع المدد صعوبات كثيرة وبخاصة أن الروم استطاعوا أن يقطعوا الطريق بين البلاد الإسلامية وبين الحملة الموغلة فى بلاد الروم ، وهكذا نجت القسطنطينية من الحصار الثانى كما نجت من الحصار الأول ، وكان ذلك فى مطلع عهد عمر بن عبد العزيز الذى أصدر أمره بفك الحصار وعودة الجيوش الإسلامية أو ما تبقى منها[١] .

وهكذا نجت القسطنطينية سنة ٧١٧ م من السقوط فى أيدى المسلمين ، ولكن نجاتها كانت موقتة فبقيت بعد ذلك عدة قرون أخرى عاصمة بيزنطة حتى سقطت فى أيدى المسلمين سنة ١٤٥٣ م على يد محمد الفاتح (١٤٥١ — ١٤٨١) على ما سنورده فيما بعد .

الميدان الثانى : حروب المسلمين فى شمال أفريقية والأندلس :

كانت منطقة ساحل إفريقية الشمالى خاضعة لنفوذ الروم ، وكانت تحكمها حاميات رومانية ، أما ما عدا الساحل من صحارى ومزارع تمتد إلى المحيط غربا وتمتد جنوبا إلى بلاد السودان فكانت كما يقول ابن خلدون[٢] بلادا مستقلة ، للبربر بها ملوك ورؤساء وأقيال وأمراء فلا يستطيع أن يصل إليهم الروم أو الفرنج .

ويصفهم ابن خلدون بأنهم كانوا فى دور البداوة عند الفتح العربى[٣] وكانوا لا تجمعهم أمة بل يعيشون فى حياة قبلية ، وكانت الوثنية ديانتهم كما كانوا يؤمنون بالسحر والكهانة . وقد دخلت إليهم اليهودية أو النصرانية مع الغزاة أو عن طريق مصر ولكن هاتين الديانتين كانتا قليلتى الانتشار[٤] .

وقد امتد الفتح الإسلامى — كما سبق القول — إلى برقة وطرابلس فى عهد

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٣٠٩ (٢) العبر ٦ : ١٠٧

(٣) المقدمة ص ٢٩٤ (٤) العبر ٦ : ١٠٦

عثمان وكان المسلمون يقصدون بفتح برقة وطرابلس تأمين سلامة مصر ، ولكن البيزنطيين بدءوا يجددون حصونهم فى الساحل وبدءوا يرسلون الجيوش لحصونهم فيها ، وكان الأمر قد آل لمعاوية ، فعزم على القضاء نهائياً على حكم الروم فى شمال إفريقية واعتمد على القائد الشهير عقبة بن نافع الفهرى الذى كان مقيما فى برقة منذ فتْحِها وكان يعمل على أن يجذب البربر لدخول الإسلام .

وقد تولى عقبة قيادة جيش المسلمين بمهارة فائقة فأنزل بأعدائه خسائر فادحة ، وانتصر على الروم فى الساحل وعلى البربر فى الداخل ، فخضعت لسلطانه طرابلس وفزّان وسار جنوباً حتى وصل بلاد السودان ، ولم يكن المسلمون فى هذه المرة يريدون تأمين مصر ، ولكنهم كانوا يعتزمون التخلص من جيوش الروم وإدخال البلاد نهائياً فى الدولة الإسلامية ، ولذلك أمر معاوية عقبة أن يختار مكاناً مناسباً ينشئ به مدينة إسلامية تكون معسكراً للجيش ومقراً للمسلمين ، فاختار عقبة أحد الأودية البعيدة عن الساحل وأنشأ مدينة القيروان ، وكان تخطيطها على نمط تخطيط الأمصار الإسلامية فى البصرة والكوفة والفسطاط ؛ فشملت المسجد ودار الإمارة ودوراً للقادة وأسرهم ومعسكرات للجنود ، وكان إنشاء قاعدة القيروان سنة ٥٠ هـ[١] .

وقبل أن نسترسل فى وصف حملات المسلمين على شمال إفريقية نقرر أن مقاومة هـــذه البلاد كانت قوية وقد استمرت حوالى ستين سنة منذ فتحت برقة فى أواخر العقد الثالث حتى تم القضاء على العدوين الكبيرين بهذه البلاد وهما الروم والبربر سنة ٨٣ هـ .

ونعود بعد ذلك لقصة النضال فى شمال إفريقية والمغرب فنذكر أن معاوية بن أبى سفيان عزل والى مصر معاوية بن حديج سنة ٥٠ هـ وولى عليها مسلمة بن مخلد الأنصارى كما ضم له المغرب أيضاً فكان أول من جمع له

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ١٧١ والبلاذرى ص ٢٣٠

المغرب كله ومصر وبرقة وإفريقية وطرابلس كما يقول الطبرى[١] فعزل مسلمة عقبة عن إفريقية وولى بدله مولى له يقال له أبو المهاجر[٢] ، وقد نجح أبو المهاجر فى النضال الذى قام به واستطاع أن يضم إليه زعيما هاما من زعماء البربر اسمه كسيلة ، فتبعه عدد كبير من قبائل البربر . وقد حاول أبو المهاجر بعد أن أحس بانتصاره على البربر بطريق السياسة والقوة أن ينتصر كذلك على الروم ، فهاجم معقلهم الشهير قرطاجنة ولكن الروم دافعوا عن هذا المعقل ببسالة ردت عنه المهاجمين .

وفى أوائل عهد يزيد أعيدت القيادة لعقبة بن نافع[٣] وظل أبو المهاجر تابعاً له وقد استطاع القائدان العظيمان أن يسيرا فى فتوحاتهما حتى وصلا إلى المحيط الأطلسى ويُروى أن عقبة صعد هناك ربوة وهتف : يارب لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً فى سبيلك ، ولو كنت أعلم بعده أرضاً وناساً لخضته إليهم .

على أن هذه الفتوح لم تكن نهاية المطاف ، فقد كره البربر عودة عقبة للقيادة ، وخرج كسيلة على الإسلام وأعد نفسه وقاوم ، كما انتهزت الروم هذه الفرصة فشجعت كسيلة وأمدته بالذخائر ، وانتصر كسيلة فى أول الأمر وخر عقبة وأبو المهاجر فى طريق عودتهما من رحلتهما المظفرة . ودفن عقبة فى مكان لايزال يحمل اسمه (سيدى عقبة) وبنى على ضريحه مسجد هو أقدم أثر لفن العمارة الإسلامية فى إفريقية ، وبقتل عقبة وأبى المهاجر وهزيمة جيشهما عاد السلطان مرة أخرى للروم فى الساحل ولكسيلة فى الداخل وانسحبت جيوش المسلمين من القيروان إلى برقة وحاول عبد العزيز بن مروان والى مصر أن يعيد سلطان المسلمين على هذه البقاع فأرسل جيشا بقيادة زهير بن قيس ، ولكن هذا الجيش

---

(١) تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ١٧٨ (٢) المرجع السابق والبلاذرى ص ٢٣٠

(٣) فتوح البلدان ص ٢٣٠

هزم وقتل قائده وكثير من أفراده[١] ، وساعد على هزيمة المسلمين وتقهقرهم فى ذلك الميدان اضطراب دمشق فى تلك الأيام بسبب الفتن التى تلت وفاة معاوية .

وبدأت يقظة الخلافة الأموية فى عهد عبد الملك فأرسل جيشاً عظيما بقيادة حسان بن النعمان الغسانى ، وقد استطاع هذا الجيش أن يقضى على الروم ويطردهم نهائيا من شمال إفريقية ، كما استطاع أن يقضى على مقاومة البربر ، وعادت هذه البلاد حتى المحيط الأطلسى جزءاً من العالم الإسلامى ، كما تولى حسان تنظيم الشئون الإدارية وشئون النقد والخراج وغير ذلك من دلائل الاستقرار ، ولم تعد شمال إفريقية والمغرب تابعة لمصر ، بل أصبحت ولاية خاصة يعين عليها وال من قبل الخليفة[٢] .

وعين موسى بن نصير واليا على شمال إفريقية والمغرب بعد حسان ، وقد كان تعيينه فى أواخر عهد عبد الملك أو أوائل عهد الوليد واتخذ لقب « أمير القيروان » وقد أكمل موسى سلطة المسلمين فى هذه الديار فقضى على ما كان باقيا لبعض القبائل الجبلية من سلطان ، وأخذ الرهائن منها حتى لا تشق عصا الطاعة مرة أخرى ، وفتح طنجة ولم تكن قد فتحت من قبل[٣] وخضعت له صلحا مدينة سبتة الواقعة على الساحل الإفريقى والممتدة من البحر تجاه الشمال ، وكانت سبتة تابعة لملوك القوط يعينون عليها حكامها . وبذلك استقر المسلمون فى هذه البقاع وبدءوا يتطلعون إلى ما راء المضيق .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٣١ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ٢ : ١٣٢ والبلاذرى ص ٢٣١ .

(٣) فتوح البلدان ص ٢٣٢ .

الأندلس :

وخلف المضيق كانت تقع شبه جزيرة الأندلس[١] ، وإذا صحّ أن عقبة بن نافع قد امتطى جواده واتجه إلى الغرب ، إلى المحيط الأطلسى ، فلم ير إلا بحراً هائلا وأمواجاً صاخبة وحَسِبَ أنه ليس هناك خلف البحر عالم آخر وناس يعيشون . فإن موسى بن نصير اتجه إلى الشمال ، ورأى أوربا وعزم على أن يعبر هذا المضيق وينشر الإسلام خلفه وخاصة أن سكان إسبانيا كانوا يحكمون مناطق من المغرب التى استولى عليها المسلمون وكانوا لذلك فى صراع مع المسلمين . وكذلك قدّم سكان إسبانيا عوناً كبيراً للروم الذين كانوا يحتلون قرطاجنة وسواها من مدن الساحل رجاء أن ينتصر الروم فى نضالهم ضد المسلمين ، واتخذت هذه المعونة صبغة الحروب الدينية فقد كان أفرادها يحملون الصليب . وقام أهل الأندلس بعدة غارات على سواحل إفريقية التى كانت تابعة للمسلمين[٢] ، وكل هذه الأسباب ألزمت المسلمين أن يتخطوا المضيق إلى ما وراءه .

وكان الرومانيون قد استولوا على شبه الجزيرة سنة ١٣٣ م وفى عهدهم دخلها عدد كبير من اليهود ، ثم غزاها الوندال فى أوائل القرن الخامس الميلادى ، وبعد ذلك غزاها القوط فى أوائل القرن السادس الميلادى فطردوا

---

(١) أقدم أسماء شبه الجزيرة هو « ايبريا » نسبة إلى الايبريين الذين كانوا من أقدم من سكنها ، ولما استولى عليها الرومان فى القرن الثانى أطلقوا عليها « اسبانيا » أى شاطىء الارانب ، وربما كان ذلك لأن الفينيقيين عندما نزلوا ببعض جهات من الساحل قبل الرومان صادفوا أسراباً من الأرانب فأطلقوا على هذا الشاطىء كلمة اسبانيا التى حملها الرومان بعد ذلك علما على شبه الجزيرة كلها ، وبعد الرومان خضعت شبه الجزيرة لقبائل الوندال فسمى هذا الجزء Vandalisia نسبة إلى هذه القبائل ، وهو الاسم الذى اختاره المسلمون عندما نزلوا هذه البلاد فجعلوه بعد نوع من التعريب « الأندلس » كما جعلوه علما على شبه الجزيرة كلها (انظر الادب الاندلسى للدكتور احمد هيكل ص ١٤)

(٢) الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٦٨

الوندال إلى الساحل الإفريقي ، وبقيت هذه البلاد بها مجموعة غير متجانسة من العناصر كما أنها مختلفة الأديان ، وكان العداء حاداً بين المسيحيين واليهود وطالما غُلِبَ اليهود على أمرهم ونزلت بهم ألوان من الأضرار وكان النزاع على العرش يكاد يكون متصلا بين الأمراء وبخاصة فى الفترة السابقة لغزو المسلمين لها ، وهذه العوامل أيضاً مما حمل المسلمين على الاستهانة بحكومة هذه البلاد وقوتها العسكرية ففكروا فى غزوها .

وجاءت الخطوة المباشرة فقد آل الملك إلى لذريق . فأسخط ذلك أبناء الملك السابق غيطشة فهجروا إسبانيا إلى إفريقية وتحالفوا مع المسلمين ، كما حدث خلاف بين الكونت جوليان حاكم سبتة من قِبَل القوط وبين لذريق لما يقال من أنه انتهك عفاف ابنة جوليان[1] . فأراد جوليان أن ينتقم لشرفه فشجع المسلمين على غزو إسبانيا ووصف لهم محاسنها ووعدهم بالتعاون معهم لنجاح هذا الغرض .

واستشار موسى الوليد بن عبد الملك خليفة المسلمين ، ونقل له الأسباب التى تدعو لغزوها وهوّن عليـــه أمرها ، فوافق الخليفة على الغزو .

وهناك أبطال ثلاثة قادوا جيوش المسلمين الراحفة على أسبانيا ، هم طريف بن مالك وطارق بن زياد وموسى بن نصير نفسه ، وكان طريف بن مالك أول هؤلاء الأبطال ، وكان رحمه بمثابة كشف وارتياد واستطلاع . فقد عبر المضيق على رأس خمسمائة من الخيالة والرجالة ، تحملهم أربع سفن من سفن جوليان وكان ذلك سنة ٩١ هـ ، ولم يجد طريف مقاومة تذكر . وعاد بغنائم كثيرة يشجع أمير القيروان على التقدم نحو الأرض الخضراء ، ولا تزال الجزيرة التى غزاها طريف فى جنوب أسبانيا تحمل اسمه[2] .

---

(١) المقرى نفح الطيب حـ١ ص١٠٩ وانظر The Muslims in Spain p 231 : Dozy

(٢) الكامل ٤ . ١٢٢ ومعجم البلدان ٥ : ٦٦ .

ودفع هذا النجاح أمير القيروان إلى عمل حاسم يقصد به الاستقرار فى الأندلس بعد أن ارتاد طريف له الطريق ، فاختار لهذا العمل الكبير مولاه البطل طارق بن زياد ، وقد سار طارق على رأس جيش قوامه سبعة آلاف من البربر وعبر المضيق على سفن أعدّها له جوليان حاكم سبتة كما أعدّ لطريف من قبل ، وعبر طارق المضيق فى رجب أو شعبان سنة ٩٢ هـ ونزل طارق بجيشه على جبل يعرف باسمه حتى الآن هو جبل طارق « Giblarter » وهناك أعد طارق جيشه للزحف فى هذه الجزيرة الشاسعة العامرة ، ويُروى أنه حرق سفنه ليقطع على أصحابه أى أمل فى العودة أو الهروب إلى الساحل الإفريقى وألقى خطابه الشهير « أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . . . . »(١) . وأنا أميل إلى تصديق الخطاب ، ولكنى لا أميل إلى تصديق الرواية القائلة أن طارقا حرق سفنه ، وأعتقد أن مصدرها هو قوله « البحر من ورائكم » ففهم الرواة أنه أحرق سفنه ولم يبق لأصحابه سبيل إلى الهرب . ولا داعى لأن نستنتج من عدم وجود السفن أنه حرقها ، والذى أراه أن السفن عادت إلى جوليان فهو الذى يملكها وتركت جيش طارق بين البحر والعدو .

وعرف لذريق ملك القوط ويسميه الطبرى الأدرينوق خبر غزو المسلمين لبلاده فأعد جيشا كثيفا قيل إنه بلغ مائة ألف وقاده بنفسه ، وأرسل طارق إلى موسى يطلب مددا فأرسل له خمسة آلاف . وتقابل الجيشان فى وادى بكة أو لكة وكان الفرق فى العدد كبيرا وكذلك الفرق فى العتاد . ولكن جيش القوط كان من العبيد والمستضعفين ، وكان له أعداء كثيرون نالذريق . وكان اليهود يتحالفون سرا مع المسلمين ويقدمون لهم العون . وحمل طارق بجيشه المتحد المؤمن المتعاون على جيش العدو ففرقه

---

(١) المقرى : نفح الطيب ١ ١١٢

ومزقه ، واختفى لذريق فلم يعثر له على أثر وتشتت جيشه[١] ، وكان سقوط الملك واندحار جيشه فى المعركة الأولى مما أثبط الهمم ويسّر فتح الأندلس على المسلمين. ويقول ستانلى لين بول[٢] «إن انتصار المسلمين فى وادى لكة ألقى بأسبانيا كلها فى أيدى المسلمين ، ولم يكن طارق بحاجة إلا إلى قليل من الجهد ليقضى على المقاومة الضئيلة فى بعض المدن» .

وسار طارق يفتح المدن ويبسط سلطانه عليها ، فاستولى على قُرْطُبَة وغَرْناطَة وطُلَيْطُلة ، وكانت طليطلة عاصمة البلاد .

وأدرك موسى بن نصير أن الجبهة اتسعت أمام مولاه طارق ، وأراد كذلك أن يكون له شرف الاشتراك الفعلى فى فتح هذه البلاد الخصبة فقاد جيشاً كبيراً عبر به المضيق واتجه إلى مدينة حصينة اسمها قرمونة ففتحها ثم فتح إشبيلية عاصمة أسبانيا قبل غزو القوط لها ، وسار حيث التقى بطارق فى طليطلة ، وقد كان اليهود أكبر عون للمسلمين فى جميع هذه الفتوحات ؛ ولا يكاد الإنسان يصدق الرواية التى تُصوِّر عداء وسخطاً بين موسى وطارق ، وتُصوِّر موسى معتدياً على طارق ومؤنباً له[٣] ، فكلُّ الحقائق التى بين أيدينا تدلنا على تعاون بين الاثنين ، فقد أمدَّ موسى طارقاً بالمدد ، ثم جاء بنفسه وفتح بعض البلاد التى كانت خلف جيوش طارق فأمَّنها من أن تُضرَب من ظهرها ، وسار البطلان بعد ذلك متعاونين يفتحان باقى البلاد حتى تمَّ لها النصر ، فكيف يكون ذلك مع عداء واعتداء ؟[٤] .

واتجه البطلان بعد ذلك إلى الشمال ففتحا سَرَقُسْطَة وبرشلونة ودانت لها أقاليم أرغونة وقشتالة ، ثم اتجها إلى الشمال الشرقى حتى وصلا إلى جبال

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٢٤٥ .

(٢) The Arabs in Spain p. 21 (من الترجمة العربية لعلى الجارم)

(٣) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٣٢

(٤) انظر الإمامة والسياسة لابن قتيبة جـ ٢ ص ٧١

البرانس ولكنهما تركا المنطقة الجبلية الواقعة فى الشمال الغربى (منطقة جِلِّيقيَّة) تلك المنطقة التى أوى إليها القوط الفارون من الزحف الجارف ، وهذا الاتجاه كان ذا أثر كبير فى التاريخ فيما بعد . ما سببه وما نتائجه ؟

ربما كان السبب هو استصغار شأن القوط والاتجاه إلى ناحية الشرق حيث كان موسى يأمل أن يدين له جنوب أوربا ، وأن يستمر فى زحفه حتى يفتح القسطنطينية من الغرب بعد أن عجز حصار معاوية عن فتحها من الشرق[١] ، ولكن يؤخذ على هذا الاتجاه أنه ترك ظهره مهدداً فما دام هناك عدو خلفه فكيف يتقدم إلى الأمام فى اطمئنان ؟ أما استصغار شأن القوط فلم يكن عملا حازماً ، فهم فى الحقيقة كانوا صغاراً عندما كانت الوحدة شعار المسلمين فلما اختلف أمر المسلمين وتفرقوا وتحاربوا عظم شأن القوط . وقد يقال إن المنطقة الجبلية كان يمكن أن تستعصى على المسلمين ، ولكن ذلك القول لا يثبت أمام الحقيقة الواضحة وهى أن البربر لهم خبرة تامة بالجبال والحروب فيها .

أما نتائج إهمال منطقة جليقية فهى سقوط الأندلس فيما بعد فى يد المسيحيين فقد كانت هذه المنطقة بمثابة حصن تربى فيه الأبطال أو مدرسة تربى فيها الدهاة ، ثم خرجوا فيما بعد بقوتهم ودهائهم ، ووسعوا الهوة بين فرق المسلمين ، وانتهزوا الفرص وظلوا يزحفون حتى استولوا على الأندلس بعد صراع طويل امتد حوالى ثمانية قرون . وسيأتى تفصيل ذلك عند الكلام عن تاريخ الأندلس .

المسلمون فيما وراء جبال البرانس :

بعد أن تمَّ فتح أسبانيا استدعى الخليفة الوليدُ القائدين العظيمين موسى وطارقا إلى دمشق ، وقد رأينا فيما سبق ما أصاب موسى من حنق سليمان

(١) الامامة والسياسة جـ ١ ص ١٦

ابن عبد الملك ، أما طارق فقد انتهت حياته فى غموض كما بدأت فى غموض ، وكل ما ذكره المؤرخون أنه رحل مع مولاه موسى بن نصير بعد فتح الأندلس إلى الشام وانقطع خبره[١] ، وعلى هذا لم يحقق موسى أمله فى اختراق جبال البرانس والزحف جنوب فرنسا الحالية ، ثم جاء بعده السمح بن مالك فى عهد عمر بن عبد العزيز فاخترق جبال البرانس وزحف شرقها ولكن محاولته لم تنجح فقتل سنة ١٠٢ هـ ، وتمت بعد ذلك غارات تكاد تكون متصلة فى عهد عنبسة بن سحيم الذى كانت له الولاية بعد السمح ، على أن أعظم المواقع خطراً حدثت عندما تولى عبد الرحمن الغافقى قيادة المسلمين سنة ١١٢ هـ ، فقد تقدم عبد الرحمن تقدما محسوسا وكسب النصر فى كثير من المعارك وظل يتقدم حتى وصل إلى بلدة تور الشهيرة (Tours) .

على أن تقدم عبد الرحمن وانتصاراته أزعجت الفرنجة واللاتين وغيرهم من سكان البلاد المحيطة ، كما أثارت خوف المسيحيين فى جميع أنحاء أوربا ، ولذلك نجد هؤلاء جميعاً يتجمعون بقيادة شارل مارتل ليقابلوا عبد الرحمن وجيشه فى معركة بلاط الشهداء الشهيرة سنة ١١٤ ، وقد خر عبد الرحمن فى هذه المعركة وانهزم جيشه بعد صراع طويل ، فوضعت هذه المعركة حدا لتقدم المسلمين فى جنوب أوربا ، ولم يبق لهم فى تلك البقاع إلا غارات ليس لها حساب .

الميدان الثالث : حروب المسلمين فيما وراء النهر وفى السند :

ذكرنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب[٢] أن التوسع الإسلامى فى عهد عثمان امتد حتى شمل المنطقة الجبلية جنوبى بحر قزوين ثم تخطت الجيوش

---

(١) دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ١ : ٣٤٣

(١) ص ٢٣٢ — ٢٣٣

الإسلامية نهر جيحون ودخلت بلادُ ما وراء النهر فى الدولة الإسلامية فاستولى المسلمون على بلخ وهراة وكابول وغزنة من بلاد الأتراك .

وقبل أن نذكر الفتوحات الأموية فى هذه الجبهة نحب أن نوضح حقيقتين هامتين :

أولاهما : يبدو من تتبع حركات الفتح الإسلامى فى عهد الخلفاء الراشدين أن المسلمين لم يثبتوا فى البلاد المجاورة لبحر قزوين من جنوبه وجنوبه الشرقى ، وكان سلطانهم فى شرق هذه الأمكنة قليلا ، ويبدو أن سبب ذلك أنهم كانوا يسرعون بالاتجاه نحو الشرق متجهين إلى بلاد ما وراء النهر ، ولذلك بقيت خلفهم هذه الأماكن التى كان يحكمها حكام من الترك وهى بلاد قوهشان وجرجان وكرمان وجيلان وطبرستان تخضع حينا وتتمرد حيناً . وقد تقدم المسلمون فى عهد الوليد — كما سيأتى — فى جبهة ما وراء النهر وتركوا هذه البقاع أيضاً فلم يتم إخضاعها إلا فى عهد سليمان بن عبد الملك على يد قائده يزيد بن المهلب .

ثانيتهما : فى خلال الفتنة التى أدت إلى قتل عثمان واستمرت طيلة خلافة علىّ تمردت بلاد كانت قد ارتبطت بصلح مع الدولة الإسلامية فى هذه المنطقة ومنها هراة وبلخ وغيرهما .

وجاءت الدولة الأموية وبدأت تحركاتها الكبيرة فى هذا الميدان . وهو الميدان الشرقى ، وهو وثيق الاتصال ببلاد فارس التى فتحت فى عهد عمر ، وببلاد خراسان التى امتد لها الفتح الإسلامى فى عهد عمر وعهد عثمان ولكنها لم تكن قد استقرت نهائياً فى أيدى المسلمين . ولما كان هذا الميدان الشرقى اتخذ قاعدته بلاد العراق . وكان يديره والى العراق حتى بعد أن تفرع إلى ميدانى ما وراء النهر والسند ، فقد عددناه ميداناً واحداً . وسيظل هذا الميدان ميداناً واحداً طيلة الفترة الأولى من العهد الأموى . ثم يقسم إلى ميدانين فى عهد الوليد على يد قائده الحجاج بن يوسف الذى عيّن قائدين أرسل

أحدهما إلى الشمال الشرقى فأوغل فى بلاد ما وراء النهر ، وأرسل الآخر إلى الجنوب الشرقى ففتح بلاد السند ، وسنتكلم فيما يلى عن كل من هاتين الجبهتين اللتين تفرعتا عن الجبهة الشرقية .

جبهة ما وراء النهر :

بلاد ما وراء النهر أو ما بين النهرين هى البلاد التى تقع بين نهر جيحون (Amu-Darya) ونهر سيحون (Syr-Darya) وأهم الممالك التى تقع فى هذه البقاع هى :

مملكة طُخارستان على جانبى نهر جيحون وعاصمتها بلخ .

مملكة صُفانيان شمال نهر جيحون وعاصمتها شومان .

مملكة الصُّغْد وهى تمتد من جيحون إلى سيحون وعاصمتها سمرقند وأهم مدنها بخارى .

مملكة فرغانة على جانبى نهر سيحون وعاصمتها جُخَنْدَة أو كاشان وكان ملكها يلقب بالإخشيد وهو اللقب الذى أطلق على الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية بمصر لصلة نسبه بهذه البلاد .

مملكة خوارزم فى أعلى نهر سيحون وعاصمتها الجرجانية .

مملكة أشرُوسَنَةَ فى الشرق من فرغانة ولقب ملكها الأفشين ومنها انحدر بعض المماليك الذين آل لهم السلطان فى عصر ضعف الخلافة العباسية بعد الواثق .

مملكة الشاس فى شمال نهر سيحون وعاصمتها الطارنبذ[1] .

ولم تكن هناك حدود ثابتة لهذه الممالك بل كان العدوان بينهما يكاد يكون مستمراً . وكذلك كانت هذه البلاد عرضة لعدوان من الترك والصينيين الذين كانوا مجاورين لبعضها .

---

(١) انظر الدكتور سعيد ... ممالك ما وراء النهر ص ٦ وما بعدها وانظرها كذلك البلاذرى ص ٤٠٩ — ٤١٠

وقد بدأ غزو هذه البلاد منذ عهد معاوية على يد قائده قيس بن الهيثم الذى كانت له ولاية خراسان ، فقد روى أن أهل بدغيس وهراة وبلخ قد نقضوا الصلح ، فسار قيس إلى بلخ فخرّب معبدها ، وعاد أهلها يطلبون الصلح فوافق عليه قيس ، ولما علم أهل بدغيس وهراة بما نزل بأهل بلخ طلبوا الصلح على الشروط التى نزل عليها أهل بلخ فأجيبوا إلى طلبهم[١] .

وولّى معاوية أيضاً زياد بن أبيه بلاد العراق ، ومن بعد زياد تولى ابنه عبيد الله فكان لهما قيادة الجبهة وفى عهد عبيد الله وصل المسلمون فى غاراتهم إلى بخارى وسمرقند[٢] .

وتوقفت الغارات على هذه البلاد بعد معاوية بسبب كثرة الثورات فى العالم الإسلامى ، ولما أُخمدت هذه الثورات ودب النشاط فى الجهات الحربية كلها دب النشاط فى هــذه الجبهة أيضاً ، وكانت ولاية العراق وخراسان قد أسندت للحجاج بن يوسف فأعد القادة للهجوم على هذه المنطقة ، ومن قادته فيها المهلب بن أبى صفرة الذى كانت له غارات ناجحة على هذه البلاد حتى فقئت فيها عينه[٣] . وتولى بعده ابنه يزيد بن المهلب الذى فتح قلعة نِيزَك بباذغيس سنة ٨٤ هـ[٤] وفى العام التالى عزل الحجاج يزيد وولى أخاه المفضل ففتح باذغيس وشومان[٥] .

وهبت ثورة ابن الأشعث فشغلت الحجاج حيناً فلما انتهى منها عاد لهذه المنطقة بزحف أكثر نظاماً ونجاحاً وكان الزحف هذه المرة على يد القائد الشهير قتيبة بن مسلم .

ولم تكن حروب قتيبة بن مسلم غارات كتلك الغارات التى كانت

---

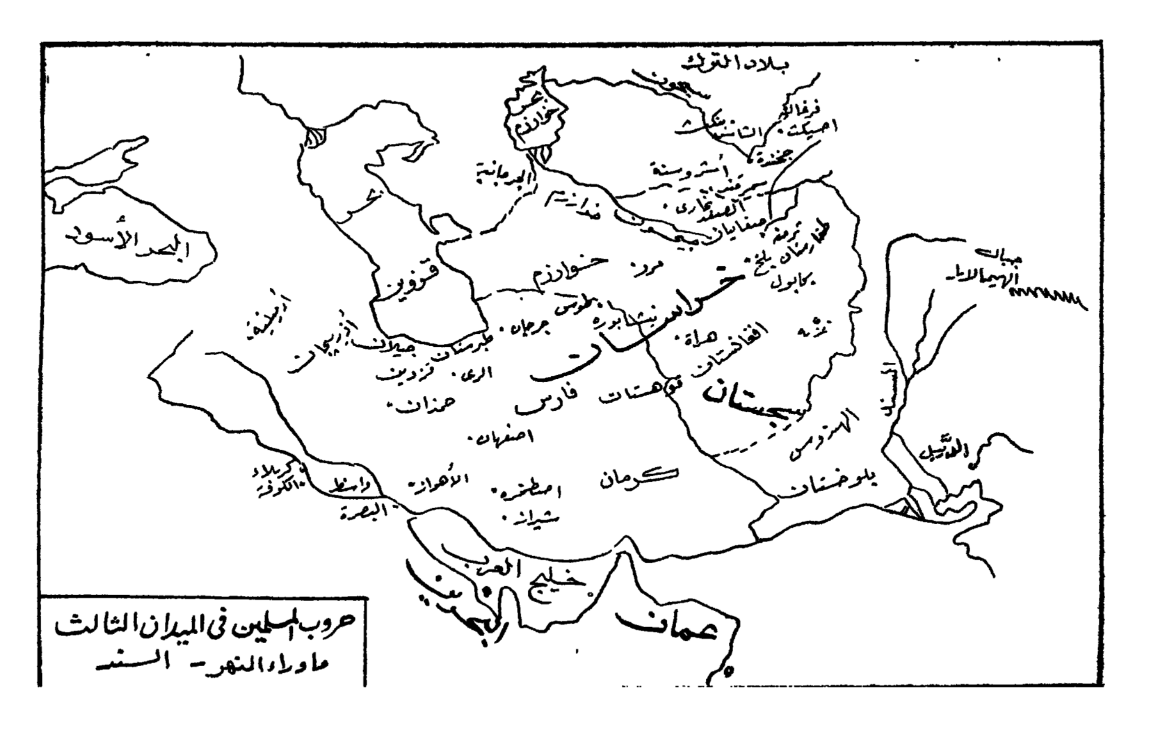
(١) البلاذرى ص ٣٩٩ — ٤٠٠

(٢) الطبرى حـ ٤ ص ٢٢١ والبلاذرى ص ٤٠١

Gibb : The Arab Conquests in Central Asia p. 16.

(٣) انظر ترجمة المهلب فى وفيات الأعيان (٤) الطبرى جـ ٥ ص ١٨٦

(٥) المرجع السابق ص ١٩٤



حروب المسلمين فى الميدان الثالث
ما وراء النهر – السند

طابع الحملات التى سبقت قتيبة فى هذه الجبهة ، بل كانت فتحاً منظما ثابتا ، وقد بدأت حملات قتيبة فى أوائل عهد الوليد بن عبد الملك واستمرت حتى بدء عهد سليمان كما سبق القول ، وقد استطاع قتيبة فى هذه الفترة أن يمد فتوحاته إلى كل البلاد التى تقع على النهرين أو بينهما تلك التى أوجزنا ذكرها آنفاً[١] ، ولم يكتف قتيبة بالفتح ، بل دعا السكان إلى دخول الإسلام وترك عبادة الأصنام ، فأجابوه بأن لهم أصناماً مَنْ اعتدى عليها أو استخف بها هلك ، وهم لا يستطيعون الاستخفاف بها لذلك ، فدخل قتيبة على الأصنام فأباح حليها لجنده ، وكبَّها على وجوهها بيده ، وحرقها ، ولم يصبه سوء ، وكان ذلك مما سبب دخول كثير من سكان هذه البلاد فى الإسلام[٢] .

ولما انتهى قتيبة من بلاد ما وراء النهر قَرُب من أرض الصين ، فاتجه إليها فاتحاً غازياً ولولا وفاة الوليد وقيام الخلاف بين سليمان وقتيبة لكان من الممكن أن يتغير تاريخ الإسلام فى الصين ، فقد روى الطبرى[٣] أن قتيبة أرسل إلى ملك الصين وفداً برياسة هبيرة بن المُشَمْرَج الكلابى يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو السيف ، فثار ملك الصين وقال لهبيرة : انصرف إلى صاحبك فقل له ينصرف فإنى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلا أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه . فأجابه هبيرة بثقة وقوة : كيف يكون حريصاً من خلَّف الدنيا قادراً عليها وغزاك ؟ وكيف يكون قليل الأصحاب مَن أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه .

وأدرك ملك الصين القوة العاتية التى تكمن خلف هؤلاء ، وعرف

---

(١) انظر بعض تفاصيل هذه الفتوح فى الطبرى ج ٥ ص ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٧ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ واقرأ كذلك البلاذرى ص ٣٩١ و ٤٠٩ — ٤١١

(٢) البلاذرى فتوح البلدان ص ٤١١

(٣) ج ٥ ص ٢٦٩ — ٢٧٠

أن التهديد والثورة لا طائل تحتهما ، فعاد يسأل فى هدوء : وما الذى يرضى صاحبكم ؟ فأجاب هبيرة : إنه حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم (علامة السيطرة عليهم) ويُعطَى الجزية . فقال الملك : إنا نخرجه من يمينه فلا يحنث ؛ نبعث إليه بتراب من أرضنا فيطؤه وببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث له بجزية يرضاها . وهكذا افتدى ملك الصين نفسه وبلاده بالجزية ، وأغلب الظن أن قتيبة ما كان ليقنع بذلك لو لم يتول سليمان بن عبد العزيز الخلافة وكان بين سليمان وقتيبة ما شغل الأخير عن مواصلة جهده فى بلاد الصين الخصبة الواسعة .

وهناك شخصان آخران بذلا جهدا ضخما فى ميدان ما وراء النهر وثبّتا قدم المسلمين فى تلك البقاع وهذان الشخصان هما أسد بن عبد الله القسرى ونصر بن سيار اللذان وَلِيَا خراسان فى عهد هشام بن عبد الملك فقادا حملات ناجحة موفقة فى هذه البلاد .

جبهة السند :

بلاد السند هى البلاد المحيطة بنهر السند (Indus) ممتدة من إيران غربا إلى جبال الهيمالايا فى الشمال الشرقى تاركة شبه القارة الهندية فى جنوبها . وبلاد السند تكوّن جزءاً كبيراً من دولة الباكستان الحالية .

وكانت بلاد السند جزءاً من بلاد الهند قبل الفتح الإسلامى ، وإن كانت الهند فى الحقيقة عدة ممالك بينها القوى والضعيف وكانت عرضة لاعتداءات من الخارج وبخاصة من بلاد الترك وبلاد الصين القريبة من شبه القارة الهندية .

وبلاد الهند كانت معروفة للعرب قبل الإسلام ، وكان العرب وحدهم هم واسطة المقايضات التجارية بين الهند والعالم الخارجى[١] .

---

(١) دكتور أحمد الساداتى . تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ١ : ٥٤

ومنذ فتح المسلمون بلاد فارس تطلعوا إلى ما وراءها فامتدت فتوحاتهم إلى خراسان ثم أسلمتهم خراسان إلى بلاد السند ، وعلى هذا بدأت حملات المسلمين على بلاد السند مبكرة منذ عهد عمر بن الخطاب وكان الذى قام بذلك فى عهد عمر عامله عثمان بن أبى العاصى عامل البحرين وعمان وكان قد أرسل جيشا بحريا ولذلك تعرض للوم عمر الذى كان يكره أن يركب المسلمون البحر ، إذ كتب إليه عمر يقول : يا أخا ثقيف ، حملت دودا على عود وإنى أحلف بالله لئن أصيبوا لآخذن من قومك مثلهم [١] .

وفى عهد على توجه الحارث بن مرة العبدى متطوعا إلى بلاد السند ومعه جيش من المتطوعين وأذن لهم علىٌّ بذلك ، وقد انتصرت الحملة وغنمت كثيرا من الغنائم . وغزا معاوية كذلك هذه البلاد بواسطة قائده الشهير المهلب بن أبى صفرة [٢] .

وجاء عهد الوليد فجاء عهد الفتح المنظم لهذه البلاد الواسعة ، وكانت العراق وفارس وخراسان تحت سلطان الحجاج بن يوسف الثقفى كما قلنا من قبل .

وحدث أن ساءت العلاقات بين المسلمين وبين داهر ملك السند مما استدعى صداماً مسلحاً . أما سبب سوء العلاقات فهو أن الحجاج أرسل سعيد بن أسلم إلى مكران . فخرج إليه معاوية ومحمد بن الحارث العلافى فقتلاه ، إذ كانا من الخارجين على سلطان الأمويين فى هذه الجهات ، وكانا قد لقيا عند داهر ملك السند البرهمى كل ترحيب حين لجآ إليه برجالهما الخمسمائة . وما لبثا حين نصراه فى بعض حروبه أن صارا من أصحاب الحظوة عنده .

---

(١) البلاذرى فتوح البلدان ...

(٢) المرجع السابق ص ٤١

وبلغ الحجاجَ الخبرُ فسأل الخليفة أن يأذن له لمهاجمة السند ملجأ الخارجين على الدولة ، ولكن الخليفة لم يأذن له ، ثم بعد ذلك تعرض قراصنة من دَيْبُل لسفن كانت قادمة من جزيرة الياقوت (سيلان) وفيها بنات وأرامل لتجار من المسلمين وافاهم الأجل هناك ، فأسَرَ القراصنة هؤلاء النساء ، ولما طلب الحجاج من داهر تخليص نساء المسلمين من الأسر لم يستجب له ، وادعى أنه لا يسيطر على لصوص البحر هؤلاء . . . .[١] فكان هذا وسواه باعثاً للحجاج أن يلح على الخليفة ليثأر لهذا العدوان وليؤمن طريق التجارة وحدود البلاد الإسلامية من غارات المعتدين ، ولما استجاب الخليفة لرغبة الحجاج أعدَّ هذا حملة كبيرة لغزو بلاد السند ووضع على رأسها القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفى وهو صهر الحجاج وابن أخيه ، وانقسمت الحملة قسمين سار قسم منها بطريق البحر ، وقاد محمد القسم البرّى ففتح فى طريقه بعض البلاد حتى التقى بسفنه المحملة بالجنود عند ميناء الدَّيبل ، واتجه محمد بجنوده إلى الشمال فخرت له الحصون والبلاد صلحاً أو عنوة ، وأخيراً التقى بملك السند واسمه داهر الذى كان يقود جيشاً كثيفاً واجه به جيش المسلمين ، وقد دارت بينه وبين المسلمين معركة كبيرة فرَّ فيها داهر وانهزم جنده ووقع كثيرون منهم أسرى فى أيدى المسلمين ، وبالقضاء على هذا الجيش أصبح الطريق ممهداً لمحمد بن القاسم ليسيطر على بلاد السند كلها دون كبير عناء حتى وصل إلى كشمير فى شمال السند[٢] . .

وكان مما ساعد المسلمين على تحقيق النصر السريع ما لاقوه من عون من قبيلتى الميد والجات (الزط) السنديتين اللتين انضمتا للجيوش الإسلامية ، ووجَّهتها إلى أيسر الطرق ، وبدلت عوناً واضحاً فى معارك القتال ، وكانت هاتان القبيلتان قد هاجر أكثر أفرادها إلى خارج السند لفرط ما كانوا يعانونه

(١) دكتور احمد الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ١ : ٥٧ — ٥٨

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٢٤ وما بعدها

من سوء معاملة الحكومة البرهمية ، إذ كانوا فى عداء المنبوذين الذين يحرم عليهم امتطاء الدواب أو ارتداء غالى الثياب ، ولم يكن يباح لهم من المهن والحرف إلا أدنؤها .

وأفاد المسلمون من رجال الميد والزط إلى جانب شجاعتهم فى الحرب وشدة جلدهم فيها ، معرفتهم بمسالك السند ودروبها وأحوال أهلها وأساليبهم فى النزال[١] .

أما عن صلة المسلمين بأهل السند بعد فتحها فيحدثنا عنها مؤلف هندى بقوله : وقد أكرم القائد المسلم رؤساء الهادكة من رجال الدين ، وأطلق للناس حرية العبـــادة على أن يوالوا المسلمين ويدفعوا الجزية عن طيب نفس[٢] .

---

(١) دكتور أحمد شلبى : المرجع السابق ص ٥٩

(٢) Prasad : Medieval Muslim Rule in India P 29

الحركات الفكرية والثورية
في عهد الدولة الاموية

امتاز العهد الأموى على قصره بمجموعة من الحركات الفكرية والثورية لم تتأت لسواه ، فهو بهذا كان أخصب العهود فى ثوراته الفكرية وثوراته العسكرية ، وربما يكون من الحق أن نقرر أن هذه الموضوعات لم تدرس حتى الآن دراسة كافية . وسنحاول هنا أن نجلى بقدر الطاقة هذه الحركات الرائعة ، وهى :

حركات الشيعة .

ثورة عبد الله بن الزبير .

حركات الخوارج .

المعتزلة والجبرية والمرجئة .

وفيما يلى الكلام على هذه الموضوعات :

الشيعة

الحديث عن الشيعة فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية يشمل ناحيتين : أولاهما عقائد الشيعة وأفكارهم ، وثانيتهما الحركات التى قام بها الشيعة للاستيلاء على الحكم ، وسنرى أن التطور فى التفكير الشيعى ولد أكثره فى العصر الأموى ، وسنرى كذلك أن الحركات التى قام بها الشيعة للاستيلاء على الحكم فى العهد الأموى كانت أقوى حركات الشيعة وأكثرها جرأة واتصالا حتى أسقطت الدولة الأموية ، تلك التى سقطت باسم الشيعة وجهادهم لإقامة دولة علوية ، ولكن نتيجة الكفاح نالها العباسيون لا العلويون لأسباب سنوضحها عند الحديث عن قيام الدولة العباسية .

لهذا كان الحديث عن الشيعة فى العهد الأموى حديثاً ذا بال ، يلقى كثيراً من الضوء على الأحداث التى حصلت فى العهد الأموى وفيما تلاه من عهود .

والشيعة هم الذين شايعوا علياً رضى الله عنه[1] ، وقد كان لعلى شيعة منذ اللحظات الأولى بعد وفاة الرسول ، ومن هؤلاء جابر بن عبد الله وحذيفة ابن اليمان وسلمان الفارسى وأبو ذر الغفارى وغيرهم ، ولما تم الأمر لأبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة ، وعرف علىّ أن هزيمة الأنصار جاءت بسبب حديث الرسول « الأئمة من قريش » قال على : احتجوا بالشجرة ونسوا الثمرة ، وقد فهم علىّ من احتجاج أبى بكر وعمر بهذا الحديث أن المقصود القرابة . فإذا كانت القرابة من الرسول مرجحاً لنيل الخلافة ، فعلىّ أقرب إلى الرسول من أبى بكر وعمر ، ولكن يبدو أن أبا بكر وعمر كانا يقصدان مكانة قريش وقوتها لا القرابة وحدها ، فقريش أولى بالخلافة

---

(1) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ١٣١

لقوتها ولأنها المطاعة بين العرب ، وقد وضّح أبو بكر قصده ذلك بقوله فى نفس الخطاب الذى ألقاه فى سقيفة بنى ساعدة « ونحن مع ذلك أوسط العرب أنساباً » ووضح عمر هذا الاتجاه أيضاً بقوله « لو دخلت قريش جحر ضب لتبعها العرب »[١] .

على أن سلوك أبى بكر وعمر كان مثالياً فلم يدعا — بأخلاقهما — فرصة لأية أفكار معادية أن تظهر أو تنتشر ، ثم جاء عثمان وجاءت سنوه الأخيرة التى سبق أن أوضحناها عند الحديث عن خلافته . وخلاصة ذلك ضعفه وعمله أشياء لم يسبق للخليفتين قبله أن يعملاها . فبدأت حركات الشيعة تظهر وتقوى ، ثم جاء عبد الله بن سبأ وهو يهودى ادعى دخول الإسلام لا حباً فيه ولكن ليطعنه من الداخل . فذلك أيسر عليه من محاربة الإسلام دون أن يتظاهر بالانتساب إليه .

ووجد عبد الله بن سبأ نفوساً ثائرة على الخليفة تنتقد تصرفاته وتحتج عليها ، ووجد كذلك آخرين يدافعون عن الخليفة ويبررون تصرفاته ، فاتخذ عبد الله جانب المعارضة ، فذلك أدعى لوهن الإسلام والمسلمين . ويمكن القول أنه يُنْسَب إلى عبد الله بن سبأ عملان هامان فى تاريخ الشيعة هما :

١ — كوّن عبدالله من هؤلاء الثائرين جماعة بعد أن كانوا أفراداً متناثرين . وربط هذه الجماعة بحب آل البيت والتشيع لهم ، رغبةً فى اكتساب عطف الجماهير .

٢ — بدأ عبد الله يُدْخِل على تفكير الشيعة ألوانا من الآراء والفلسفات . فلم تعد المسألة مسألة الشجرة والثمرة ، ذلك التفكير البسيط الذى بدأت به الشيعة وعاب به علىّ . وإنما زاد ابن سبأ صوراً من

---

(١) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ج ١ ص

التعقيدات والإبهامات ، وخَلَقَ الروايات وَوَضَعَ الأحاديث ، وبذر بذور الأفكار الضالة التى نُسبت للشيعة فيما بعد ، وتَبِعه فى ذلك كثيرون ممن عاصروه وممن جاءوا بعده وساروا على شاكلته .

وهناك عوامل ساعدت عبد الله بن سبأ فيما قصد إليه ،وهذه العوامل هى :

أولا — فَشَلُ عثمان الذى تحدثنا عنه وبخاصة عند ما يُقَارن عثمان بالخليفتين قبله .

ثانياً — الميل الطبيعىُّ المنبعثُ عن العاطفة لتأييد أقارب الرسول وحبهم والولاء لهم .

ثالثاً — ما عرف عن علىّ من بطولة نادرة فى نشر الإسلام ، ومن علم زاخر وخلق قويم .

رابعاً — الإحساس العام بأنه مضطهد ومُبْعَد عن مكانة الخلافة التى هو بها جدير ، وإذا كان هذا الإحساس لم يظهر قوياً فى عهد أبى بكر وعمر لسِنِّ الشيخين وكفاءتهما النادرة ، فقد ظهر عند اختيار عثمان وتفضيله عَلى علىٍّ ، وكان الشعور العام أن علياً سينالها بعد عمر ، وقد عبَّر علىٌّ نفسُه عن شعوره بأنه مضطهد بقوله لعبد الرحمن بن عوف عقب إعلانه اختيار عثمان « ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون »[١] وجاء فى رواية ابن عبد ربه قولُ على فى حديث الشورى عقب وفاة عمر : فأخذ عبد الرحمن بن عوف مواثيقنا وعهودنا على أن يخلع نفسه وينظر لعامة المسلمين ، فبسط يده إلى عثمان فبايعه . اللهم إن قلتُ إنى لم أجد (أحزن) فقد كذبت[٢] .

خامساً — اتخذ علىٌّ الكوفة عاصمة له إبَّان خلافته ، وأصبحت الكوفة منذ ذلك التاريخ مركز التشيع . والكوفة إحدى مدن العراق حيث الأديان المتعددة والمذاهب المختلفة من زَرَدُشْتية إلى مانوية ومزدكية وغيرها .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٩٧ (٢) عقد الفريد ج ٤ ص ٣٠٣

سادساً ـ سادت فى فارس قبل الإسلام نظرية الحق الإلهى الأوربية (Divine Right) التى تقضى أن الأسر المالكة تجرى فيها دماء إلهية ، وهى بهذا صاحبة الحق فى الحكم ، وعلى الناس أن يسمعوا لها ويطيعوا ، واختيار الملوك من هذه الأسر واجب مقدس « فقد خصهم الله بالسيادة وأيدهم بروح من عنده فهم ظل الله فى أرضه ، أقامهم على مصالح عباده ، وليس للناس قِبَلَهم حقوق وللملوك على الناس السمع والطاعة »[١] ، وقد دخل الفرس الإسلام وهذه النظرية ثابتة فى عقولهم فرأوا لذلك أن أسرة الرسول هى الأحق بالحكم وعلى الناس أن يسمعوا لها ويطيعوا .

سابعاً ـ اندس بين الساخطين الثائرين كثيرون ممن غلبهم الإسلام على أمرهم ، فأرادوا تهديمه والنيل منه ، فتظاهروا بالدخول فيه ليمكنهم ذلك من الثورة على أولى الأمر المسلمين باسم الإسلام ، ومن تهديم قواعد الدين باسم الأحاديث الكاذبة التى وضعوها ، وعلى رأس هؤلاء عبد الله ابن سبأ سالف الذكر وكثيرون قبله حذوا حذوه . ويقول المقريزى[٢] : كان الفرس فى سعة من الملك وعلو اليد ، وكانوا يعدون العرب أقل الأمم خطراً ، فلما زالت دولة الفرس على يد العرب تعاظم لديهم الأمر وتضاعفت المصيبة ، وراموا كيد الإسلام فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع . فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم علىّ ، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى .

ويروى ابن عبد ربه عن الشعبى قوله : الرافضة[٣] يهود هذه الأمة ، يبغضون الإسلام كما يبغض اليهود النصرانية ، ولم يدخلوا الإسلام رغبة ولا

---

(١) أحمد أمين فجر الإسلام ص ١١١

(٢) الخطط ٣٦٢

(٣) الرافضة من الأسماء التى تطلق على الشيعة . قيل إن زيد بن على هو الذى سماهم الرافضة لأنهم رفضوا موازرته ، وقيل سموا الرافضة لأنهم رفضوا أبا بكر وعمر . أما الزيدية فضلوا علياً على سعد ولكنهم تولوا أبا بكر وعمر فسموا الشيعة (العقد الفريد ج ٤ ص ٤٠٢) .

رهبة من الله ، ولكن مقتاً لأهل الإسلام وبغياً عليهم ، وقد أحرقهم على ابن أبي طالب رضى الله عنه بالنار ، ونفاهم إلى البلدان ، ومحنة الرافضة محنة اليهود ، قالت اليهود : لا يكون الملك إلا فى آل داوود ، وقالت الرافضة لا يكون الملك إلا فى آل على بن أبى طالب . وقالت اليهود : لا يكون جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المسيح المنتظر ، وقالت الرافضة لا يكون جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المهدى ، واليهود تستحل دم كل مسلم وكذلك الرافضة ، واليهود حرفوا التوراة وعجز الرافضة عن تحريف نص القرآن فقالوا بالمعنى الباطن وحرفوا معانيه[١] .

ويقول الأستاذ أحمد أمين[٢] . والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد ، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزردشتيه وهندية ، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكة الإسلام ، كل هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت ستاراً يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم ، فاليهودية ظهرت فى التشيع بالقول بالرجعة ، وقال الشيعة : إن النار محرمة على الشيعى إلا قليلا كما قال اليهود « لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات » والنصرانية ظهرت فى التشيع فى قول بعضهم : إن نسبة الإمام إلى الله كنسبة المسيح إليه ، وقالوا إن اللاهوت اتحد بالناسوت فى الإمام ، وإن النبوة والرساله لا تنقطع أبداً ، فمن اتحد به اللاهوت فهو نبى ، وتحت التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح وتجسيم الله والحلول ونحو ذلك من الأقوال التى كانت معروفه عند البراهمة والفلاسفة والمجوس من قبل الإسلام .

تلك هى العوامل التى نقلت التشيع من بساطته إلى التعقيد ، ودفعته أحياناً حتى بَعُدَ عن الإسلام وعن التفكير السليم ، وتلك هى العوامل التى ساعدت

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٠٩ — ٤١٠

(٢) فجر الإسلام ص ٢٧٦ — ٢٧٧

عبد الله بن سبأ ، فأضافت إلى أفكار الشيعة أفكاراً جديدة ، بل أضافت إلى فرق الشيعة فرقاً جديدة ادّعت أنها شيعة وليست فى الحقيقة من الشيعة بل ليست من الإسلام كما سيتضح فيما يلى .

الشيعة ومدعو التشيع :

نقصد بهذه الدراسة أن نضع حدوداً واضحة بعض الوضوح أو كأنه بين الحق والباطل ، ونقصد أن نحاول أن نقوم بدراسة يبدو أنها لم تجد حتى الآن عناية واضحة من الباحثين ، تلك هى أن نفرّق بين الشيعة ومدعى التشيع . وهذا الموضوع فى اعتقادى بالغ الأهمية ، فقد دخل الشيعةَ جماعاتٌ كثيرةٌ كما رأينا آنفاً ليسوا من الشيعة فى شىء بل ليسوا من الإسلام فى شىء ، وأخذوا اسم الشيعة فوضعوه ستاراً ونسجوا خلفه ألواناً من الترهات والأباطيل يقصدون بذلك الكيد للإسلام والمسلمين ، وحَمَلَ الشيعةُ وِزْرَ كل هؤلاء . وأصبح كل هؤلاء يُعَدُّون من الشيعة فى جميع المراجع القديمة والحديثة التى بين أيدينا . ونحن نحتاج إلى غربال دقيق ليعزل الحصا عن القمح فلا يعود الحصا يسمى قمحاً بعد ذلك . نريد أن نقول عن هؤلاء الذين يطلق عليهم « الشيعة الغلاة » ومن شاكلهم أنهم ليسوا شيعة على الإطلاق ، بل ليسوا مسلمين على الإطلاق ، فإذا استطعنا أن نفعل ذلك أخرجنا من الشيعة عشرات من الفرق ادعت أنها شيعة وليست شيعة . ووفَّرْنا على الشهرستانى وابن حزم وأحمد أمين وغيرهم عشرات من الصفحات التى ملئوها بسيرة هؤلاء الفسقة على أنهم من الشيعة وليسوا فى الحقيقة ينتسبون للشيعة من قريب أو من بعيد .

وقد اتضح مما سبق أن كثيرين من أعداء الإسلام ومعتنقى المذاهب والأديان المختلفة دخلوا الشيعة وانتسبوا إلى آل البيت بقصد الكيد للإسلام ، وأدخلوا على مذهب الشيعة كما أشرنا آنفا ألوانا من الضلالات والأكاذيب .

وكان من أهم ما عنى به هؤلاء الدخيلون هو الكلام عن الأئمة فنقلوهم من صفة إلى صفة ، ومن مكانة إلى مكانة أخرى بعيدة المدى ، ويقول دوايت دونلدش[1] إننا لو درسنا حياة الأئمة دراسة دقيقة وافية لانكشفت لنا حقيقة هامة هي أن رجالا لا يزيدون عن مستوى الشخص العادى بشيء، قد رُفِعوا إلى مصاف الخالدين ، لقد كانت حياتهم الحقيقية مجردة عن التمجيد والتقديس ، فأحاطتهم القصص المتأخرة بهالة من الجلال ، وجعلتهم قديسين وأنبياء وآلهة .

والآن نحب أن نوضح موقف الشيعة الحقيقيين وموقف آل البيت من هؤلاء الدخيلين ، والباحث يجد أن الشيعة الحقيقيين وآل البيت وقفوا من مدعى التشيع موقفين متضادين :

الأول : موقف كفاح وجهاد ضد ضلالاتهم . وقد اشترك فى هذا الموقف كثير من أئمة الشيعة ورجالهم ، فكانوا يفنّدون آراءهم ويهاجمون المعتقدات الضالة التى يثيرونها ، وكانوا يقاطعونهم ويَدْعون لمقاطعتهم ، وينزلون بهم أشد العقوبات إن كانت فى أيديهم سلطة ، ولم يدخروا على العموم وسعاً من الكفاح ضدهم إلا قاموا به ؛ ويروى الشهرستانى وابن حزم مجموعة من هذه المواقف نقتطف منها الأمثلة التالية :

على بن أبى طالب وابن سبأ : قال ابن سبأ مرة لعلى بن أبى طالب : أنت أنت . يقصد : أنت الإله . فنفاه علىّ إلى المدائن[2] . وربما يقال إن عقوبة النفى لم تكن كافية ، ولكن يجاب على ذلك أنّ فسق ابن سبأ لم يكن قد وضح بعد . وأن الجملة التى قالها « أنت أنت » لم تكن ظاهرة الدلالة على المقصود الضال الذى كانت هذه الجملة مبدأه . ولذلك نجد موقف على قوياً بالغ القوة عندما اتضح ذلك المقصود فيما بعـــد ، فيروى ابن

---

(١) عقيدة الشيعة ص ٥٨

(٢) الشهرستانى ج ١ ص ١٥٥

حزم(١) أن قوماً من أصحاب عبد الله بن سبأ أتوا علياً وقالوا له : أنت هو . فقال لهم : ومن هو ؟ فقالوا : أنت الله . فثار علىّ وحكم عليهم بالإعدام حرقاً وأمر بإشعال نار وألقاهم فيها .

محمد بن الحنفية وابنه أبو هاشم مع المختار وعبد الله الكندى : ادعى المختار أنه من رجال محمد بن الحنفية ومن دعاته ، ولما عرف محمد ترهاته وضلالاته تبرأ منه وأعلن ذلك لأصحابه فكان ذلك سبباً فى انفضاض الناس من حول المختار وبالتالى سبباً فى هزيمته وقتله(٢) . وبعد موت محمد بن الحنفية قام مقامه ابنه أبو هاشم ، وبعد وفاة أبي هاشم ادعى عبد الله بن عمرو بن حرب الكندى أنه القائم بالأمر بدله ولكنه انحرف ، فثار عليه أتباع أبي هاشم واعتزلوه(٣) .

الباقر وأبو منصور العجلى : أبو منصور العجلى هو أيضاً من الغلاة ، قال بإمامة الباقر ، ثم أضفى عليه وعلى الأئمة صفات الألوهية ، فتبرأ منه الباقر وطرده(٤) .

جعفر الصادق ومدعو التشيع : جعفر الصادق من أعظم أئمة الشيعة قدراً وأعلاهم منزلة . وهو ابن الباقر وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق . « وهو ذو علم غزير فى الدين . وأدب كامل فى الحكمة ، وزهد بالغ فى الدنيا ، وورع تام عن الشهوات . . . . ما تعرض للإمامة قط . ولا نازع أحداً فى الخلافة قط ، ومن غرق فى بحر المعرفة لم يطمع فى شط ، ومن تعلّى إلى ذروة الحقيقة لم يخفْ من حط . ومن أنس بالله توحّش عن الناس . ومن استأنس بغير الله نهبه الوسواس(٥) . . . »

---

(١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ ٤ ص ١٨٦

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ١٣٢ ومقدمة ابن خلدون ص ٦٥

(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ١٣٥ (٤) المرجع السابق ص ١٥١

(٥) المرجع السابق ص ١٤١

ورجل كهذا لم تغرّه الدنيا ولم يسع لها ، ولم يقبل فى الدين تمويها ولا ستر ضلالا ، ولذلك نجد الشهرستانى بعد أن عدّد كثيراً من فرق الغلاة يقول « وتبرّأ من هؤلاء كلهم جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه ، وطردهم ، ولعنهم ، فإن القوم كلهم حيارى ضالون جاهلون بحال الأئمة تائهون »(١) .

ومن هؤلاء الذين طردهم جعفر ولعنهم أبو الجارود(٢) وأبو الخطاب الذى يقول عنه الشهرستانى(٣) « إن الصادق لما وقف على غلوه الباطل فى حقه تبرأ منه ولعنه ، وأمر أصحابه بالبراءة منه وشدد القول فى ذلك ، وبالغ فى التبرى منه واللعن عليه » .

الشيعة وأحمد بن الكيال : ادعى أحمد بن الكيال أنه يدعو لواحد من أهل البيت بعد جعفر الصادق لعله من الأئمة المستورين كما يقول الشهرستانى . وكان له أتباع من الشيعة ، ولكن هؤلاء رأوا ابن الكيال مبتدعاً ضالا . فلما وقفوا على بدعته تبرءوا منـــه ولعنوه ، وأمروا شيعتهم بمنابذته وترك مخالطته(٤) .

ذلك هو موقف أئمة الشيعة وجمهور أتباعهم من هؤلاء الكفرةِ الذين تستروا خلف اسم الشيعة . موقفٌ حازم ، موقفُ طردٍ وإبعاد وعزل وإفناء أحياناً . فبأى حق نستمر فى عدّنا هؤلاء الكفرة المضلين فرقاً من الشيعة ؟

الثانى : أما الموقف الثانى الذى وقفه الشيعة الحقيقيون وأئمتهم من مدعى التسيع فهو كما قلنا آنفاً مناقض للموقف الأول ، فقد انساق بعض آل البيت

---

(١) الملل والنحل ج ١ ص ١٦٠ ومقدمة ابن خلدون ص ١٦٥

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٤٣

(٣) المرجع السابق ص ١٥٩

(٤) المرجع السابق ص ١٦٠ — ١٦١

تحت تأثير ما إلى أن يصبحوا فى عداد الضالين الذين أفسدوا التشيع ومن هؤلاء عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب الذى قال بالتناسخ وادعى الألوهية والنبوة وأنه يعلم الغيب[١]، ومنهم الحسن بن الصباح صاحب قلعة ألموت الذى ظهر سنة ٤٨٣ وهو من نسل على بن أبى طالب[٢] وكان زعيم فريق الحشاشين السفاكين الذى استحلوا الحرمات وعبثوا فى شئون الدين ، ولكن من الحق أن نقرر أن هؤلاء قايلون جداً أو بعيدو الصلة عن الأئمة المعروفين .

ولكن الخطر على الشيعة جاء من طريق آخر ، ذلك هو أنهم فى بعض الأحيان باسم السياسة ورغبة فى الانتصار على أعدائهم تغاضوا عن الغلاة حتى ينتفعوا بهم وبجهودهم فى نضالهم لإسقاط العدو المشترك وهو دولة بنى أمية ، وذلك التغاضى هو الذى سبب نوعاً من الاندماج بين الأفكار الضالة والأفكار الصحيحة ، وهو الذى أتاح الفرصة لهؤلاء الغلاة ليكسبوا أنصاراً من بين الشيعة الذين يعملون معهم خاصة ، ومن بين المسلمين على وجه العموم ، وللأسف تلقى بعض هؤلاء الشيعة مبادئ مدعى التشيع على أنها مبادئ شيعية حقيقية ، ودانوا بها وتحمسوا لها ، وأورثوها من جاء بعدهم ، فلم يعرف هؤلاء المتأخرون تلك الأباطيل التى عرفها من قبل أسلافهم وتبرءوا منها .

وهناك طريق ثان طويل جاء منه أعظم الخطر على الشيعة ، ذلك هو طريق الوضع والافتراء ، فقد كان مدعو الشيعة فى غاية الذكاء والفطنة والمثابرة فوضعوا من الأحاديث والروايات ما يؤيدون به مذهبهم ، واستطاعوا بحسن سبك الأحاديث أن يدفعوا بعضها لتأخذ مكانها فى كتب الحديث الشهيرة ، ولكنهم بالإضافة إلى هذا دوّنوا كتب الحديث الخاصة بهم ووضعوا المبادئ التى تيسر عليهم عملهم فلم يقبلوا إلا الأحاديث التى

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٣٥
(٢) ضحى الإسلام ح ٣ ص ٢٢٥

تُرْوَى عن الشيعة ، واكتفوا فى السند بذكر سلسلة الرواة حتى أحد الأئمة ولم يهتموا بذكر السند بين الإمام والرسول لأن عصمة الإمام كافية لإيضاح أن الحديث المروى عنه صحيح[1] .

وقد بدأ مدعو الشيعة وضع الأحاديث والروايات منذ عهدهم الباكر ، فوضعوا عن الرسول أحاديث لا حصر لها منها حديث قصة غدير خم ، وأحاديث عصمة الأئمة وأفضالهم ، ووضع ابن سبأ وأعوانه كتباً ثلاثة كانت سبب الفتنة التى قتل فيها عثمان وأشعلت ناراً التهمت آلاف الأنفس من المسلمين ، وعن وضع هذه الكتب يقول ابن عبد ربه[2] إن قواد الثورة التى هبت فى وجه عثمان جاءوا إلى علىّ بن أبى طالب فقالوا له : قم معنا إلى هذا الرجل . قال : لا والله لا أقوم معكم . قالوا : فلِمَ كتبتَ إلينا ؟ قال : والله ما كتبت إليكم كتاباً قط . فنظر القوم بعضهم إلى بعض وخرج علىّ من المدينة . واستنكرت عائشة قتل عثمان فقال لها مروان : هذا عملكِ ، كتبتِ للناس تأمرينهم بالخروج عليه . فقالت : والذى آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسواد فى بياض حتى جلست فى مجلسى هذا . فكانوا يرون أنه كُتِبَ على لسان علىّ وعلى لسان عائشة كما كُتب على لسان عثمان إلى عامل مصر ، فكان اختلاق هذه الكتب الثلاثة سبباً فى الفتنة .

واستمر الوضع بعد ذلك على لسان الأئمة ، ولنأخذ إماماً واحداً كنموذج للأئمة الآخرين ، ذلك هو جعفر الصادق الإمام العالم الورع العظيم ، الإمام الذى حارب مدعى التشيع وتبرأ منهم كما مرَّ ولكنهم لم يتركوه ، بل جعلوه – عن طريق ما وضعوه باسمه – من أنصارهم وقادتهم ونسبوا إليه أشياء تعتبر أسساً من أسس مذهب مدعى التشيع الذين تبرأ منهم جعفر وطردهم ، ومن ذلك أنهم نسبوا إليه أنه القائل :

---

(١) عقيدة الشيعة ص ٢٨٦ (٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٩٢ – ٢٩٣

« من أذاع لنا سراً ووصلنا بجبال من ذهب لم يزدد منا إلا بُعدا » .

« التقية دينى ودين آبائى وأجدادى ومن لا تقية له لا دين له » .

« من أطاعنا فقد أطاع الله ، ومن عصانا فقد عصى الله ، فنحن أبواب الله وحجبه وأمناؤه على خلقه ، وحفظة مكنون سره ، والآخنون عهده وميثاقه[١] (فى الأصل والآخذين وجعفر الصادق أبعد ما يكون عن مثل هذا الخطأ النحوى الواضح فقد كان من أساطين اللغة والفقه) .

وإن الإنسان ليستعرض ألوانا من الأقوال نسبت إلى جعفر فيجدها متضاربة تضاربا واضحا ويحكم بلا شك بأن بعضها على الأقل موضوع مختلق . ولكن الذين يدققون — وبخاصة من الجماهير — قليلون ، ويقول الشهرستانى[٢] « إن جعفر تبرأ عما كان ينسبه إليه بعض الغلاة وبرئ منهم ولعنهم ، وبرئ من خصائص مذاهب الرافضة وحماقاتهم من القول بالغيبة والرجعة ...... لكن الشيعة بعده افترقوا . وانتحل كل واحد منهم مذهبا ، وأراد أن يروّجه على أصحابه ، فنسبه إلى جعفر وربطه به والسيد برئ من ذلك » فبينما يبرأ جعفر من القول بالغيبة والرجعة يقول الناووسية وهم من فرق الإمامية : إن الصادق حى ولن يموت حتى يظهر ، فيظهر أمره . ويروون عنه أنه قال : لو رأيتم رأسى يُدَهْدَه عليكم (يدحرج) من الجبل فلا تصدقوا ، فإنى صاحبكم صاحب السيف[٣] .

ومن التناقض الظاهر الذى رواه عنه مدعو الشيعة أن الأفطحية (إحدى فرق الإمامية) قالت بانتقال الإمامة من جعفر إلى ابنه عبد الله الأفطح . ورووا عنه فى ذلك أقوالا تؤيّد هذا الزعم . وقد أورد الشهرستانى هذه الأقول فارجع لها[٤] ، ولكن الإسماعيلية يرون أن الإمام بعد جعفر هو ابنه

---

(١) عارف تامر . أربع رسائل اسماعيلية ص ٥٦ — ٥٧

(٢) الملل والنحل ح ١ ص ١٤٧ (٣) المرجع السابق ص ١٤٨

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة

إسماعيل ويروون عن جعفر كذلك ما يؤيد ذلك[١] ، بيد أن جمهور الإمامية يرون أن الإمام بعد جعفر هو ابنه موسى الكاظم ويروون عن جعفر أيضا ما يؤيد ذلك[٢] . ليت شعرى أى الأقوال قالها جعفر وأى الأئمة عيّن بعده إن كان قد عيّن ؟

ومرّ الزمن وطال عمر الاضطهادات التى نزلت بالشيعة ، فقد عانى الشيعة من العباسيين أكثر مما عانوا من الأمويين ، وفى خلال هذه الاضطهادات كانت الفرصة سانحة لأفكار مدعى التشيع لتنساب وتمتزج بأفكار الشيعة ، وبعد بضعة أجيال كان من العسير أن نميز بين الموضوع من الأحاديث والروايات وبين الصحيح منها . وفجأة حدث حادث ذو بال ثبّت إلى حد كبير مبادئ مدعى التشيع وأتاح الفرصة لضم الأحاديث والروايات الموضوعة وتدوين كتاب أو كتب منها ، ذلك الحادث هو استبداد البويهيين بالسلطة (٣٣٤ – ٤٤٧ هـ) فقد كانوا أول أسرة مالكة ممالئة للشيعة ، وقد رأى البويهيون كيف أن الأمويين حينما كانت السلطة فى أيديهم أجبروا بعض المحدثين على رواية أحاديث موضوعة كما يقول الزهرى[٣] وكيف أنهم وضعوا الأحاديث فى فضل بيت المقدس وفضل عثمان ، ومنعوا رواية الأحاديث التى بها مدح للعلويين[٤] ، ورأى البويهيون كيف أن العباسيين جهدوا لتوجيه الأحاديث والروايات للحط من قدر الأمويين وإعلاء شأن آل البيت . فما يمنع إذاً البويهيين أن يستعملوا نفس السلاح لإعلاء شأن التشيع الذى يدينون به ؟

ووجد البويهيون من علماء الشيعة من يحقق لهم هذه الرغبة وفى قمة هؤلاء محمد بن يعقوب الكلينى (٣٢٩ هـ) ومحمد بن على بن الحسين بن بابويه المعروف بالقمى (٣٨١ هـ) ومحمد بن الحسن الطوسى (٤٦٠ هـ)

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٤٩ (٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) Guillaume : The Traditions of Islam P 50

(٤) المرجع السابق ص ٤٧

وكتاب الكافى للكلينى من أعظم الكتب التى يعتمد عليها الشيعة ، وهو عندهم كالبخارى عند أهل السنة ، وهو ينقسم إلى قسمين يعرف الأول بأصول الكافى ويعرف الثانى بفروع الكافى وبه ١٦٠٠٠ حديث ، أما القمى فكان يقول عن نفسه إنه ولد بِدُعاء صاحب الزمان[١] ، فإن أباه لم يرزق بولد حتى تقدمت سنه ، ثم طلب ذلك الأب من ثالثِ وكلاء الإمام الغائب أن يسأل صاحب الزمان أن يدعو الله أن يرزقه ولدا ، ففعل النائب ودعا صاحبُ الزمان واستجاب الله !!! وعاش الطوسى بعد زوال ملك البويهيين ولذلك أحرقت كتبه ورسائله أو أكثرها .

ولنعد إلى الكلينى لنقتبس من كتابه الكافى بعض ما ورد فيه مما تعتبره من أقوال مدعى التشيع وليس من التشيع فى شىء .

١ ــ روى الكلينى عن ضرورة الإمام أن الباقر قال : إنما يعبد الله من عرف الله ، ومعرفة الله هى تصديق الله عز وجلّ وتصديق رسوله وموالاة على والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام ، والبراءة إلى الله عز وجل من عدوهم . وإنّ من أصبح بلا إمام أصبح ضالا تائها وإنْ مات على هذه الحال مات ميتة كفر[٢] .

٢ ــ وعن الإمام والوحى يروى الكلينى عن على الرضا أيضاً أن الإمام يُوحَى إليه ويسمع الكلام ولكنه لا يرى من يكلمه[٣] .

٣ ــ وعن مكانة الأئمة يروى الكلينى عن الرضا أيضاً قوله : إن الإمامة هى منزلة الأنبياء والإمام مطهر من الذنوب مبرأ من العيوب ، وعن الباقر أن الأئمة إذا شاءوا أن يعلموا شيئاً علمهم الله إياه وهم يعلمون متى يموتون ولا يموتون إلا باختيارهم وأنه لا يخفى عليهم شىء[٤] .

---

(١) صاحب الزمان هو لقب الإمام عند الإسماعيلية ، ويفهم من هذا اللقب أن الإمام مدبر الكون وصاحب السيطرة عليه .

(٢) الكافى ص ٨٤ ، ٨٦ (٣) المرجع السابق ص ٨٢

(٤) المرجع السابق ص ٩٠ ، ١٢٦

٤ — ومن التفاسير المروية عن الأئمة ما رواه الكليني أن الباقر فسَّر قوله تعالى « من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ، ومن جاء بالسيئة فكُبَّتْ وجوههم فى النار[١] » أن الحسنة معرفةُ الإمام وحبُّ أهل البيت ، والسيئة إنكار الإمام وبغض آل البيت[٢] ، وأن جعفر الصادق قال : إن أعمال الناس تعرض على الأئمة بدليل قوله تعالى « فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » فالمقصود بالمؤمنين الأئمة[٣] .

٥ — ويروى الكليني أن جعفر الصادق قال إن عند الأئمة مصحف فاطمة وفيه مثل قرآننا ثلاث مرات ، وليس فيه من قرآننا حرف واحد[٤] .

٦ — ويروى الكليني عن الرضا قوله « الناس عبيد لنا فى الطاعة موالٍ لنا فى الدين[٥] » .

فإذا تركنا الكايني وذهبنا إلى الشهرستاني وجدنا العجب العجاب ، وجدنا الشيعة يكفّرون الصحابة جميعاً لخذلانهم علياً واختيارهم غيره ، ويكفرون المؤمنين جميعاً أو يحكمون بفسقهم لنفس السبب ، أما تكفير عائشة وعثمان وطلحة والزبير ومعاوية . . . فأيسر ما قالوا به ؛ والعجيب أن بعضهم يطعن علياً نفسه لأنه ترك طلب حقه وكان عليه أن يخرج ويظهر الحق ، ولم يعذره فى القعود[٦] .

وبعضهم يفضل علياً على محمد ، وبعضهم يجعل علياً إلهاً وهو الذى أرسل محمداً ، بل إن بعضهم ألّه جعفرا الصادق وجلس لعبادته بكناسة الكوفة ، وزاد بعضهم فجعل الأئمة كلهم آلهة يظهر الله بصورتهم وينطق بلسانهم ويأخذ بأيديهم ويطلقون عليهم آلهة لذلك[٧] ، وأغلب هذه الآراء تروى على أنها

---

(١) النمل ٩٠ (٢) الكافى ص ٨٧
(٣) المرجع السابق ص ٩٩ (٤) المرجع السابق ص ١١٥
(٥) المرجع السابق ٨٨
(٦) انظر الشهرستانى ص ١٤١ ، ١٠٦ ، ١٥٦
(٧) الملل والنحل ج ١ ص ١٥٠ ، ١٣٠ ، ١٦١

من أقوال الأئمة ومن تعليمهم ، ولكن الشهرستانى لم يدع رواية ضالة إلا انتقدها وانتقد نسبتها إلى من تنسب إليه .

وننتقل خطوة أخرى إلى مرجع شيعى هام اشتهر بذكر معجزات الأئمة، وذلك هوكتاب « خلاصة الأخبار » من تأليف السيد محمد مهدى ، وقد نسب هذا الكتاب إلى الأئمة معجزات أكثر مما نسب إلى الرسل ، معجزات لم يعرفها عصر الأئمة قط ، ولكن الوضّاع خلقوها ، والرواة نقلوها ، ثم وجدت المؤلفين الذين يدوّنونها على أنها حقائق مسلم بها ، وفيما يلى بعضٌ من هذه المعجزات :

سأل رجلٌ محمدًا الباقر يوما : هل وَرِث النبي صلى الله عليه وسلم علم جميع الأنبياء ؟ فأجاب الباقر : نعم . فسأل الرجل سؤالا آخر : هل ورثتها أنت عن النبي ؟ فأجاب : نعم . فقال الرجل : هل تقدر أن تحيي الموتى وتبرئ الأعمى ؟ فقال : نعم بإذن الله ، ومسح بيده على عين الرجل وكان أعمى فأبصر .

ورأى موسى الكاظم (وفى روايه أخرى جعفر الصادق) امرأة وابنها تبكيان ، فقال للمرأة : ما يبكيك أنت وابنتك ؟ فأجابت : كنت وصبيتى نعيش من هذه البقرة وقد ماتت فتحيرتُ فى أمرى . فوضع أصبعه السريعة على البقرة فقامت مسرعة سوية .

ويذكرون أن يحيي بن أكثم القاضى سأل محمد التقى مسائل كثيرة قبل أن يعترف بإمامته ، وفى ختام هذه المسائل قال له : مَنْ الامام ؟ فأجاب محمد التقى : أنا . قال يحيي : وما برهانك ؟ فتكلمت عصا محمد التقى وقالت : إن صاحبى هذا هو إمام العصر وحجة الله[1] .

هذه نماذج مما كتبه كُتّابُ الشيعة كالكلينى ومحمد المهدى وغيرهما أو مما

---

(١) خلاصة الاخبار الفصلان ٣٥ و ٣٧

رواه رُواةُ الشيعة ونقله عنهم كثير من الكُتّاب والمؤلفين ، ناقدين أو غير ناقدين ، واعتقادى الجازم أنّ هذه الروايات كلها محض اختلاق ؛ وتلفيق ، فما كان الباقر فى علمه وفضله وقرب عهده بالصدر الإسلامى أن يسمح لأتباعه أن يكفّروا الناس ويكفّروا أبا بكر مع أن زوجة الباقر هى حفيدة أبى بكر ، ولا كان جعفر الصادق يقبل مثل ذلك فى جدّه ، وأى عقل يستطيع أن يصدق ما نسب للصادق عن أسطورة قرآن فاطمة ؟ وكيف استطاع الرضا وهو معاصر للمأمون أن يقول ما نسبه إليه الكلينى ؛ ولو قد قال ذلك ما غفره له المأمون ، ذلك الخليفة العالم الذى لم يستطع أن يغفر لابن حنبل عدم موافقته على القول بخلق القرآن . ويستطيع كل إنسان أن يصرخ فى وجه الكلينى بأن الناس ليسوا عبيداً لآل البيت وأن المؤمنين إخوة ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . أما خرافة التأليه والتكفير والمعجزات فأوهى من أن نردّ عليها وأنْ ننكر نسبتها إلى الأئمة الأفاضل .

بقى شىء خطير يوضح لنا كيف تتسرب أفكار قوم وتمتزج بأفكار الآخرين . ذلك هو أن أفكار مُدّعى التشيع لم تتسرب فقط إلى أفكار الشيعة ، بل تسربت أحياناً إلى أفكار أهل السنة وامتزجت بها . كعصمة الأنبياء التى لم يكن يعرفها الصدر الأول للإسلام فى غير التبليغ . فلما نَسَبَ مُدّعو التشيع العصمة المطلقة للأئمة ، واضطروا لذلك أن ينسبوها للأنبياء ، تسربت إلى أهل السنة ووجدت منهم من يعتنق هذه الفكرة ويدافع عنها[1] .

بقى طريق ثالث يحتمل أن يكون من الطرق التى سببت التزيد فى مذهب الشيعة ، وأتاحت الفرصة لمدعى التشيع أن يُدْخِلوا أفكارهم ويمزجوها بأفكار الشيعة ، وهذا الطريق هو نشر الكتب ، فإذا أحسنّا الظن بالكلينى وغيره وقلنا إنه لا يحتمل أن يصدر عنهم مثل هذه الخرافات والضلالات ، فإن يدا أخرى يحتمل أن تكون قد عبثت بمؤلفات هؤلاء

---

(١) عقيدة السنة ص ٣٢٩ — ٣٣٠

الكتاب فأضافت عليها قبل نشرها ما ليس منها ، وليست هذه اليد إلا يد مدعى التشيع الذين لم يخل منهم زمان النشر وربما لايزال بعضهم يكافح حتى الآن .

وطريق رابع طرقه مدعو التشيع لينشروا أفكارهم عن طريق العلماء ، ذلك هو طريق الرشوة لهؤلاء العلماء حتى يقولوا غير ما يعتقدون . حكى الشعبي قال : لو أردت أن يعطونى رقابهم عبيدا وأن يملئوا بيتى ذهبا على أن أكذب لهم على علىّ كذبة واحدة لقبلوا ، ولكنى والله لا أكذب عليه أبدا(١) .

فإذا تأبّى العلماء على مدعى التشيع ولم يخضعوا لإغراء المال والجاه . فإن مدعى التشيع يسلكون طريقا آخر ينسبون به ما يشاءون من الأفكار إلى من يشاءون من العلماء . فقدكانوا يُسمّون بعض أتباعهم بأسماء مشاهير العلماء كالسُّدّى وابن قتيبة ، ثم ينقلون عن هؤلاء ، موهمين الناس أنهم ينقلون عن السدى وابن قتيبة المعروفين(٢) .

وعندنا نموذج للوضع والتحريف يبدو من مقارنة كتاب الكافى سالف الذكر بكتاب المجموع الذى هو عند الزيدية كالكافى عند الإمامية . فإن ما روى فى المجموع عن زيد عن أبيه على زين العابدين عن الحسين عن علىّ بن أبى طالب يخالف ماروى فى الكافى عن الباقر عن أبيه على زين العابدين عن الحسين عن على بن أبى طالب . ويعلل الزيدية ذلك بأن الرواة عن زيد هو عدول الزيدية الذين لا يطعن عليهم ، والرواة عن الباقر لم تثبت عدالتهم(٣) ، فالمروىّ عنهم هم هم لم يتغيروا (على زين العابدين فالحسين فعلى بن أبى طالب) ولكن المروىّ هنا غير المروى هناك فى موضوع واحد .

ومقارنة أخرى نثبتها هنا هى مقارنة الكافى سالف الذكر بالمراجع التى دوّنها الدعاة الفاطميون وسيأتى ذكرها ، وهذه المقارنة تُظهر لنا المراجع

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٢ ص ٤٠٩
(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٧٥
(٣) كتاب المجموع ص ١١ وانظر ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٦

الفاطمية أكثر اعتدالا مع أنها صادرة عن الإسماعيلية المعروفين بأنهم أكثر غُلواً من الاثنى عشرية ، وسبب ذلك فيما أعتقد هو كثرة الوضع فى الكافى وعدم الوضع فى المراجع الفاطمية التى حفظت القاهرةُ مخطوطاتها دون تحريف يذكر.

بقى لنا موقف قصير نعرض فيه لرأى أستاذنا المرحوم الأستاذ أحمد أمين فى ذلك الموضوع ، فقد قام رحمه الله بدراسة مذهب الشيعة ، واعتمد فى دراسته على الكلينى سابق الذكر ، وقدم لهذه الدراسة بأنها معتمدة على كتبهم فذلك أنصف لهم[1] . وكان من نتيجة اعتماد الأستاذ أحمد أمين على كتاب الكافى ويقينه أنه نتاج شيعى أنْ كانت دراسته لمذهب الشيعة مملوءة بالهجوم عليهم ونقد هذه الأفكار دون هوادة بل بسخط وقسوة[2] . واعتقادى أن كتاب الكافى لا يمثل مذهب الشيعة بقدر ما يمثل أفكار مدعى التشيع والوضَّاع والضللة ، وأنه لا يصلح أساسا لدراسة مذهب الشيعة الحقيقى . ويوم نسلم بهذا يكون من اللازم أن تسير دراسة الشيعة على غير النحو الذى سلكه الأستاذ أحمد أمين .

والخلاصة التى نؤمن بها أن الكافى ليس حجة على الشيعة ، وأن من الضرورى أن نحذف من الشيعة تلك الفِرَق التى تكونت لتفسد الإسلام وتمحو حضارته وأفكاره ، فإذا فعلنا ذلك بقيت عندنا جماعات الشيعة الأصلية تلك الجماعات الجديرة بالدراسة والتى تتفق مع غير الشيعة من المسلمين فى كثير من الأسس .

ولسنا ندّعى سلامة الفرق الشيعية الحقيقية من آثار انسابت لهم من أفكار مدعى الشيعة ، بل إننا نعترف اعترافا تاما بأن كل فرق الشيعة أصابها شىء قليل أو كثير من أفكار مدعى التشيع . ولكننا نريد أن نفرق بين التطور الذى حصل قطعا فى التفكير الشيعى وبين الآراء الضَّالَّة التى انصبَّت انصبابا من تفكير آخر ، أو قل نريد أن نفرِّق بين جماعة شيعيَّة

---

(١) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢١٢

(٢) اقرأ فجر الإسلام ص ٢٦٠ - ٢٧٦ وضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٠٨ - ٢١٥

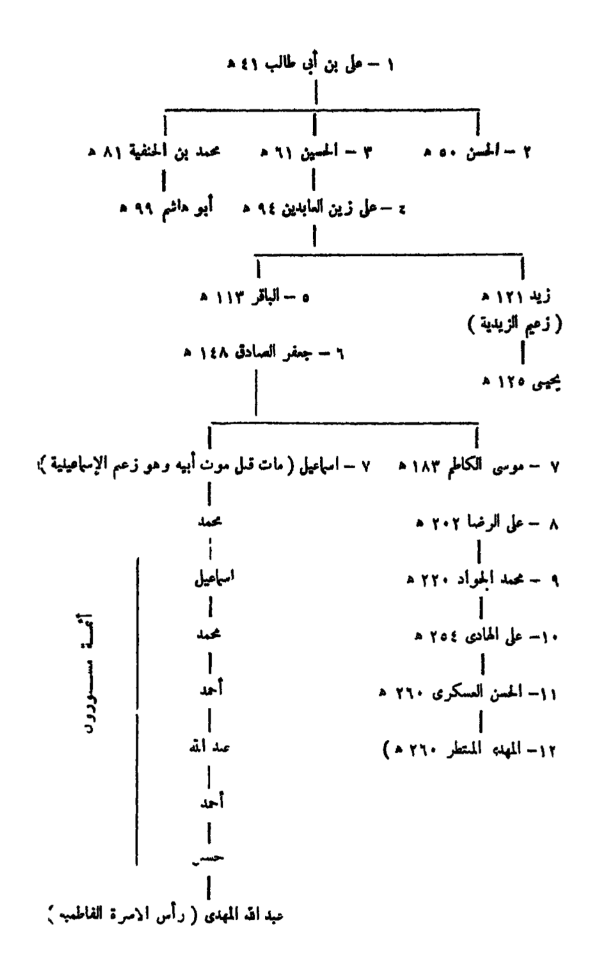
تطوّر مذهبُها لسبب أو لآخر ، وبين جماعة ليست شيعية على الإطلاق،ولكنها أسدلت على نفسها هذا اللقب لاستغلاله ، وللعبث بالإسلام من وراء ستاره ، وأن نحذف من الشيعة هذه الجماعات فهى ليست من الشيعة فى شىء ، بل ليست من الإسلام فى شىء كما قلنا من قبل ، وكيف يُعَدّ من الإسلام ذلك الفريق من الكيسانية الذين قالوا إن الدين طاعة رجل ، وعندما يصل المسلم إلى درجة الطاعة تسقط عنه الصلاة والصوم والزكاة والحج ، والذين أنكروا القيامة وقالوا بالتناسخ والحلول[1] ، وكيف نعد الحارثية مسلمين وقد أباحوا المحرمات وعاشوا دون تكاليف[2] ، وكيف نعد من المسلمين هؤلاء الذين سبق أن تكلمنا عنهم ممّن يكفّرون المسلمين جميعا أو يؤلهون عليا وأولاده إلى غير ذلك من ألوان الخطل والتخريف ، فالذى أثبته بقوة هو أن من يسمون بالشيعة الغلاة ليسوا شيعة على الإطلاق وليسوا مستحقين لهذا الاسم ولا جديرين به ، بل ليسوا مسلمين أيضا ، فانكشف عنهم هذا الغطاء الذى استتروا خلفه زمنا طويلا ، وفى حمايته عبثوا بالتفكير الإسلامى وبثوا سمومهم ، وإذا فعلنا ذلك فإننا — كما قلنا من قبل — نحذف من الشيعة عشرات الفرق نعد ظلما من الشيعة وليسوا شيعة بل هم فى الحقيقة أعداء لآل البيت وأعداء للإسلام .

بقى أن نقرر حقيقة رائعة هى أن المسلمين فى مختلف النواحى أصدروا عمليا على مرّ التاريخ ذلك الحكم الذى حكمناه ، فانفضّوا من حول هذه الفرق التى ادّعت التشيع عندما ظهرت ضلالاتها ، حتى ماتت هذه الفرق ولم يبق لها أتباع قط ، أو لم يبق لها من الأتباع إلا النادر الذى لا يؤبه له ، أما الفرق الشيعية التى استطاعت أن تعيش حتى العهد الحاضر فثلاث : الزيدية والاثناعشرية والإسماعيلية ، وفيما يلى تسلسل هذه الفرق من على بن أبى طالب ، وسنتكلم عنها فيما بعد :

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٣١ — ١٣٢

(٢) المرجع السابق ص ١٣٥


١ – على بن أبى طالب ٤١ هـ
٢ – الحسن ٥٠ هـ
٣ – الحسين ٦١ هـ
محمد بن الحنفية ٨١ هـ
٤ – على زين العابدين ٩٤ هـ
أبو هاشم ٩٩ هـ
زيد ١٢١ هـ
(زعيم الزيدية)
٥ – الباقر ١١٣ هـ
يحيى ١٢٥ هـ
٦ – جعفر الصادق ١٤٨ هـ
٧ – موسى الكاظم ١٨٣ هـ
٧ – اسماعيل (مات قبل موت أبيه وهو زعيم الإسماعيلية)
٨ – على الرضا ٢٠٢ هـ
٩ – محمد الجواد ٢٢٠ هـ
١٠ – على الهادى ٢٥٤ هـ
١١ – الحسن العسكرى ٢٦٠ هـ
١٢ – المهدى المنتظر (٢٦٠ هـ)
محمد
اسماعيل
محمد
أحمد
عبد الله
أحمد
حسن
أئمة مستورون
عبد الله المهدى (رأس الاسرة الفاطمية)

فرق الشيعة وتطور اعتقاداتها :

قلنا إن فرق الشيعة التى استطاعت أن تعيش حتى العهد الحاضر هى الزيدية والاثنا عشرية والاسماعيلية ، وقد تطورت اعتقادات هذه الفرق بسبب اتصالاتها بمدعى التشيع ، وكانت فى تأثرها مختلفةً بعضُها عن البعض ، فالزيدية أقلها تأثرا ، ويجىء بعدها الاثناعشرية فهى بين بين ، أما الاسماعيلية فأكثرها تأثراً وبالتالى أكثرها بعداً عن الشيعة الحقيقية . وسيأتى إيضاح ذلك . والإثناعشرية والاسماعيلية فرعان لفِرْقة الإمامية ، لاهتمامهم بمشكلة الإمامة كما سيأتى ، ومن المناسب أن نذكر هنا أن الشيعة يستعملون كلمة إمام وإمامة فهما أوسع من كلمتى خليفة وخلافة ، والإمام عندهم فى يده أمور الدين وكان يلزم أن تُسند إليه السلطة الزمنية فى المملكة الإسلامية ، لتُجمع له بذلك أمور الدين والدنيا ، ولكن أمور الدنيا غُصبت من الأئمة وشغلها أولئك الذين يُسَمَّوْن خلفاء ، وبقيت أمور الدين فى يد الإمام لم ينازعه فيها أحد ، كما بقى له لقب إمام دون أن يطلق على سواه ، فأصبح الأئمة بذلك هداة روحانيين وشفعاء[١] .

ومع اختلاف فرق الشيعة فى المعتقدات فإنهم جميعاً يتَّفقون على معتقد هام ، هو أفضلية علىّ على جميع الخلق ، ويقول فى ذلك ابن أبى الحديد[٢] « ويقول أصحابنا — وقد سلكوا طريقة مقتصدة — إن علياً أفضل الخلق فى الآخرة . وأعلاهم منزلة فى الجنة ، وأفضل الخلق فى الدنيا ، وأكثرهم خصائص ومزايا ومناقب . . . . والحاصل أنا لم نجعل بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم إلا رتبة النبوة . وأعطيناه كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه » .

---

(١) دوايت دونلدش : عقيدة الشيعة ص ١١٨

(٢) شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٥٢٠

وهذا المبدأ المتفق عليه الذى ذكرناه قبل أن نذكر الفِرَق لأنه مشترك بينها جميعاً ، هو بلا شك أثر من الآثار التى تركها مدعو التشيع فى الشيعة الحقيقية ، فما المقياس الذى وزن به علىّ حتى أصبح أفضل الخلق فى الدنيا والآخرة ؟ حتى إن لم يستثن محمداً إلا فى العبارة الأخيرة ، ومما يدل على تأثر الشيعة بمدّعى التشيع فى هذا المعتقد قول ابن أبى الحديد فى عبارته السابقة « وقد سلكوا طريقة مقتصدة » ماذا بعد ذلك ؟ وهل هناك مقام أرفع من هذا المقام ؟ نعم هناك ، هناك قول العلباثية الذين أشرنا إليهم من قبل والذين يفضلون علياً على محمد وهناك غيرهم ممن يؤلهون علياً وأبناءه ؛ فإذا اكتفى أصحاب ابن أبى الحديد بالقول بأفضلية علىٍّ على جميع البشر فى الدنيا والآخرة فهم فى نظره مقتصدون معتدلون .

وهناك معتقد آخر يتفق عليه الإمامية أى الاثنا عشرية والإسماعيلية . وذلك هو أن الإمامة (وتشمل هنا الخلافة أيضاً) خاصة بعلى ثم بأولاده من فاطمة أى بالحسن فالحسين فأولاد الأخير[1] ، ولا يجوز أن تكون الإمامة (التى تشمل الخلافة كما سبق القول) لغير هؤلاء ، فإذا صارت أمور الناس الدنيوية (الخلافة) لغير هؤلاء فهو سلب وغصب لحق ثابت من على وأولاده، ورضاء الأئمة بذلك إنما هو من باب التقية وسيأتى شرحها .

ولا يوافق الزيدية على هذا المعتقد بل يرون — كما سيأتى تفصيله — جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، فمع أن علياً وأولاده أفضل الخلق إلا أن خلافة غيرهم جائزة .

وبناء على قول الإمامية السابق ليس لأولاد على من غير فاطمة حق فى الإمامة . ومعلوم أن علياً لم يتزوج غير فاطمة فى حياتها، فلما ماتت تزوّج ، ومن زوجاته آنذاك امرأة من بنى حنيفة أنجبت ولداً سُمِّىَ محمداً ، وبناء

---

(١) اما أولاد الحسن فيرى أكثر أولاد الحسين أنهم لا حق لهم فى الإمامه لأن تنازل أبيهم لمعاوية عن الخلافه أضاع حقهم .

على الاعتقاد سالف الذكر ليس لمحمد هذا حق فى الإمامة ، ورغبة من هؤلاء فى إبعاد محمد هذا عن حوزة الإمامة أطلقوا عليه محمد بن الحنفية ، نسبة لأمه حتى كأنهم لا يريدون نسبته إلى على ، ولكن كان لمحمد هذا أتباع وشيعة بعد وفاة الحسين وبخاصة أن على بن الحسين الذى شهد قتل أبيه وقتل ذويه فى كربلاء استكان بعد هذه الحادثة الشنيعة ولم يحرك ساكناً ضد بنى أمية مما حدا ببعض الشيعة أن يتجهوا إلى محمد بن الحنفية وفضلوه على على بن الحسين . وبعد موت محمد بن الحنفية (٨١ هـ) انتقل أمره إلى ابنه أبى هاشم الذى عندما أحس بالموت وهو فى طريقه من دمشق إلى المدينة عرج على الحميمة حيث يقيم على بن عبد الله بن العباس فأعلمه أنه ميت وأوصى إليه وكان فى صحبته جماعه من الشيعة فسلمهم إليه وأوصاه فيهم ثم مات[١] . وبهذا يعتقد العباسيون أنهم ورثوا على بن أبى طالب بالإضافة إلى حقهم بوصفهم ورثة للعباس بن عبد المطلب[٢] .

أما الزيدية والاثنا عشرية والإسماعيليه فينكرون إمامه محمد هذا، ومن ثم لا يعترفون بالفِرَقِ التى تفرعت عن كالكيسانيه (نسبة إلى كيسان مولى محمد بن الحنفية وقيل مولى على بن أبى طالب) والهاشمية والبيانة والرزامية[٣] أما إنكار الاثنا عشرية والإسماعيلية فواضح لأن محمداً ليس من أبناء فاطمة ، وأما إنكار الزيدية لإمامة محمد فلأنه لم يخرج على حاكم العصر مطالباً بإمامته إذ أن ذلك شرط من شروط الإمامة عند الزيدية كما سيأتى .

وفيما عدا هذين المعتقدين تختلف هذه الفرق الثلاثة بعضها عن بعض فى الأسس والمعتقدات ومن ثم لزم أن نتكلم عن كل منها على حدة بإيجاز :

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ . ٢٠١

(٢) تاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للمؤلف حـ ٣ ص ٨

(٣) انظر هذه الفرق فى الملل والنحل للشهرستانى حـ ١ ص ١٣١ – ١٣٧

الزيدية :

الزيدية ينسبون إلى زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنهم ، وقد كان زيد هذا يضع للإمامة شروطا هى أن يكون الإمام فاطمياً عالما زاهداً شجاعا سخيا وأن يخرج مطالبا للإمامة[١] فإن لم يخرج مطالبا للإمامة فليس إماما وجاز تعيين غيره ، وعلى هذا أجاز زيد خلافة أبى بكر وعمر مع وجود علىّ لأن علياً لم يخرج إمدافعا عن حقه مطالباً به ، وبخاصة أنه يرى أن إمامة المفضول جائزة مع وجود الأفضل . ولزيد فى هذا الموضوع كلام دقيق أورده الشهرستانى يجدر بنا أن نقتبسه هنا ، قال :

كان على بن أبى طالب رضى الله عنه أفضل الصحابة ، إلا أن الخلافة فوِّضَتْ إلى أبى بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها[٢] . . . . فإن عهد الحروب التى جرت فى أيام النبوة كان قريباً ، وسيف أمير المؤمنين علىّ من دماء المشركين من قريش وغيرهم لم يجف بعد . والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر كما هى . فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد . فكانت المصلحة أن يكون القائم بهذا الشأن مَنْ عرفوه باللين والتؤدة والتقدم بالسن والسبق فى الإسلام والقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] .

وسعيا للشروط التى اشترطها زيد للإمام ، أراد هو أن يكون عالما . فبدأ يتلقى العلم عن أشياخ عصره . لأنه لم يؤمن بما أشاعه مدعو الشيعة فيما بعد من أن الإمام يُوحَى إليه ويعلمه الله ، ولذلك تتلمذ زيد على

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ١٣٧ - ١٣٨

(٢) فى الأصل وقاعده دينيه راعوها وبدل « فائدة » أحسن

(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ١٣٨

واصل بن عطاء فأخذ عنه كثيراً من مبادئ المعتزلة ، وبدأ زيد يجمع حوله الأنصار ويبث الدعاة ، وأخطأ زيد كما أخطأ أجداده من قبل فاتخذ من الكوفة أنصاراً ولم يسمع لأهله الذين حذروه من الكوفة وأهلها ، وأعلن ثورته ، وبعد فترة انفض من حوله أهل الكوفه كالعادة وقُتل زيد فى معركة ضد يوسف بن عمر والى هشام على العراق سنة ١٢٢ هـ .

وهرب يحيى بن زيد بعد هذه المعركة ، واتجه إلى خراسان فبلخ ، وهناك أعدّ عدته وأعلن الثورة ولكنه لاقى نصيب أبيه فقُتل وحُرق سنة ١٢٥ هـ أيام خلافة الوليد بن يزيد .

وبعد يحيى لم ينتظم أمر الزيدية كما يقول الشهرستانى[١] حتى ظهر ناصر الأطروش فى بلاد الديلم بطبرستان وكانوا لم يدخلوا الإسلام بعد ، فدعاهم ناصر لدخول الإسلام على مذهب الزيدية فاستجابوا وانتشر مذهب الزيدية هناك . ولايزال لهذا المذهب دولة حتى الآن فى اليمن .

والزيدية أقرب المذاهب إلى أهل السنة وأقربهم إلى الشيعة الحقيقيين لأنهم أجازوا خلافة أبى بكر وعمر ولم يطعنوا فيهما ، ولأنهم لم يدّعوا ما ادّعاه الإمامية من أن الإمامة خاصة لأولاد على من فاطمة ، بل أجازوا كونها فى سواهم إذا لم يقم هؤلاء بطلبها . ولأنهم اشترطوا فى الإمام شروطا يوافقهم أهل السنة على أكثرها كالعلم والشجاعة . وكان من نتيجة موقف الزيدية هذا أن ضعف فريقهم لأن الغلاة لم يرضوا عنه . وكان من نتيجته بالتالى أن سلم مذهب الزيدية أكثر من غيره من الغلوّ لأن الغلاة انفضوا عنه فلم يلوّثوه بالوضع الكثير والاختلاق .

وهذه النتائج تحتاج إلى مزيد من الإيضاح : لماذا ضعف مذهب الزيدية ؟ ولماذا سلم أكثر من غيره من الغلو والاختلاق ؟

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٣٥

للإجابة عن ذلك نعود فنتذكر ماسبق أن أوردناه من أن الشيعة كانت الموئل الذى يلجأ إليه أعداء الإسلام .... وتحت ستار الشيعة ظهرت ضلالات وبدع كثيرة ، وكان من نتيجة ذلك أن بعُد عن الشيعة المخلصون للإسلام المحبون له لأنهم لم يريدوا أن ينتموا إلى طائفة تؤله عليا أو تكفر الصحابة .... وهكذا وقف زيد بين بين ، فلم يكن له أتباع من غير الشيعة لأنه شيعى على كل حال ، ولأن المخلصين للإسلام لم يريدوا أن ينتموا لمذهب شيعى إن لم يكن قد فسد فقد يفسد فيما بعد ، ولم يكن للزيدية كذلك أتباع من الغلاة ويفسر لنا الطبرى سبب ذلك فيروى أن رءوس الشيعة اجتمعوا بزيد فقالوا له : ما قولك فى أبى بكر وعمر ؟ قال زيد : رحمهما الله وغفر لهما ، ما سمعت أحداً من أهل بيتى يتبرأ منهما ولا يقول فيهما إلا خيرا .... وإن أشدّ ما أقوله عنهما أنا كنا أحق بساطان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس أجمعين . وأن القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا[1] .... ولم يرق ذلك للغلاة فتركوا زيدا وأدخلوا أنفسهم فى إمامة غيره ، وهكذا قلّ أتباع زيد ؛ إذ لم يكن فيهم الغلاة ولا غير الشيعة ، ولم يبق حوله إلا المعتدلون أو الشيعة الحقيقيون وهم قليلون ، وهذا قلّل أتباع زيد ولكنه حفظ مذهبه من الغُلُوّ .

ومن الأسباب التى أضعفت مذهب الزيدية وحفظته من الغلو أيضاً . أن زيدا اتجه إلى الحرب وخوض غمارها ، والغلاة لم يكونوا محاربين قط ، إنهم يريدون نشر أفكارهم ولا يريدون التضحية بدمائهم ، وكيف يضحون بدمائهم للدفاع عن تشيع لم يعتنقوه وإنما ادعوه ، وهذا يفسر لنا كثيرا من أحداث التاريخ المتصلة بالشيعة : لماذا قالوا بالتقية ؟ لماذا انفض أتباع علىّ عنه ؟ ولماذا انفض أتباع الحسن عنه وهاجوه وسلبوا متاعه ؟

---

(١) تاريخ الأمم والملوك جـ ٥ ص ٩٨ .

ولماذا انفض أتباع الحسين عنه ثم قتلوه ؟ . . . . الإجابة واحدة أن هؤلاء الأتباع لم يكونوا شيعة ولا أنصاراً وإنما ادعوا التشيع لغرض آخر كما ذكرنا ، فهم لا يدينون بولاء ولا حب لآل البيت ، ومن ثم عصوهم وأسلموهم وقتلوهم أحيانا .

وعلم زيد وشجاعته حفظا مذهب الزيدية من الغلو أيضا ، وذلك لأن زيدا يدعو لنفسه وكان يشرح أفكاره ويكتبها فلم يدعْ لدعاة السوء مجالا ولافتح لهم الباب ليعبثوا فى دعوته ويشوهوا آراءه .

على أن مذهب الزيدية دخاله الفساد أحيانا ، يقول الشهرستانى[1] : ومالت الزيدية بعد ذلك عن القول بإمامة المفضول ، وطعنت فى الصحابة طعن الإمامية ، ويقول عند الكلام على الجارودية إحدى فرق الزيدية : « زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على علىٍّ رضى الله عنه بالوصف دون التسمية ، وهو الإمام بعده ، والناس قصّروا حيث لم يتعرفوا الوصف . ولم يطلبوا الموصوف ، وإنما نصبوا أبا بكر باختيارهم ، فكفروا بذلك ، وقد خالف أبو الجارود فى هذه المقالة إمامَهُ زيد بن على ، فإنه لم يعتقد هذا الاعتقاد »[2] .

الاثنا عشرية

الاثنا عشرية أشهر فرق الإمامية وتتبعها إيران من الناحية الرسمية . ويتبعها كذلك أكثر شيعة العراق ، والاثنا عشرية أقوى فرق الشيعة الموجودة الآن وإذا أطلقت كلمة الشيعة فُهِم منها هذه الفرقة . وهذه التسمية توحى بشىء ذى بال هو أن هذه الفرقة تكونت بعد منتصف القرن الثالث الهجرى أى بعد كمال الأئمة اثنى عشر والقول باختفاء محمد المهدى المنتظر سنة ٢٦٠ هـ .

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٤٠ (٢) المرجع السابق ونفس الصفحة

والإمامية أطول فرق الشيعة عمراً وأكثرها قوة ، وقد سُمِّيت هذه الفرق بالإمامية لاهتمامهم بمسألة الإمام والإمامة ، وسيأتى تفصيل ذلك ، والاثنا عشرية أشهر فرق الإمامية وأكثرها أتباعاً ، وقد تعرضت الاثنا عشرية لهجمات الضالين أكثر مما تعرضت الزيدية ، ودخلها من تعاليم مدَّعى التشيع شطر كبير جداً وذلك للأسباب الآتية :

(أولا) طال عمر الاثناعشرية فطال اتصالها بطوائف مدعى التشيع الذين تتابعوا يجمعهم هدف واحد وإن اختلف الزمن . ذلك الهدف هو الكيد للإسلام وإفساد تعاليمه .

(ثانياً) الأئمة الاثنا عشرية كانوا أميل إلى السلم ، والذى يستعرض تاريخ ثورات الشيعة بعد الحسين يجدها لا تتصل تقريباً بهؤلاء الأئمة ، وإنما كان اتصالها بزيد بن على ، وابنه يحيى ، وأولاد الحسن . وغيرهم من آل البيت ، ويبدو أن السنَّة السلمية التى استنَّها على زين العابدين لما رآه من الأهوال عند مقتل أبيه وآل بيته ، قد عاشت فى أولاده فمال أكثرهم إلى حياة الدعة ، وحياةُ السلم هذه هى الحياة المحببة لمدعى التشيع . فهم كما سبق القول لا يحبون إراقة دمائهم لدعوة شيعية لا يؤمنون بها .

(ثالثاً) بدأ الوضع باسم الأئمة منذ العهد الأول كما سبق القول ، واختلط الشيعة بمدعى التشيع وتعاونوا معهم فى بعض الأحيان ، وكانت النتيجة أن انسابت تعاليم مدعى التشيع بين الشيعة ، وبمرور الزمن ظهرت أجيال تلقَّت هذه التعاليم على أنها تعاليم شيعية حقيقيـــة فدانوا بها وتحمسوا لها .

وعلى هذا إذا أردنا أن نكتب الآن مذهب الإمامية الصافى قبل أن تمتد له يد الوضع وقبل أن تدخله تعاليم مدعى التشيع ، لو أردنا ذلك ما استطعنا ، لأن مذهب الإمامية هو هذا ، وضْعٌ أكثره أوكلّه ، فعناصره الهامة ليست شيعية على الإطلاق ، ومرجع هذا أن الإمامة هى المشكلة

الكبرى فى مذهب الإمامية ولذلك سُمِّى بها المذهب ، مع أن هذه المشكلة موضوعة كلها فليست من الإسلام فى شىء وقد أنكرها على رضى الله عنه نفسه ، يروى ابن عبد ربه أن عبد الله ابن الكوّاء سأل علياً عما إذا كان الرسول عهد إليه فأجابه علىّ : اللهم إنى كنت أول من آمن به فلا أكون أول من كذب عليه ، لم يكن عندى فيه عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان عندى فيه عهد منه لما تركت أخا تيم وأخا عدى على منابرها[1] . وقد سبق أن اقتبسنا الشهرستانى وهو يتحدث عن إمام من أعظم الأئمة الاثنى عشرية وهو الإمام جعفر الصادق فيقول : ما تعرض للإمامة قط ولا نازع أحداً فى الخلافة قط[2] وسبق كذلك أن تحدثنا عن الزيدية ، واتجاه زيد نحو الخلافة ، والشروط التى وضعها ، وإقراره بصحة خلافة أبى بكر وعمر . . .[3] .

فإذا قال الإمامية برأى جديد فى الإمامة وشغلوا بها أنفسهم وجعلوها مركز اهتمامهم وتفكيرهم ، فهذا كله من وضع مدعى التشيع ، وقد بدأ ذلك بابن سبأ حيث كان « أول من أظهر القول بالنص بإمامة على[4] » ، وتلاه أتباعه والذين سلكوا مسلكه فنظّموا هذا القول وجمعوا له الأدلة من هنا ومن هناك .

والآن ما موقفنا من الإمامة ؟

الجواب عن ذلك أن من سماهم المتأخرون « الأئمة » لم يقولوا بالإمامة على النسق الذى قال به هؤلاء المتأخرون كما سبق القول ، وكثيراً ما بايعوا سواهم بالخلافة . فأول الأئمة هو على بن أبى طالب ، وقد بايع على أبا بكر وعمر وعثمان ، وبايع الحسن والحسين معاوية ، وبايع على زين العابدين يزيد .

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٠٢ (٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٤٧

(٣) انظر ما سبق [illegible]

(٤) الملل والنحل ج ١ ص ١٥٥

ولم يكن هناك فى زمن هؤلاء حديث عن الإمامة ، فلما مرّ الزمن ودخلت الترّهات والأباطيل هذا المذهب ظهر حديث الإمامة ، فإذا تحدثنا عن الإمامة فإنما نتحدث عن انحراف هذا المذهب الشيعى . انحرافه عن رأى علىّ ورأى الأئمة الأول إلى الوضع السائد الآن .

إلى أىّ حدّ انحرفت هذه الجماعة ؟ وما هو الوضع السائد الآن ؟

الجواب عن ذلك أن الانحراف كان بعيداً جداً . أو قل كان انتقالا لا انحرافاً ، فأساسه الحديث عن الإمامة ولم توجد الإمامة بهذا المعنى فى حديث الأئمة الأول ، أما الوضع الذى خلقه مدعو التشيع فهو مشكلة الإمامة ، وأهم تصوير لها هو ما ذكره المجلسى فى كتابه « حياة القلوب » والمجلسى من العلماء المتأخرين ، عاصر الدولة الصفوية التى اتخذت التشيع مذهبا رسميا لإيران ، وفى كتاب « حياة القلوب » تفاصيل عن الإمامة لا توجد فى سواه ، والكتاب يتألف من بابين : الأول فى ضرورة الإمام والثانى يفسر آيات من القرآن يراها متصلة بالإمامة . وفصول الباب الأول تسعة هى :

١ ــ ضرورة الإمامة وبيان أن الزمان لا يخلو من إمام .

٢ ــ عصمة الأئمة .

٣ ــ الإمامه بنص من الله والرسول ، وكل إمام ينص على خلفه .

٤ ــ ضرورة الاعتراف بالإمام .

٥ ــ إنكار إمام واحد كإنكار الأئمة جميعاً .

٦ ــ ضرورة إطاعة الإمام .

٧ ــ الاهتداء لا يكون إلا بإمام .

٨ ــ الثقلان · القرآن وأهل البيت

٩ ــ فى النص على الأئمة

أما فصول [illegible] الثانى [illegible] وكلها تفسير لآيات يرى المجلسى [illegible] بالإمامة . [illegible] شيعى [illegible] المذهب

أحياناً ، ومن هذا الكتاب ومن سواه من المراجع نستطيع أن نبرز أهم عناصر مذهب الإمامية عن الإمامة ، وهى :

أولا : الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوَّض إلى نظر الأمة ، ويتعين القائم بتعيينهم ، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبىٍّ إغفالها ولا تفويضها إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ، وكل إمام يعين خلفه[1] . وليس فى الدين والإسلام أمر أهم من تعيين الإمام ، فإذا عيَّنه كانت مفارقته للدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة ، فإنه إنما بُعث لرفع الخلاف وتقرير الوفاق ، فلا يجوز أن يفارق الأمة ويتركهم هملا ، يرى كل واحد منهم رأياً ، ويسلك كل واحد منهم طريقاً ، لا يوافقه فى ذلك غيره ، بل يجب أن يعين شخصاً هو المرجوع إليه ، وينصُّ على واحد هو الموثوق به والمعول عليه[2] .

ثانياً : ولما كان واجباً على النبى محمد أن يعين الإمام الذى يقوم بأمر المسلمين بعده فإنه قد فعل ، وعين علياً وكان ذلك نصاً ظاهراً ، وتعييناً صادقاً من غير تعريض بالوصف بل إشارة إليه بالعين ، وقد تم ذلك عند غدير خم ، فإن الرسول عندما وصل إلى هذا المكان فى طريقه إلى المدينة عائداً من حجة الوداع أمر بالدَّوْحات فقمِّمْن وأمر مناديه فنادى : الصلاة جامعة . ثم قال عليه السلام : مَنْ كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأنصر من نصره واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار ، ألا هل بلغت[3] ؟ (قالها ثلاثاً) وقد تم ذلك التعيين بعد أن نزل قوله تعالى « يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٦٤

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ١٤٤

(٣) المرجع السابق ص ١٤٥ وهناك أدلة أخرى [illegible] لهذا الدليل نجدها فى الشهرستانى وابن حزم [illegible] الجزء الأول من مسند أحمد (ص ٨٤ ، ١١٨ ، ١٥٢) وفى عقيدة [illegible] ص ٢٢

فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس[١] » والمأمور بتبليغه على تفسيرهم هو تعيين علىّ ، فلما تمّ التعيين نزل قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً[٢] » وكمال الدين وتمام النعمة بناء على تفسيرهم هو هذا التعيين .

ثالثاً : تنحصر الإمامة فى على وأبنائه من فاطمة ، فهم أهل البيت والدوحة المباركة التى بها رضى الله عن الناس ، وليس لغير هؤلاء حق فى الإمامة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

تلك هى العناصر الأساسية لمذهب الإمامية . وهناك عناصر أخرى ليست أساسية وإنما تكميلية ، تسمى التعاليم وهى : العصمة والتقية والرجعة والمهدية .

ويقصدون بالعصمة أن الأئمة معصومون من ارتكاب الصغائر والكبائر ولا يجوز عليهم خطأ ولا نسيان[٣] . ويقصدون بالتقية أن يظهر الإنسان خلاف ما يضمر ليحافظ على نفسه أو ماله أو عرضه ، أما المهدية والرجعة فبينهما صلة ، ومعنى المهدية هى القول بإمام مهدى منتظر يأتى للأرض فيملؤها عدلا بعد أن تملأ جوراً ، وهذا المهدى هو الإمام الثانى عشر الذى اختفى سنة ٢٦٠ هـ وسيرجع فيما بعد ، وبعضهم يقول برجعة على بن أبى طالب نفسه ، حدث عبد الله بن عباس قال : قرع اليوم علىّ البابَ رجلٌ لما وضعت ثيابى للظهيرة ، فقلت : ما أتى به فى مثل هذا الحين إلا أمر مهم ، أدخلوه . فلما دخل قال : متى يبعث هذا الرجل ؟ قلت : أى رجل ؟ قال : على بن أبى طالب . قلت : لا يبعث حتى يبعث الله من فى القبور . قال : وإنك لتقول بقول هذه الجهلة . قلت : أخرجوه عنى لعنه الله[٤] . وكان كثيِّر عزة يثبت الغيبة والرجعة ويثبت المهدية أيضا لمحمد ابن الحنفية وفى ذلك يقول :

---

(١) المائدة ٧٠ (٢) المائدة ٤

(٣) انظر تفسير [illegible] ص [illegible] وعقيدة السعد ص ٣١٣ وما بعدها .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص [illegible] .

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
علىّ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وســبط غيّبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمه اللواء
تغيّب لا يرى فيهم زمانا ... برضوى عنده عسل وماء

وفى تحفة الزائرين للمجلسى وصف دقيق للصلة بين الإمام الغائب وأتباعه ، فهو يظهر لبعضهم ويكاتب الآخرين ، ويتلقى رقاع أتباعه وينظر فيها . ويذكر المجلسى أن المريد يكتب حاجته فى رقعة ويجعل عنوانها : إلى صاحب الزمان ويقفها ويختمها ويلقيها فى البحر أو فى بئر عميقة فإنها تصل إلى الإمام[١] .

ولسنا فى حاجة للرد على هذه الأسس وتلك التعاليم ، فليست من الإسلام فى شىء . وليست إلا صدى لديانات ومذاهب أخرى غير الإسلام أشرنا إليها فيما سبق[٢] وقد أنكرها جعفر الصادق وبرئ منها وممن يقول بها[٣] .

وقد قلنا من قبل إن تأثر الاثنى عشرية بأفكار مدعى التشيع كان أكثر من تأثر الزيدية ، وأقل من تأثر الإسماعيليه ، وقد اتضح لنا من الكلام عن الاثنى عشرية أنهم كانوا أكثر تأثرا من الزيدية ، فموضوع الإمامة والعصمة والتقية والرجعة والمهدية كلها موضوعات غريبة على التفكير الإسلامى قال بها الاثناعشرية ولم يقل الزيدية بها . وسنرى فيما بعد أن الاثنى عشريه لم يصلوا فى تأثرهم إلى حد تأثر الإسماعيلية ، فسنرى الإسماعيلية يقولون

---

(١) تحفة الزائرين ص ٢٩٦

(٢) نظر ما أوضحناه آنفا فى أول حديثنا عن التشيع وانظر كذلك « آل محمد فى كربلاء » للأستاذ [illegible] الدجيلى ص ٥ — ٦

(٣) [illegible] الملل والنحل — ١ ص ١٠٧

فى البارى : إنا لا نقول إنه موجود أو لا موجود ، ولا عالم ولا جاهل ، كما سنراهم يسقطون العبادات عمن عرف الإمام وأحاط بالتأويل ، وسنراهم يرون الصوم هو الإمساك عن إفشاء سر الإمام وأن الحج هو زيارته ، إلى غير ذلك مما بلغ أقصى الحدود فى التأثر بالأفكار الهدامة .

بقيت كلمة تتصل بالزيدية والاثنى عشرية فى العهد الحاضر ، وهى أن الدراسات الحديثة والأبحاث العلمية كشفت اللثام عن كثير من هذه الأباطيل التى أضيفت ظلما إلى هاتين الفرقتين ، ومن أجل هذا نجد جماهير المثقفين التابعين لهذين المذهبين يَقْربون كثيرا من الشيعة الصحيحة ، وبالثانى يقربون من أهل السنة ، وكما قرب هؤلاء من أهل السنة فإن أهل السنة كذلك قربوا منهم فبدءوا يدرسون فقههم ويقتبسون منه . كما أخذوا جميعا يتبادلون الأفكار فيما يوحِّد أو يقرِّب بين طوائف المسلمين ، وإذا كان هذا هو شأن المثقفين من الزيدية والاثنى عشرية ، فإننا نقرر مع الأسف أن غير المتقفين منهم لا يزالون فى ظلام حالك انحدر إليهم وبخاصة إلى الاثنى عشرية من العصور السابقة . ولم يَزُلْ بعد حتى الآن ، وقد رأيت بنفسى صورا من هذا الظلام خلال العادات والتقاليد السائدة فى العراق وإيران إبَّان زيارتى لهذين القطرين .

الإسماعيلية :

الإسماعيلية تنسب نفسها إلى الإمامية ، وتتفق فى تحديد الأئمة الستة الأول من أئمة الاثنى عشرية ، وبعد جعفر الصادق يرون أن الإمامة انتقلت لا إلى ابنه موسى الكاظم كما يقول الاثنا عشرية بل إلى ابنه إسماعيل ، ولذلك يُسمَّوْن الإسماعيلية .

ويختفى أئمة الاسماعيلية من الظهور بعد اسماعيل ولا يظهر إلا دعاتهم ، ولذلك يسمى الأئمة هنا « الأئمة المستورون » ثم يعودون للظهور حينما يقوى

شأنهم فى شمال إفريقية سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩ م) ثم ينحدرون إلى مصر فيكوّنون الدولة الفاطمية سنة ٣٥٦ هـ .

والإسماعيلية أكثر من الزيدية والاثنى عشرية تأثراً بضلالات مدعى التشيع لسبب واضح جداً هو استتارهم ، ففى فترة الاستتار وجد مدعو التشيع الفرصة سانحة ليلوّنوا المذهب حسبما يشاءون أو تشاء لهم ضلالاتهم ، فلما ظهر الإسماعيلية بعد ذلك كان مذهبهم بعيداً جداً عن التفكير الإسلامى الصحيح .

وليس من الحقائق التاريخية المسلم بها ربط الفاطميين بإسماعيل بن جعفر ، أو ربط الإسماعيلية الحالية بالفاطميين أو بإسماعيل بن جعفر أيضا ، بل إن هناك مَنْ يُنْكر نسب الفاطميين ولا يراهم ينحدرون من فاطمة ، ويعتقد القائلون بهذا الرأى أن دعوى الفاطميين باطلة قُصِد بها الانتفاع فقط بذلك الاسم وتضليل الناس به[1] .

وأشهر ألقابهم الباطنية ، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنا ، ولكل تنزيل تأويلا ، ولهم ألقاب كثيرة تختلف باختلاف الجهات ، فبالعراق يُسمَّوْن الباطنية والقرامطة والمزدكية . وفى خراسان يُسمَّوْن التعليمية والملحدة ، وهم يقولون : نحن إسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم وهذا الشخص[2] .

ومن الواضح أن الإسماعيلية انفصلوا عن الاثنى عشرية بعد جعفر . ولذلك فليس لهم ماض مستقل ، وإذا كان أطهر الشيعة وأقربهم إلى تفكير على رضى الله عنه هم قدماء الشيعة فإن الإسماعيلية ليس لهم فى الطهر نصيب . لأنهم بدءوا بعد ما انتشرت الضلالات وكثرت الأباطيل . وعلى هذا فكل ما لدينا عن الإسماعيلية هو سلسلة من هذه الضلالات وتلك الترهات .

---

(١) انظر نسب الفاطميين فى كتاب « الفاطميون فى مصر » للدكتور حسن ابراهيم

(٢) الشهرستانى الملل والنحل ١ . ١٧٢

وبين أيدينا الآن « أربع رسائل إسماعيلية » كتبها أربعة من علية الدعاة الإسماعيليين ، ونشرها حديثا باحث إسماعيلي اسمه « عارف تامر » مقدماً لها بمقدمة طويلة ، وهذه الرسائل كانت ضمن الذخيرة السرية للإسماعيلية ، ولم يُسمح بنشرها إلا فى العصر الحديث وبجراءة لم يتعودها الإسماعيليون ، وهى كما يقول الناشر « تُغذى جمهور الراغبين فى الاطلاع على الفلسفة الإسماعيلية »[1] وسنعتمد على هذه الرسائل – بالإضافة إلى بعض مخطوطات وأبحاث وكتب أخرى – لتصوير المذهب الإسماعيلى .

وأول ما تُبرزه هذه الرسائل هو مكانة الإمام وهم يسمونه « القائم » أو « صاحب الزمان » ويعدونه فى أولى العزم من الأنبياء ، فعدد الأنبياء النطقاء المشرّعين عند الإسماعيلية سبعة ، وهم آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد والقائم ، ويَرَوْن أن لكل نبى « أساسا » أى عمادا يعتمد عليه فى تبليغ رسالته ، والأسس عندهم سبعة شيث لآدم ، وسام لنوح ، وإسماعيل لإبراهيم ، وهرون لموسى ، وشمعون لعيسى ، وعلى لمحمد ، أما أساس « القائم » فيقول عنه الناشر « إننا لا يمكننا إذاعة اسمه حرصا على سرية المعتقدات »[2] .

ولكل واحد من هؤلاء السبعة يوم من أيام الأسبوع فآدم صاحب يوم الأحد ، ونوح صاحب يوم الاثنين ، وإبراهيم صاحب يوم الثلاثاء ، وموسى صاحب يوم الأربعاء ، وعيسى صاحب يوم الخميس ، ومحمد صاحب يوم الجمعة ، ثم يهتف الداعى الفاطمى أحمد حميد الله الكرمانى صاحب رسالة « أسبوع دَوْر السَتْر » إحدى رسائل هذه المجموعة قائلا عن صاحب يوم السبت : أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون ، قد جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

---

(١) عارف تامر : أربع رسائل اسماعيلية ص ١٩

(٢) المرجع السابق ص ١١

واستقر الوقت لصاحب يوم البعث ، القائم فى الأرض مقام العقل فى عالمه ، محط رحال حملة النور فى سالف الدهور ، مقصد الراحة ، وعنده تكون الاستراحة ، هو الكلمة المصونة ، والجوهرة المكنونة :

تأنس للخلق لكنه   تنزه عن كل لحم ودم
وعنه غدا تظهر المعجزات   ويظهر من أمره ما كُتِم
وتملا له الأرض عدلا كما   تمادى بها قبل جور وظلم
وعما قليل يزول العناء   ويكمل دين به قد ختم
وينجز وعد إله السماء   وتظهر أنواره للأمم(١)

وعن هذا القائم يقول شهاب الدين أبو فراس صاحب رسالة « مطالع الشموس فى معرفة النفوس » إحدى رسائل هذه المجموعة أيضاً ما يلى « والإمام عِلَّةُ المخترعات وحياة الكل ، وبه ترتب الخلق والدين ، وهو موجود غير مفقود ، لايدركه الزمان ولا يدخل تحت حوادث الأيام ، وهو نور ساذج فى الملكوت الأول ، أبدع الله به الحدود الروحانية . واخترع الهياكل الجرمانية وخلق الأشخاص الإنسانية ، فإذا فرغت مدّته وحان وقته انتقل هذا الأمر إلى شخص آخر من ذريته ، وهو الذى ينص عليه ويشير إليه ، فاعلم ذلك يا أخى وتأمله تجد مطلوبك وقصدك وسبب نجاتك(٢) . ويقول شمس الدين بن أحمد بن يعقوب الطيبى صاحب رسالة « الدستور ودعوة المؤمنين للحضور » ما يلى عن صاحب الزمان : والصلاة والسلام والتحية والإكرام لذكرى مولانا إمام الزمان ، نقطةِ دائرةِ الوجود والأديان ، وقِبْلة أهل الإيمان ، والطريق الواضح للجنان ، الثابتِ وجودُه بالحجج والبرهان ، حقيقةِ الحقائق ، ونهايةِ الطرائق ، وغاية مقصد الخلائق ، وعلة وجود السابق والتالى ، حبل الله

---

(١) عارف تامر : أربع رسائل إسماعيلية ص ٦٦

(٢) المرجع السابق ص ٥٥

المتين ، ونوره المبين ، وحقه اليقين ، وكتابه المستبين ، وظله الممدود ، وحوضه المورود ، ولواؤه المعقود[1] .

والعمل من غير معرفة الإمام وهديه لا يفيد :

ولولا الدليل وإحسانه لكانت لطائفنا فى العدم[2]

والصلاة فى الحقيقة هى للأئمة ، ومن طبيعتهم أن يظهروا أحيانا وأن يستتروا أحيانا أخرى :

وهم القصد فى الصلاة فلولا ذكرهم لم يكن عِشاءٌ وظهر
قبلة العالمين فى كل دور ولهم فى الورى ظهور وستر[3]

ومن الصفات التى يضفونها على الأئمة ما ذكره عامر البصرى فى الرسالة الرابعة من هذه المجموعة وعنوانها « القصيدة التائية » ونقتطف منها الأبيات التالية منبهين إلى ما فى الشعر من ركاكة وأخطاء عروضية ونحوية :

بكل زمان فرد ذاتٍ بمظهرٍ بشكلٍ ورسمٍ فيه سر الإمامةِ
يروه كمثل الجنس منهم مدانياً ولكن تدانيه إلى الجنس رحمةِ
له الكون طوعاً والزمان بأمره وليس سواه ظاهرا بالخليقةِ
هو الحق والتحقيق فى كل مظهر وفى كل عصر يَسْتجِدُّ بصورة[4]

تلك صور من ضلالات الإسماعيلية ، ولكن هذه الضلالات تصل إلى قمتها فى مسألة التأويلات ، وقد وضحتْها رسالة « الدستور ، ودعوة المؤمنين للحضور » للداعى الأجل شمس الدين بن أحمد بن يعقوب الطيبى وهى إحدى رسائل هذه المجموعة ، ولعل هذه الرسالة خير مرجع لإيضاح تأويلات الإسماعيلية .

يقول مؤلف هذه الرسالة : اعتصمت بذى العزة والجبروت ،

---

(١) عارف تامر : أربع رسائل إسماعيلية ص ٩٩ (٢) المرجع السابق ص ٦١
(٣) المرجع السابق ص ٢٥ (٤) المرجع السابق ص ١١١

وتحصنت بمالك الملك والملكوت ، وتوكلتُ على الحى الذى لا يموت ، إلهنا وإله مبادئنا ، وأعترِف ألا ظاهر إلا وله باطن َ، ولا صورة إلا ولها معنى كامل ، ولا قشر إلا وله لب ، ولا مدينة إلا ولها باب ، ولا نور إلا وله حجاب ، ولا شريعة إلا ولها طريقة ، ولا طريقة إلا ولها حقيقة ، ولا حقيقة إلا ولها تنزيل ، ولا تنزيل إلا وله تأويل[1] .

وبعد هذه المقدمة التى يُثْبِتُ بها المؤلف أن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلا يسرد مجموعة فذة من التأويلات العجيبة نقتبس منها بعض أمثلة :

الله : تأويل الكلمة .

النبوة والرسالة : ظهور الكلمة بالحجاب وتنصيب الدليل والمرشد والباب إلى منهج الحق وطريق الصواب .

القيامة : قيام النفوس الجزئية المفارقة للمدركات الحسية والآلات الجسدانية، وقيام الشرائع والأديان بظهور صاحب الزمان .

الحلال : الواجب إظهاره وإعلانه .

الحرام : الواجب ستره وكتمانه .

الطاعة : الدخول فى عهد إمام الزمان .

المعصية : الميل إلى أئمة الضلال والعدوان .

الصلاة : صلة الداعى وموالاة الإمام .

الزكاة : ايصال الحكمة إلى المستحق وإرشاد الطالب إلى منهج الحق .

الصوم : الإمساك عن إفشاء سر الإمام .

الحج : القصد إلى صحبة السادة الأئمة من آل البيت .

الإحرام : الخروج من مذهب الأضداد .

النحر والحلق : إزالة الباطل لإظهار الحق .

---

(١) عارف تامر : أربع رسائل إسماعيلية ص ٩٢

التماس الحجر الأسود : قبول الدعوة من الناطق .

الربا : الرغبة فى الإكثار وطلب الحطام بإفشاء الأسرار .

الفحشاء : ذكر المحامد للطغاة المتمردين ونسبة المحاسن لأهل العناد المعتدين .

البغى : تقديم المفضول على الفاضل

الإحسان : العلم بإحاطة الإمام وقدرته على ما بطن وظهر وتجلى واستتر .

إيتاء ذى القربى : محبة الرسول وولاية أولاد البتول وتفضيل الهاشميين والقول بإمامة الأئمة الفاطميين .

الظلم : وضع الإمامة فى غير آل محمد[١] .

. . . .

هذا طرف من التأويلات التى أوردها هذا الداعى ، وبناء على مذهب الإسماعيلية تسقط العبادة عمن عرف هذه التأويلات ، ويحتج الإسماعيلية لذلك بقوله تعالى « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »[٢] أى المعرفة التامة والتأويل[٣] .

ويختم هذا الداعى سلسلة التأويلات الطويلة التى أوردها بقوله : هذا تأويل اعتقادى فى الدين ، وخلاصة اجتهادى فى تحصيل علم اليقين ، وهو دين الرسول الكريم ، وملة أبناء إبراهيم الخليل ، ومذهب النبأ العظيم . وعقيدة أهل البيت القويم ، فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ، إن الله سميع عليم[٤] .

ويقول الشهرستانى إن الإسماعيلية خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة .

---

(١) عارف تامر . أربع رسائل إسماعيلية ص ٩٢ – ٩٨ والملل والنحل للشهرستانى القسم الأول ص ١٧٢

(٢) الحجر ٩٩

(٣) محمود البستانى الفرق الإسلامية ص ٦٠

(٤) المرجع السابق ص ٩٨

وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج ، فقالوا فى البارى جل وعلا : إنا لا نقول هو موجود ولا لا موجود ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز[١] .

ومن الإسماعيلية الحسن بن محمد بن الصباح صاحب قلعة « ألموت » وقد اشتهر هو وأتباعه بالاغتيال والفتك ، وكانت لهم تعاليم ذات درجات متفاوتة تبدأ بالتشكيك وتنتهى بالكفر والتقرب إلى الله بقتل المسلمين .

تلك هى الإسماعيلية ، ومن الواضح أنها على هذا الوضع ليست من الإسلام فى شىء ، ولا تنبع مبادئها من روح الإسلام ، وليس لها من التشيع إلا الاسم الذى ادعوه ليستروا به هذه الضلالات[٢] .

بقى أن نقول كلمة هامة نفرّق بها بين الفاطمية وبين الإسماعيلية ، وتلك الكلمة لا تتصل بالنسب فذلك أمر مشكوك فيه كما أشرنا من قبل ، ولكنها تتصل بالمبادئ . فلقد كانت الإسماعيلية ضلالا كلها وزيفاً كلها ، وإنكارا لله وطعنا فى الإسلام ، فلما تولدت الأسرة التى سمَّتْ نفسها الفاطمية عن الإسماعيلية إن صح ذلك ، واستطاعت الفاطمية أن تحكم مصر . وظهرت هذه الأسرة للنور بعد أن عاش الإسماعيلية فى الظلام عشرات السنين ، لما تمّ ذلك اضطُرَّ الفاطميون أن يتَنَازلوا من غلوائهم بعض الشىء ليضمنوا ولاء الناس لهم . وليستطيعوا أن ينالوا لونا من الاستقرار . فلم تعد الصلاة موالاة الإمام ، ولم يعد الحج زيارته . ولا صار الصوم الإمساك عن إفشاء سره . وإنما حتفى هذا التأويل ، وظهرت هذه العبادات على حقيقتها كما يرها المسلمون ، ولعل الفاطميين قصدوا بذلك أن يقاتلوا المصريين بمبادئ تمكن سرها . إذ وضح أنه من غير الممكن أن [illegible] النور بتلك التعاليم [illegible] فى الظلام ، وإنه كذلك من غير الممكن أن يدين [illegible] المصريين [illegible] بأفكار عقائد الإسماعيلية ، وكان ذلك أشبه بعد [illegible]

(١) [illegible] ص ١٢

(٢) Prof P Lewis The Origin of Isma'ilism

والتتار التى هبطت تريد محق الحضارات ولكن الحضارات تغلبت عليها وأخضعتها لها إن لم يكن تماما فبعض الشيء . ويتضح ذلك كل الوضوح من مطالعة أهم المصادر الإسماعيلية التى دُوِّنَتْ فى العهد الفاطمى مثل دعائم الإسلام وتأويل دعائم الإسلام والمجالس المؤيدية ، والمجالس المستنصرية والمجالس والمسايرات ، فإن ما فى هذه المراجع إنْ بَعُدَ عن آراء المسلمين فإن الشقة ليست واسعة . وفيما يلى نموذجان من هذه المصادر :

١ ـ من المجلس العاشر من الجزء الرابع من تأويل دعائم الإسلام :

(درس من داعى الدعاة للدعاة)

قال النعمان داعى الدعاة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صِلُوا صفوفكم وحاذوا بين مناكبكم ، فتعديل الصفوف وسدّ ما فيها من الفرج من واجب الصلاة ، ومثل ذلك فى الباطن اعتدال أهل الدرجات فى دعوة الحق على درجاتهم وحدودهم التى حُدِّت لهم ، لا يتجاوز أحد منهم حده إلى غيره ، ومن رأى منهم خللا فليجتهد فى سده[1] .

٢ ـ من المجلس التاسع من المائة الثانية من المجالس المؤيدية :

(درس للعامة)

بسم الله الرحمن الرحيم . والحمد لله والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى أخيه وابن عمه على بن أبى طالب البرزخ بين البحرين : العذب الفرات والملح الأجاج . وعلى الأئمة من ذريته هداة من ذرأ الله من خلقه والمتمّمين كلمة عدله وصدقه . أيها المؤمنون صِلوا ما أمر الله به أن يوصل بقوله « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم[2] فأولوا الأمر هم الأئمة[3] .

---

(١) المجلس كله فى تأويل دعائم الإسلام ١١٢ ب — ١٧٥ ب

(٢) النساء ٥٩

(٣) المجلس كله فى المجالس المؤيدية ورقة ١٩ أ ب [illegible]

ومن الواضح أن ليس معنى هذا اختفاء المذهب الإسماعيلى فى عهد الفاطميين ولكن المقصود هو قربه من الاعتدال وتجاوزه عن الضلالات الصارخة التى هى مبادئ الإسماعيلية . وقد بقيت مبادئ الإسماعيلية يُدعى لها فى شىء من الخفاء كما رأينا فى رسالة حميد الدين بن عبد الله الكرمانى داعى الحاكم بأمر الله ، كما تُرِكَ لشعراء الفاطميين أن يعلنوا عن هذه المبادئ فى شعرهم ، ولم يكن الشعراء يلاقون الحرج الذى يلاقيه العلماء ، فالعلماء بطبيعتهم أكثر تحفظا من الشعراء ، ثم إن العلماء يلقون دراسهم إلى طلاب لهم جانب ثقافى ولهم صلة بالتفكير الإسلامى ، ولا شك أنهم سينفرون من هذه الدراسات لو شطت وبالغت فى الغلو ، ولكن الشعراء يلقون شعرهم إلى العامة وليس للعامة ثقافة الطلاب بطبيعة الحال ، أضف إلى ذلك أن من طبيعة الشعر المبالغة بل الكذب ، وليس ذلك من طبيعة العلم ، فالشعر يُبنى على الخيال وأعذبه أكذبه كما يقولون ؛ أما العلم فيُبنى على الحقائق ، وطبيعته الدقة والصدق ، ومن النماذج الشعرية التى حملت بعض تعاليم الإسماعيلية قول ابن هانئ :

ولله علم ليس يحجب دونكم ... ولكنه عن سائر الناس محجوب

حل برقادة المسيحُ ... حل بها آدم ونوح
حل بها الله ذو المعالى ... وكل شىء سواه ريح
ما أجزل الله زخرى قبل رؤيته ... ولا انتفعت بإيمان وتوحيد(١)

وقول الأمير تميم :

يا ابن الأئمة والهادين متصلا ... بصفوة الله أهل الوحى والسور
ما أنت دون ملوك العالمين سوى ... روح من القدس فى جسم من البشر(٢)

(١) انظر ديوان ابن هانئ ص ٧ و ٢٦ و ٣٠

(٢) ديوان الأمير تميم : نسخة خطية بمكتبة الأستاذ الدكتور كامل حسين ص ٥١

ومن شعر المؤيد فى الدين :

فوجهك وجه الإله المنير ونورك من نوره كالحجاب

يداك يدا الله مبسوطتان وأنت له الجنب غيرَ ارتياب

وأنت المثيب لأهل الثواب وأنت المعاقب أهل العقاب[١]

واختفت الإسماعيلية مرة أخرى من عالم النور بسقوط الفاطميين سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وعادت الإسماعيلية إلى عالم الظلام ، وطال اختفاؤها هذه المرة . ومرت بالعالم الإسلامى يقظة فى عهد الأيوبيين وساد مذهب أهل السنة ، وظن الناس أن الإسماعيلية اختفت إلى الأبد ولكن ظهر أنّ لهم قوى لاتزال تتحرك وتعمل ، ففى العصر الحديث جهد الاستعمار الأوربى ليجد أسلحة يهدم بها الإســلام ويسيطر على المسلمين ، ويبدو لى أن الإسماعيلية كانوا أحد هذه الأسلحة . فإذا بإمام إسماعيلى يظهر من جديد ، يساعد الإنجليز ويساعده الإنجليز ، يتيح له الإنجليز أن ينشر مذهبه بين مسلمى مستعمراتهم ، ويضمن لهم هو أن يَخْضَع أتباعُه لهم ، وأشهر أئمتهم المحدثين أغا خان ، وهو من نسل الحسن بن محمد بن الصباح سالف الذكر ، وهو صاحب خيل وغنى وأرستقراطية رفيعة ، ولم يكن عند أتباعه موضعَ نقد ، وقد مات حديثاً بعد أن عيّن حفيده الشاب الأمريكى الذى ربما لا يعرف من الإسلام إلا اسمه ليكون إماما لهذه الطائفة ، وهذا الإمام الجديد هو ابن على خان التشهير ، وهو سر أبيه وجده .

وإذا كنا من قبل قد قلنا إن الدراسات الحديثة قرّبت بين الاثنى عشرية والزيدية وبين أهل السنة فإن الإسماعيلية ظلت فى طريقها لم تلتق بأخواتها ولم تتعاون مع هذه الفرق فى حقل الدراسات الإسلامية أو فى حقل المستقبل السياسى للأمم الإسلامية ، وهذا هو موقف زعماء الإسماعيلية ،

---

(١) ديوان المؤيد فى الدين ص ٧٥ — ٢٣٠

وهو كذلك موقف أغلب رجال هذه الطائفة ، ولكنى على يقين من أن يوماً سريعاً سيجيء حيث يُجْذَب كثيرون من رجال هذه الطائفة إلى رحبة الإسلام الصحيح ، أو قل إن ما وصل لهم هو الإسلام الموجَّه وجهة معينة خاطئة ، أما الإسلام فسيبقى وستمتد جذوره وتورق أغصانه ، وأما هذا التوجيه الخاطئ فسينمحى ويزول ، وما أجمل أن يحطم هؤلاء الإسماعيليون هذا الحاجز الصناعى الذى يحول بينهم وبين إخوانهم المسلمين ، وأن يلتقوا بهم متعاونين متساندين لخدمة الدين الذى يجمعهم والعقيدة التى تضم شتاتهم ، وما أجمل أن يعرف هؤلاء الإسماعيليون أصدقاءهم الحقيقيين وأعداءهم الحقيقيين ، وأن يتعاون الكل لما فيه مصلحة الجميع ، ذلك يوم لا شك آت وأغلب الظن أنه قريب .

على أن الوصول إلى هذا يحتاج إلى جهد من جانب المسلمين ليقدموا دعوة الإسلام الصافية إلى هؤلاء الذين يحاول قادتهم أن يضلوهم ، وقد جمعتنى الظروف وأنا طالب بجامعة كمبردج بمهندس من مسلمى إفريقية الذين ينتمون إلى الطائفة الإسماعيلية ، وتحدثنا عدة مرات عن الإسلام ودعوته وأهدافه ، وأشهد لقد كانت استجابته أسرع مما توقعت ، وسرعان ما رأيته مسلماً فقط بعد أن كان مسلماً إسماعيلياً ، ولقد كان فرحى بهذا الانتقال عظيماً ، ولكن فرحه كان أعظم ، وسرعان ما أصبح الأغاخان جديراً بالنقد والنقد المرير ، بعد أن كان مقدساً لا يُسْأَل عما يفعل . ولقد وعدنى الصديق المهندس أن ينشر هذه الدعوة بين آله ومواطنيه ، وأرجو أن يكون قد فعل ، وإن كانت حالته وثقافته الدينية قد لا تساعدانه على الوقوف أمام دعاة الإسماعيلية وما فى أيديهم من أسلحة المال والضلال .

ثورات الشيعة

ثورات الشيعة فى خلال العهد الأموى كانت ثورات متصلة متشابهة البواعث متشابهة الأهداف ، فبواعثها كراهية الأمويين وأهدافها إسقاطهم ، وحركات الشيعة الثورية وثيقة الصلة بحركات الشيعة الفكرية . فقد انضم مدعو التشيع للشيعة فى تفكيرهم فأفسدوا أفكارهم كما سبق القول . وكذلك انضم مدعو التشيع للشيعة فى ثوراتهم فأفسدوا خططهم . فالباحث المدقق يرى أن هدف هؤلاء فى ثوراتهم لم يكن فقط إسقاط الأمويين بل إضعاف المسلمين وتقليم أظفارهم ، وهم من أجل ذلك ينهزمون أو يصطنعون الهزيمة ، وهم من أجل ذلك أحياناً يقتلون زعيمهم الشيعى بأنفسهم ، يكونون معه ويدفعونه للثورة فإذا استجاب انقلبوا عليه وقتلوه . وقد حاول الفرزدق الشاعر المشهور أن يُعبِّر عن ذلك للحسين فقال له عن أهل الكوفة : « قلوبهم معك وسيوفهم عليك »[1] ونقول للفرزدق إن قلوبهم كانت كسيوفهم ليست مع الحسين ولا مع الشيعة ولا مع المسلمين . وبتلك السيوف قُتِل قادة الشيعة وكبارهم ..

لقد كان أهل الكوفة يستجيبون لكل نداء للثورة حتى ليجد الباحث ثورات متصلة دون أن يجد لها سبباً معقولا ، كأن الثورات أصبحت هدفاً لذاتها ، واضطراب الأمن أصبح مقصوداً لذاته . وسنجول جولة نذكر فيها ثورات الشيعة فى العهد الأموى منبهين أننا لن نكرر ذكر الشيعة ومدعى التشيع فذلك أساس حديثنا وهو مقصودنا ذكرناه أو اكتفينا بذكر كلمة الشيعة عن هذا التعبير الطويل :

الحسين بن على :

ذكرنا سابقاً أن الحسين بن على كان ضمن القلائل الذين لم يبايعوا ليزيد فى حياة معاوية ، ولذلك وجد الحسين نفسه فى حل من الخروج على يزيد بعد وفاة معاوية ، وقصة خروج الحسين ، ودعوة أهل الكوفة له ،

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٢٩٠

وإرساله ابن عمه مسلم بن عقيل وما تلا ذلك حتى مقتل الحسين ، قصة تذكرها المراجع الكثيرة التى بين أيدينا بتفصيل كامل لا يدع حركة ولا يترك همسة دون أن تُدَوَّن[١] ، وسنوجز ذلك من مجموعة هذه الكتب .

تحركات الحسين عقب وفاة معاوية :

كان الحسين بالمدينة عند وفاة معاوية ، وكان أهم ما يعنى يزيد أن تتم له بيعة الحسين فهو زعيم المعارضين غير مدافع ، فأرسل إلى والى المدينة يطلب منه أخذ البيعة له من الحسين وصَحْبِه وكان الوالى هو الوليد ابن عتبة بن أبى سفيان[٢] ، فاستدعى الوليد الحسين وطلب منه البيعة فقال له الحسين : أخِّرنى وارفُق . فأخَّره ، فخرج إلى مكة من ليلته ومعه نساؤه وأهل بيته[٣] ، وفى مكة تلقى الحسين رسائل متعددة من أهل الكوفة يدعونه للسير إليهم ويعدونه بالبيعة له ، ومن أهم هذه الكتب كتاب من سليمان بن صُرد ورفاعة بن شداد وشيعتهما من أهل الكوفة ، ونصه ما يلى :

للحسين بن على من سليمان بن صرد ورفاعة بن شداد وشيعتهما من المؤمنين المسلمين من أهل الكوفة . أما بعد فالحمد لله الذى قصم عدوك الجبار العنيد الذى اعتدى على هذه الأمة فانتزعها حقوقها وغصبها أمورها وغابها على فيئها وتآمر عليها على غير رضى منها ، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها ، فبعدا له كما بعدت ثمود . إنه ليس علينا إمام ، فأقدم علينا لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى ، فإن النعمان بن بشير فى قصر الإمارة ، ولسنا نجتمع معه فى جمعة ولا نخرج معه إلى عيد ،

(١) يعتبر الطبرى من أهم هذه المراجع وقد ذكر هذه القصة فى أكثر من مائة صفحة (انظر الجزء الرابع ص ٢٥٧ – ٣٦٠) .

(٢) هذه رواية الطبرى حـ ٤ ص ٢٥٧ ويقول ابن قتيبة أن والى المدينة آنذاك كان خالد بن الحكم (انظر الإمامة والسياسة جـ ١ ص ١٩٥) .

(٣) عمر أبو النصر آل محمد فى كربلاء ص ٦٢

ولو قد بلَغَنا مخرجُك أخرجناه من الكوفة وألحقناه بالشام[1] .

وتلقى الحسين خطابات أخرى كثيرة بهذا المعنى من جماعات الكوفة بلغت عدة مئات ، ومن هذه الخطابات خطاب يقول له إن معك مائة ألف كاملى العدة والسلاح[2] ، فبعث الحسين إلى مسلم بن عقيل بن أبى طالب فقال له : سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إلىَّ فإن كان حقا خرجنا إليهم ، فخرج مسلم حتى أتى الكوفة فالتف حوله الناس وبايعوه للحسين وظهر له النصر . فأرسل للحسين بذلك وطلب منه الحضور ، وأدرك يزيد أن الكوفة لا بد أن تؤخذ بالشدة ، وأن النعمان بن بشير لا يصلح لقيادة الكوفة فى ذلك الوقت الخطير . فعزله وولى عليها رجلا باع دينه بدنياه ذلك هو عبيد الله بن زياد والى البصرة فضم له الكوفة فأصبح بذلك أمير البلدين ، وهى ثقة تدفعه أن يرتكب الصعاب ليثبت أنه بذلك جدير .

وسار عبيد الله إلى الكوفة . وسارع يطارد مسلم بن عقيل . وسرعان ما وجد مسلم نفسه وحيداً وانفضت من حوله الآلاف الاثنا عشر التى بايعته منذ أيام . حتى ليروى الطبرى أنه لم يجد مأوى يأوى إليه فلجأ إلى بيت هانئ بن عروة أحد زعماء الكوفة يطلب الحماية ، وعرف عبيد الله ذلك فأرسل لهانىء فجاءه ، وأُلْقِىَ القبض على مسلم وجىء به أيضا إلى عبيد الله دون أن ينصره أحد ، وفى القصر قتل مسلم وألقى جثمانه إلى الناس . وأما هانئ فسحب إلى الكناسة حيث قتل هناك وصلب[3] .

وفى تلك الأثناء كان الحسين يفكر فى اللحاق بمسلم ولم يكن يعلم ما جرى له . فكان الحسين يستشير الناس ، ومن الناس من كان يقدم مشورته ونصحه من تلقاء نفسه ، وكان هناك اتجاهان يمثل عبد الله بن الزبير أحدهما

---

(١) الإمامه والسياسه ج ٢ ص ٣ والطبرى ٤ : ٢٦١

(٢) الطبرى ٤ ص ٢٩٤ (٣) الطبرى ج٤ ص ٢٦٠

ويمثل عبد الله بن العباس الاتجاه الثانى ، فقد كان ابن الزبير يدرك أن أهل الحجاز لا يبايعونه ولا يتابعونه أبدا ما دام الحسين بينهم ، وإن الحسين أعظم فى أعينهم وأنفسهم منه وأطوع فى الناس[١] ، ولذلك جاء ابن الزبير إلى الحسين فحدّثه ساعة وقال له : ما أدرى ما تَرْكُنا هؤلاء القوم (بنى أمية) وكفّنا عنهم ونحن أبناء المهاجرين وولاة هذا الأمر دونهم ، خبّرنى ما تريد أن نصنع ؟ فقال الحسين : والله لقد حدثت نفسى بإتيان الكوفة ، ولقد كتب إلىّ شيعتى بها وأشراف أهلها . فقال ابن الزبير : أما لو كان لى بها مثل شيعتك ما عدلت بها . وكان الحسين يدرك أن ابن الزبير يخدعه ويدفعه للخروج ليخلو له الجو . ولذلك قال الحسين بعد أن خرج ابن الزبير : إن هذا ليس شىء يؤتاه من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق[٢] .

أما ابن عباس فقد هتف بالحسين قائلا : إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم ، أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن أبيت إلا الخروج فسر إلى اليمن فإن بها حصونا وشعابا وهى أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة وأنت عن بنى أمية فى عزلة ، ومن هناك تكتب إلى الناس وتبث دعاتك . فقال الحسين : يا ابن عم ، إنى والله لأعلم أنك ناصح مشفق ، ولكنى قد أزمعت على السير للكوفة . قال ابن عباس : فإن كنت سائرا فلا تسر بنسائك وصبيتك ، فوالله إنى لخائف أن تقتل كما قُتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه ، ولقد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك إياه والحجاز . ثم خرج ابن عباس فمرّ بابن الزبير فقال : قرّت عينك يا ابن الزبير[٣] .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٦١

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٨ وعقيدة الشيعة ص ٩٦

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٢٨٩ وعقيدة الشيعة ص ٩٥

رحلة الحسين :

وضرب الحسين صفحاً عن كل هذه النصائح وخرج فى أخريات سنة ٦٠ هـ بأسرته ونسائه وأطفاله وعبيده وقليل من مريديه وكان عددهم اثنين وتسعين. ويقول Wellhusen إنه مما هو جدير بالاعتبار أن الأنصار والقرشيين تخلوا عن الحسين ، فلم يخرج من المدينة واحد منهم معه ، ولم يكن منهم بين شيعة الكوفة إلا أفراد قلائل جداً (١) وعلى كل حال فإن الحسين قد اتجه بهذه الجماعة الصغيرة إلى الكوفة دون أن يعرف ما جرى لمسلم ، وفى الطريق قابله الفرزدق الشاعر سالف الذكر قادماً من الكوفة ، فسأله الحسين : بيِّن لنا نبأ الناس خلفك . فأجاب الفرزدق : من الخبير سألتَ ، قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية . والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء . ويبدو أن الحسين نسى مطاع هذا الكلام وتذكر عجزه فعلق عايه بقوله : صدقت ، لله الأمر ، والله يفعل ما يساء . وكل يوم ربنا فى شأن . . . ثم حرك الحسين راحلته وواصل سيره (٢) .

والتقى الحسين عند ماء من مياه العرب بزعيم عربى اسمه عبد الله بن مطيع العدوى ، ويبدو من كلامه حكمته وبُعْد نظره . فقال هذا للحسين : أذكرك الله وحرمة الإسلام أن تُنْتَهَك ، أنشدك الله فى حرمة رسول الله ، أنشدك الله فى حرمة العرب . فوالله لئن طلبت ما فى يد بنى أمية ليَقْتُلُنَّك ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً . لا تأت الكوفة ولا تتعرَّض لبنى أمية ؛ ولكن الحسين أبى أن يسمع له ومضى (٣) .

وسار الحسين مرحلة أخرى حيث رأى رجلا عائداً من الكوفة اسمه

---

(١) Al Khawarig and Al Shi, ah p. 183

(٢) الطبرى حـ ٤ ص ٢٩٠ والعقد الفريد جـ ٤ ص ٣٨٤

(٣) الطبرى جـ ٤ ص ٢٩٨

بكير بن ثعلبة الأسدى ، وكان من مريدى الحسين رجلان أسديان أيضاً فالتقيا ببكير وسألاه حال الكوفة فقال لهما إنه لم يبرح الكوفة حتى قتل مسلم ابن عقيل وهانئ بن عروة ، وأنه رآهما بنفسه يُجرَّان فى السوق بأرجلهما . ووضح الأسدى لقريبيه أن أشراف الناس بالكوفة قد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم ، يستمال بالمال ودُّهم وتستخلص به نصيحتهم . فسارع هذان المريدان إلى الحسين وأخبراه الخبر ، وقالا له : ننشدك الله فى نفسك وآل بيتك إلا انصرفت من مكانك هذا ، فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة ، بل نتخوف أن تكون الكوفة عليك ، ولكن بنى عقيل قالوا : والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق ما ذاق أخونا[١] ، فقال الحسين لأتباعه : من أحب منكم الانصراف فلينصرف ليس عليه منا ذمام . فتفرق الناس عنه يميناً وشمالا وبخاصة أولئك الذين انضموا إليه أثناء رحلته ، ولم يبق معه إلا أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة وأفراد قلائل غيرهم[٢] .

ودخلت سنة إحدى وستين ، ودخل معها الخطر ، وأحدق هذا الخطر بالحسين وبجماعته الصغيرة ، فإن عبيد الله بن زياد لما استقر له الأمر بالكوفة وانتهى من مسلم وهانئ وعرف أن الحسين فى طريقه إلى الكوفة ، بعث الحصين بن تميم على رأس جيش كبير وأمره أن ينزل القادسية وأن يضع المسالح ، ويقدِّم الحرَّ بن يزيد التميمى بين يديه فى ألف من رجاله ليرتادوا له الطريق ، وصدرت الأوامر صريحة بأن يكون الحسين بين أمرين : أن يستسلم ويسلِّم نفسه إلى ابن زياد ، أو يقاتل .

وفى مكان يقال له ذو حُسُم التقى الحسين بالحر بن يزيد . والعجيب أن الصلاة كانت تحضر فيؤم الحسين رجاله ورجال خصمه ، بل أكثر

---

(١) الطبرى حـ ٤ ص ٢٩٩ — ٣٠٠

(٢) Wellhausen : al Khawariq and al Shi'h 170

من ذلك تركت للحسين الفرصة أكثر من مرة ليخطب رجال الحرّ ويحثهم على الثورة على حكم بنى أمية(١) .

وهنا فقط عندما قابل الحسين الحرّ وأحدقت به السيوف بدأ يفكر فى الانصراف بأصحابه ، ولكن الانصراف لم يكن له من سبيل ، فقد قال له الحر : أُمرنا إذا نحن لقيناك ألا نفارقك حتى نقدمك على عبيد الله ابن زياد . فقال له الحسين : الموت أدنى إليك من ذلك . ثم اقترح الحر على الحسين أن يتخذ طريقا لا هو إلى الكوفة ولا هو إلى المدينة حتى يكتب إلى ابن زياد يسأل رأيه ، فاتّجه الحسين إلى الطريق الصاعد إلى كربلاء .

وعزّز عبيد الله بن زياد جيوشه المرسلة إلى الحسين بجيش آخر بقيادة رجل من أولاد السابقين الأولين هو عمر بن سعد بن أبى وقاص ، وكان تحت قيادته أربعة آلاف من الجنود ، وكان عبيد الله قد بعثه واليا على الرى وكلّفه بمحاربة الديلم الذين ثاروا فى هذه البقاع ، ولهذا الغرض جمع جيشه ، ولكنه تلقى أمراً بالسير إلى الحسين حتى إذا فرغ منه سار إلى ولايته بالرى ، ولما أظهر التثاقل فى السير إلى الحسين هدده عبيد الله بعزله عن ولاية الرى التى كانت أمله ، فسار بجيشه لمقابلة الحسين حتى لا تفلت منه هذه الولاية . وليس يدرى الإنسان كيف طغى حب المال فأعمى هذه النخبة التى كان عليها أن تسير سيرة آبائها فى العمل للخير ورفع شأن الإسلام .

ومن الواضح أن القادة الذين سبق ذكرهم (الحصين والحر وعمر ابن سعد) كانوا يخشون دم الحسين ويتمنون ألا يمسوه بسوء وكان ذلك دعاءهم دائما ، وقد استطاع عمر بن سعد أن يحصل على اتفاق مع الحسين ظن فيه السلامة ، فقد عرض الحسين أن يعود إلى المدينة ، أو يسير إلى أى

(١) انظر الطبرى جـ ٤ ص ٣٠٢ وما بعدها

ثغر من ثغور المسلمين فيكون مجاهدا فى سبيل الله ، أو يسير إلى يزيد بدمشق ، وأرسل عمر بهذا إلى عبيد الله فسرَّ به عبيد الله وأظهر الموافقة ، ولكن سرعان ما قال شَـمِر بن ذى الجَوْشن : أتقبل هذا منه ؟ والله لئن رحل من بلدك ولم يضع يده فى يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ولتكونن أولى بالضعف والعجز ، فلا تعطه هذه المنزلة فإنها من الوهن ، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه . فقال له ابن زياد : نِعْمَ ما رأيت ، الرأى لك[1] .

وأرسل ابن زياد خطابا قاسيا إلى عمر بن سعد مع شمر بن ذى الجوشن وأمره أن يرسل الحسين إليه مع أصحابه فإن أبى الحسين فليقاتله عمر ، فإن قتله جعل الخيل تطأ صدره وظهره ، وختم ابن زياد خطابه بقوله : إن أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا وخلِّ بين شمر وبين العسكر فإنا قد أمرناه بأمرنا .

وأبى الحسين الاستسلام فلم يبق إلا الحرب ، واشترك فى حربه القادة السابقون إلا الحر بن يزيد فإنه عدل إلى الحسين لمَّا أَبَى ابن زياد أن يقبل ما عرضه الحسين وكان يظن أن فيما عرضه الحسين ما يكفى للسلامة[2] . ودارت معركة غير متكافئة ؛ جيوش معدة من جانب وجماعة صغيرة العدد قليلة العدة من جانب ، وتساقط أتباع الحسين دونه ، وكان أول القتلى من جماعة الحسين مسلم بن عوسجة ثم عبد الله بن عمير الكلبي وهما من خيرة الأبطال . ثم توالى الصرعى وتساقط الأهل والأصدقاء ولم يبق مع الحسين إلا رهط من ثلاثة أو أربعة ، ثم هوى هذا الرهط بين يديه وبقى وحده . وتوضح لنا كل الروايات الموجودة أن رجال عمر بن سعد كانوا يتحاشون قتل الحسين ، وأتيحت الفرصة لكثيرين منهم ليقتلوه دون عناء ولكن

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٣١٣ – ٣١٤ والعقد الفريد جـ ٤ ص ٣٧٩

(٢) تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ٣٢١ ، ٣٢٥

كان كل منهم يتمنى أن يكون مقتله على يد سواه ، وكان الحسين يحمل عليهم فيولون الأدبار لا خوفا ولكن إجلالا وهربا من دمه . ويقول الطبرى[١] : ولقد مكث طويلا من النهار ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا . ولكن كان يتقى بعضهم ببعض ، ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء . فنادى شمر فى الناس : ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل ؟ اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم فحُمِل عليه من كل جانب وضربه زُرْعَة بن شريك التميمى ضربة على عاتقه فجعل ينوء ويكبو من قسوة الألم ، ثم جاءه رجل فيه لوثة اسمه سنان بن أنس فطعنه بالرمح وقضى عليه واحتز رأسه ، ومما يدل على جنون هذا القاتل الأثيم أنه حمل الرأس وذهب إلى عمر بن سعد وأنشد :

أوقر ركابى فضـة وذهبا
أنا قتلت الملك المحجبـا
قتلت خير الناس أما وأبا
وخيرهم – إذ يُنْسبون – نسبا

فقال عمر له : أشهد أنك لمجنون ، ولو سمعك ابن زياد تقول هذا لضرب عنقك ، وقد قتل من جيش ابن زياد سبعة وثمانون رجلا . وكان الحسين فى الخامسة والخمسين عند مقتله وقد وجدت به ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة ، وكان قتاله فى العاشر من المحرم ، وإذا جاز لنا أن نتعجل الأحداث فى كلمة قصيرة قلنا إن قتلة الحسين ما بقى أحد منهم إلا وعوقب فى الدنيا ، إما بالقتل أو بالعمى أو سواد الوجه أو زوال الملك فى مدة يسيرة[٢] ، وسيأتى فيما بعد تفصيل ذلك عند كلامنا عن المختار بن أبى عبيد .

والعجيب أن هذا المسمى عمر بن سعد تمادى فى ضلاله وطاعة سيده

(١) الجزء الرابع ص ٣٤٦
(٢) ابن الجوزى : تذكرة خواص الأمة ص ١٥٨

ابن زياد فأمر أصحابه أن يوطئوا خيلهم الحسين ففعلوا حتى رضوا صدره وظهره[١] . ولم ينج من هذه المعركة إلا خمسة هم على زين العابدين وكان مريضاً فلم يحضر المعركة وعمته زينب وأخوه الأصغر عمر وأختاه فاطمة وسكينة[٢] . وحمل هؤلاء مع رأس الحسين إلى الطاغية ابن زياد فأرسل الجميع إلى يزيد . فيُرْوى أن يزيد بكى وبكت معه نساء بنى أمية ، وأكرم يزيد مثوى هؤلاء وجازاهم عما سُلِب منهم وردّهم إلى المدينة .

بعد المعركة :

يختلف المؤرخون بطبيعة الحال فى التعليق على هذه المعركة ، فمنهم من اكتفى بذكر الروايات التاريخية دون أن يبدى له رأياً فيها كالطبرى وابن الأثير وابن قتيبة وغيرهم . ومنهم من علق عليها سابّاً أعداء الحسين ومُنْزِلاً اللعنة عليهم كابن طباطبا[٣] والعقاد[٤] . ومنهم من عاق على نتائجها فقط كالسيد أمير على الذى يقول إن مذبحة كربلاء أشاعت الذعر فى البلاد الإسلامية ، وأشعلت حماسة الفرس ، ودفعتهم إلى كفاح الأمويين حتى أسقطوا دولتهم وأقاموا دولة بنى العباس[٥] .

وكان نيكلسون من المؤرخين القلائل الذين عاقوا تعليقات علمية على هذه الحادثة فذكر أن المؤرخين المسلمين الذين كانوا فى الغالب يكرهون بنى أمية عدّوا الحسين شهيداً وعدوا يزيد سفاكاً ، ولكن ذلك لا يوافق رأى المحدثين من المؤرخين الذين يعدّون الحسين ثائراً محدثا فتنة ضحى بنفسه فيها . . . .[٦]

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٤٧

(٢) عقيدة السعة ص ١١٤

(٣) الفخرى ص ٩٩ — ١٠٠

(٤) الحسين سيد الشهداء فى عدة أمكنة

(٥) A Short History of the Sarcens p. 87

(٦) See Literary History of the Arabs p. 197

وعلّق Wellhausen كذلك على هذه الحادثة تعليقاً جديراً بالذكر ، قال : وما كان مَثَلُ الحسين إلا كمثل آنية من الفخار اصطدمت بحديد هو عبيد الله ، لقد مضى الحسين كما مضى المسيح فى طريق مرسوم ، ليضع ملكوت الدنيا تحت الأقدام ، ومدّ يده كالطفل ليأخذ القمر ، ادّعى أعرض الدعاوى ولكنه لم يبذل شيئاً فى تحقيق أدناها ، بل ترك للآخرين أن يعملوا من أجله كل شيء ، وفى الواقع لم يكن أحد يوليه ثقة . [يقصد ما دوناه فى هذا البحث من أن المهاجرين والأنصار وهم عصب الإسلام تخلّوا عن الحسين ولم يؤيدوا حركته من أول الأمر] ولم يكد يصطدم بأول مقاومة حتى انهار ، فأراد الانسحاب ولكن كان ذلك متأخراً ، فاكتفى بأن راح ينظر إلى أنصاره وهم يموتون فى القتال من أجله ، وأبقى على نفسه حتى اللحظة الأخيرة(١) .

ونحب أن نعلق على هذه الحادثة من ظروفها المختلفة :

فأولا : لا نشك فى أن ابن زياد كان طاغية جباراً ، خلا قلبه أو كاد من الإيمان والإنسانية فماذا كان عليه او أرسل الحسين إلى يزيد ليرى فيه رأيه .

ثانيا : هذا الشيخ النزق الذى يسمى عمر بن سعد كيف باع دينه وماضى أسرته ليُرْضِيَ الدنيا ولينال الجزاء من السفاك عبيد الله بن زياد ؟ وماذا كان سيخسر لو اعتزل الأمر ؟ وكيف جاز له أنْ يهمل النسوة من أقاربه ؟ وأن يأمر أن تطأ الخيل صدر الحسين وظهره ؟

ثالثا : نجيء إلى الحسين لنقرر مع الأسف أن تصرفاته كانت بعيدة عن الحكمة ، فهو لم يقبل نصح الناصحين وبخاصة عبيد الله بن العباس واستبد برأيه ، وهو نسى أو تجاهل خطأً خُلُق أهل الكوفة وما فعلوه مع أبيه وأخيه ، وهو — ثالثا — يخرج بنسائه وأطفاله كأنه ذاهب إلى

(١) Wellhausen : al Khawariq and al Shi'ah p. 187

نزهة خلوية أو زيارة قريب ، ويعرف فى الطريق غدر أهل الكوفة ومع هذا يواصل السير لهم ، وينقاد لرأى بنى عقيل ويذهب بجماعة من الأطفال والنساء وقليل من الرجال ليأخذ بثأر مسلم بن عقيل ، ويظل الحسين يتقى السهام والضربات بأولاده وأهله وصحبه حتى خروا جميعاً بين يديه . يا لله ! قد تكون ولاية يزيد العهد عملا خاطئاً ولكن هل هذا هو الطريق لمحاربة الخطأ والعودة إلى الصواب ؟

وعلى كل حال فقد كانت فتنة أيسر مانقول عنها إنها وسعت باب الفرقة والتهمت الآلاف والملايين من المسلمين ولا يزال بابها مفتوحا حتى كتابة هذه السطور . وقد أخذ مدّعو التشيع هذه الحادثة ليضعوا حولها ألوانا من الخرافات سنتحدث عن بعضها عند الكلام عن « التوّابين » فيما يلى . ومن أهم ما نورده هنا ما نسبوه إلى على الرضا من أنه قال : إن أكل كل طين من القبر حرام كأكل الميتة ، إلا طين تربة الحسين فهو شفاء من كل داء . وإذا مات شيعى وضعوا له قلادة من طين تربة الحسين فى رقبته ، وخاتما فى سبابته ، وضمنوا له بذلك الجنة[1] .

التوابون :

لم يُضِعْ الرجل النهّاز عبد الله بن الزبير الفرصة ، فما إن قُتل الحسين حتى أيقن أن الأمر خلا له ، فأعلن نفسه خليفة فى مكة وأعلن الثورة على بنى أمية ، وذاع أمره وعظم خطره ، وبخاصة عندما مات يزيد بعد مقتل الحسين بسنتين وبضعة شهور واضطراب حبل بنى أمية فى الشام عقب موته .

والذى يهمنا الآن أن الطاغية عبيد الله بن زياد عجز عن ضبط الأمر فى البصرة والكوفة عندما اختل الأمر فى دمشق ، فتسلل فى الظلام ، وكان فى البصرة حينذاك ، ونجا بنفسه من ثورة أعدائه الكثيرين ، وفى هذا الجو ظهر التوابون .

---

(١) عقيدة الشيعة ص ١٠٣ - ١٠٤

والتوابون جماعة من شيعة الكوفة ينبئ عنهم هذا الاسم ، إنهم اعترفوا بضلالاتهم وبأنهم دعوا الحسين إلى بلادهم ، ثم انفضوا عنه ، ثم قتلوه[١] ، وأرادوا أن يكفروا عن إثمهم وأن يزيلوا خطيئتهم ، وكان سبيلهم إلى ذلك ، التوبةُ والثأر للحسين ، وبذلك سُموا التوابين ، إنهم سُموا التوابين لادعائهم التوبة ، ولكن ممن يأخذون الثأر ؟ كان أولى بهم أن يثأروا للحسين من أنفسهم ، بَيْد أنها الكوفة ومدعو التشيع بها ، يعيشون فى سلسلة من الثورات ، يثورون على بنى أمية فيدعون الحسين إليهم ، ويثورون لبنى أمية فيقتلون الحسين ثم يثورون للحسين فيحاولون الثأر له .

ويقول الطبرى : إن الشيعة قد تلاقت بالتلاوم والتندم ، ورأت أنها قد أخطأت خطأ كبيرا بدعائهم الحسين إلى النصرة وتركهم إجابته ومقتله إلى جانبهم لم ينصروه ، ورأوا أنه لا يُغسَل عارُهم والإثم عنهم فى مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه ، ففزعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة[٢] ، واستقر الرأى بعد مناقشات بينهم إلى أن تكون الرياسة إلى سليمان بن صُرَد الخزاعى وكانت له صحبة مع الرسول . ولكن سليمان سرعان ما أدرك أن قتلة الحسين هم هؤلاء المطالبون بدمه ، وقد جاء فى كلماته التى يرويها الطبرى « إنى نظرت فرأيت أن قتلة الحسين هم أشراف أهل الكوفة وفرسان العرب وهم المطالبون بدمه[٣] . ومع هذا هتف هؤلاء « يالثارات الحسين » وتجمع عدد كبير وأصبح لهم السلطان على الكوفة ، وبدءوا يهددون سلطان الشام .

وفى هذه الأثناء كان مروان بن الحكم قد قفز للخلافة وانتصر على معارضيه فى الشام وبدأ يتطلع لإخضاع جميع الثائرين فى العالم الإسلامى ، وكان

---

(١) من الأسماء التى تذكرها المراجع التى بين أيدينا وتنسب لها القدرة على التقلب شبث بن ربعى التميمى الذى حارب ضد الحسين بعد أن كان أحد الذين دعوه إلى الكوفة ، وحميد بن مسلم الأزدى الذى اشترك فى قتل الحسين ثم عاد فأصبح من أشد أنصاره حماسة .

(٢) تاريخ الأمم والملوك حـ ، ص ٤٢٦

(٣) مرجع السابق ص ٤٣٢

« التوابون » من الثائرين الذين اتجهت لهم عنايته ، ومن الطبيعى أن يلجأ إلى الطاغية العارف بمواطن الضعف فى الكوفة وفى رجالها ، إلى عبيد الله ابن زياد ، فسيره بجيش كبير من أهل الشام ، والتقى ابن زياد بالتوابين عند مكان يقال له « عين الوردة » حيث دارت معركة عنيفة سقط فيها سليمان ابن صُرَد وكثيرون من التوابين وانتصر أهل الشام[1] . وكان ذلك سنة ٦٥ هـ .

ولم ينته التوابون بعد هذه الموقعة ، بل ظلوا يطلبون التوبة والغفران لذنبهم العظيم ، ولا تزال بقايا التوابين تعيش فى العراق حتى العهد الحاضر ، ولقد رأيتهم عند زيارتى للعراق سنة ١٩٥٠ يجتمعون فى أيام عاشوراء ، فى الفترة التى قتل فيها الحسين ، ويكوّنون جماعات كبيرة ، وينشدون أناشيد حزينة حماسية ، ثم يتوقفون عن الإنشاد فترة يضربون فيها صدورهم العارية بقسوة عنيفة عدة ضربات ، ثم يعودون إلى الإنشاد ثم الضرب وهكذا ، حتى تسيل الدماء من صدورهم أو تكاد ، ومنهم من لم يكتف بضرب نفسه بيده بل يعمد إلى خنجر أو سيف فيضرب به رأسه ويسيل دمه ، وتُعتبر تلك الأفعال عندهم من وسائل التوبة ، إذ إنهم يعتقدون أن أخطاء أجدادهم قد انحدرت إليهم ولا وسيلة لتكفير هذه الأخطاء إلا إراقة دمائهم فى نفس الفترة التى أريق فيها دم الحسين ، وبعضهم يبالغ فى هذا التفكير فيُسيل دمه على الأرض ليختلط بالتربة التى امتصت دم الحسين فكأنه بذلك امتزج به ولم يضن عليه بدمه الغالى .

المختار بن أبى عبيد :

من نتاج الطائف شخصيات بعيدة الغور ، واسعة الشهرة ، غير واضحة المعالم ، أو قل أنها مضطربة المعالم ، ومن أهم هؤلاء المختار بن

(١) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٤٦٢ وما بعدها وتاريخ اليعقوبى جـ ٣ ص ٤ وعمدة الشيعة ص ١١٦ وتهذيب الأسماء للنووى القسم الأول جـ ١ ص ٢٣٤

أبي عبيد والحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه وابنه عبيد الله .

والمختار شخصية من الشخصيات القلقة فى التاريخ الإسلامى ، وأعتقد أن أدقّ وصف له أنه رجل يسعى للجاه والمال ولا يهتم بالوسائل التى توصله إليهما ، فهو مستعد أن يكذب وأن ينافق وأن يدّعى النبوة أو الألوهية ، وأن ينقلب من صديق الى عدو ومن عدو إلى صديق إذا كان ذلك يساعده على تحقيق مأربه . ومن الواضح أن مثل هذا الرجل لا بد أن يكون ذكيا حاد الذكاء ومنحرف الذكاء فى نفس الوقت .

كان فى صباه ملتحقا بعمه سعد بن مسعود الذى كان عاملا لعلى بن أبي طالب على المدائن فعاملا لابنه الحسن من بعده . ولما انهارت قوى الحسن واعتدى عليه جنده لجأ إلى المدائن . قال المختار لعمه : هل لك فى الغنى والشرف ؟ قال العم : وما ذاك ؟ قال المختار : أن توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية . قال سعد : عليك لعنة الله . أتب علَى ابن بنت رسول الله فأوثقه . بئس الرجل أنت[١] .

وهكذا كان المختار يريد أن يقدم الحسن قربانا لينال الحظوة مع عمه عند بنى أمية ، ولكن هذه الأمنية لم تتم فليحاول المختار طريقاً آخر أو طرقا أخرى للجاه والمال .

ورأى المختار أن انضمامه للشيعة سيجذب إليه كثيرين من الأنصار والأعوان ففتح باب داره بالكوفة لمسلم بن عقيل عندما وفد هذا إلى الكوفة وبايعه وساعده[٢] ، ولما قتل مسلم أمر ابن زياد بالقبض على المختار وضربه بقضيب فشتَرَ به عينه كما يقول الطبرى ثم ألقاه فى السجن[٣] .

وكانت صفية أخت المختار تحت عبد الله بن عمر فبكت لما أصاب أخاها فكتب عبد الله إلى يزيد بن معاوية يستسمح للمختار . فأمر يزيد

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٢٢ (٢) المرجع السابق ص ٤٤١

(٣) المرجع السابق ص ٤٤٣

واليه ابن زياد أن يخلى سبيل المختار ، فأطلقه وأمره أن يدع الكوفة ففعل ، وطاف المختار هنا وهناك ثم انتهى به المطاف إلى عبد الله بن الزبير بمكة ، وكان ابن الزبير قد أعلن نفسه خليفة ، وكانت حاجته إلى المختار ظاهره وحاجة المختار إليه واضحة ، ولكن « السيفان لا يجتمعان فى قراب واحد » فكان كل منهما يخشى الآخر ولا يطمئن إليه . وسننقل فيما يلى رواية الطبرى التى تبين لنا حاجة كل منهما للآخر وحذره منه :

لما التقى المختار بابن الزبير قال المختار : إنى قد جئتك لأبايعك على ألا تقضى الأمور دونى ، وعلى أن أكون أول من تأذن له ، وإذا ظهرتَ استعنتَ بى على أفضل عملك . فقال له ابن الزبير : أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه .

ولكن المختار لم يقنع بأن ينزل على كتاب الله وسنة النبى ، فصاح بابن الزبير : وشرُّ غلمانى أنت مبايعه على كتاب الله وسنة نبيه ، مالى فى هذا الأمر من الحظ ما ليس لأقصى الخلق منك . لا والله لا أبايعك أبداً إلا على هذه الخصال .

قال عباس بن سهل وهو من أصحاب ابن الزبير : فالتقمت أذن ابن الزبير فقلت له : اشترِ منه دينه حتى ترى رأيك . فقبل ابن الزبير شروط المختار وتمت عليها البيعة[1]

وصمد المختار بجانب عبد الله بن الزبير إبَّان محنة الحصار الأول لمكة الذى قام به الحصين بن نمير السَّكونى فكان من أحسن الناس بلاء وأعظمهم غناء . وفى أثناء هذا الحصار مات يزيد واضطرب [illegible] وبلا أمر [illegible] الزبير [illegible] العالم الإسلامى [illegible] الحصار على [illegible] لنواحى [illegible] ابن الزبير [illegible] أحسن [illegible] فى الكوفة [illegible]

---

(١) الطبرى [illegible] ص ٥

يرغب الفتنة ويعمل على إشعال الثورات ، وسأل المختار بعض القادمين من الكوفة فأُخبر أنهم يتبعون ابن الزبير ، ولكنّ بها رجالا يكتمون أمرهم وينتظرون من يقودهم ليأكل بهم الأرض . قال المختار : أنا أبو إسحق أنا والله لهم ، أنا أجمعهم على الحق وأنفى بهم ركبان الباطل ، وأقتل بهم كل جبار عنيد . وبدأ رحلته إلى الكوفة مهد الثورات ومركز الفتن[1] .

وفى الكوفة وجد المختار ثورة التوابين فى مطلعها وحاول أن تكون له قيادتها ولكن أغلب الشيعة اختاروا سليمان بن صرد لقيادتهم ، ولم ينضم إليهم المختار بل جلس ينتظر . وتشكك فيه عامل ابن الزبير فحبسه فلما هُزِم التوابون وعاد شتاتهم إلى الكوفة انتهز المختار هذه الفرصة فكتب إلى قائدهم رفاعة بن شداد من السجن يقول : أما بعد فمرحبا بالعصب الذين عظم الله لهم الأجر حين انصرفوا ، ورضى انصرافهم حين قفلوا ، أما ورب المنية التى بنَا ما خطا خاط منكم خطوة ، ولا رتا رتوة إلا كان ثواب الله له أعظم من ملك الدنيا ، وإن سليمان قد قضى ما عليه وتوفاه الله فجعل روحه مع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، ولم يكن بصاحبكم الذى به تُنصرون ، إنى أنا الأمير المأمور . والأمين المأمون ، وأمير الجيش ، وقاتل الجبارين ، والمنتقم من أعداء الدين . والمقيد من الأوتار . فأعدوا ، واستعدوا ، وأبشروا ، واستبشروا ، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى الطلب بدماء آل البيت والرفع عن الضعفاء وجهاد المحلين[2] [illegible] داك [illegible] إن المختار [illegible] [illegible] قيادته .

[illegible]

---

(١) [illegible]

(٢) [illegible] ص ١١.

أهل البيت والثأر من قاتلى الحسين وصحبه ، ولكنه فى نفس الوقت أمَّن عمر بن سعد وجالسه ولم يتعرض لقتلة الحسين بسوء[١] ، حتى قال ابن الحنفية لبعض رجالات المختار : إنه يدعى أنه لنا شيعة وقتلة الحسين جلساؤه على الكراسى يحدثونه[٢] . وادعى المختار أنه يسير على سنة القرآن وهدى الإسلام ، ولكن ظهرت منه ألوان من الضلالات تبعده عن الإسلام وحوزته ، فمن ذلك أنه كان عنده كرسى قديم قد غشاه بالديباج وزينَّه بأنواع الزينة ، وقال : هذا من ذخائر أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبنى إسرائيل ، وكان إذا حارب خصومه حمله فى الصف الأول وقال : قاتلوا ولكم الظفر والنصرة . وله أسجاع يقلد بها القرآن ووعود يدعى بها علم الغيب فإن تحققت جعل ذلك دليلا على صدق دعواه ، وإن لم تتحقق قال : قد بدا لربكم ، وذلك هو القول بالبداء ، أى أن الله يغير رأيه لأنه يبدو له شىء جديد[٣] .

وهكذا نجد فى ادعاء المختار للتشيع لوناً جديداً لم نره من قبل ، فقد رأينا مدعى التشيع يقصدون إلى تهديم الإسلام ، ولكن المختار ادعى التشيع قاصداً الجاه والمال .

وقد تشكك بعض الشيعة فى أمر المختار عند ما بدأ أمره يظهر ، فذهب وفد منهم إلى محمد بن الحنفية يسألونه رأيه فيه ، وأجاب ابن الحنفية جواباً مبهما إذ قال : والله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ، وعاد هؤلاء بذلك القول فاتخذه المختار دليل تأييد له من ابن الحنفية ، وجمع الجموع حيث خطب أعضاء هذا الوفد وذكروا أن ابن الحنفية يؤيد المختار[٤] .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٤٩ (٢) المرجع السابق ص ٥٣٣

(٣) [illegible] الملل والنحل ج ١ ص ١٣٢ – ١٣٣

(٤) [illegible] ص ٥٢٢

وقيل للمختار : إن ابراهيم بن الأشتر هو القائد المهيب الجانب فى الكوفة وإنه إذا انضم للمختار ضمن المختار ألواناً من النجاح ، وكان إبراهيم متشككاً فى أمر المختار ، ولكن المختار لم يدعه للشك فوضع خطاباً على لسان ابن الحنفية وقفله وختمه وحمله إلى ابن الأشتر وأحضر من الشهود من أيّد أن هذا الخطاب من ابن الحنفية . فلما قرأه إبراهيم ووجد فيه اعتراف ابن الحنفية بأن المختار وزيره ورسوله للطلب بدماء آل البيت ، ووجد فيه كذلك أمراً من ابن الحنفية لإبراهيم أن ينضم للمختار مع أهله وعشيرته ، خضع إبراهيم للأمر وانضم ، فكان من أكبر عوامل النصر التى تحققت للمختار[1] .

وتجمعت للمختار بذلك عوامل الأمل فى النصر فبدأ كفاحه المسلح وانتصر فيه ، فهزم أنصار عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير على الكوفة ، وخلص له الأمر فيها وامتد ملكه حتى الموصل وهبت بالبصرة ثورة تؤيده وقرب بذلك من القمة[2] .

ولكن الكوفة لم تجد فى المختار قط ما يدعوها للاطمئنان إليه وتصديقه فيما يدعيه ، فقد كان حتى الآن يسمح لقتلة الحسين بمصادقته ومجالسته ، وكانت ترهاته وأباطيله تفشو وتزداد . وكان ابن الأشتر نفسه يراوده الشك وهو يحمل هذا الكرسى فى حروبه . فليس له بذلك عهد فى الحروب الإسلامية . ولكن تصديق ابن الأشتر كان أقوى من شكه فبقى مخلصاً له إلى حين .

وخطا المختار خطوة أخرى يريد أن يتوج بها انتصاراته فبدأ يحارب عبيد الله بن زياد . وأرسل المختار لذلك جيشاً بقيادة يزيد بن أنس ، ولكن جيش الشام غلبه ومات يزيد فى هذه المعركة ، فأرسل المختار جيشاً آخر بقيادة قائده الأول إبراهيم بن الأشتر . ووجدت الكوفة الفرصة

---

(١) اقرأ نص الخطاب فى الطبرى ج ٤ ص ٤٩٥

(٢) المرجع السابق ص ٥٠١ وما بعدها

للثورة على المختار ، فقد بدأ ينهزم أمام أهل الشام ، وقد خلت الكوفة من قائده المهيب وأكثر أتباعه ، فهبت بالكوفة ثورة عارمة ، أعلن قائدوها أن المختار كذاب وأنه غير مؤيد إطلاقاً من محمد بن الحنفية ، وأحاطت الثورة بقصر الرياسة وفيه المختار ومنعوا عنه الماء وهددوا حياته ، ولكن ذكاء المختار لم يخنه ، فعالج أمره بحكمة أنقذته من هزيمة محققة . فأسرع وأرسل سراً يستدعى إبراهيم بن الأشتر وجيشه ، وفى نفس الوقت كتب للثوار يطلب أن يرسلوا وفداً مشتركاً لابن الحنفية ليستبين للناس رأى ابن الحنفية ، وكان يقصد بذلك الإبطاء والتأخير حتى يعود جيش ابن الأشتر ، وعاد هذا الجيش ، وتولى المختار قيادة جزء منه وتولى ابن الأشتر قيادة الجزء الآخر وأنزلا بالكوفة هزيمة شنيعة ، ووجد المختار الفرصة سانحة ليتخلص من قتلى الحسين . فنكل بهم وقتلهم ، إرضاء للشيعة من جهة وانتقاماً منهم لما أبدوه من تأييد للثائرين ضده من جهة أخرى ، وكان فى قمة من قتلهم عمرُ بنُ سعد بن أبى وقاص وابنه[1] .

وعاد المختار بعد أن أخضع الكوفة لحرب عبيد الله بن زياد فأرسل إليه جيشاً كثيفاً بقيادة ابن الأشتر فى ذى الحجة سنة ٦٦ هـ . وفى مطلع العام التالى دارت معركة عنيفة عند نهر خازَر بالقرب من الموصل بين ابن الأشتر والطاغية ابن زياد ، وقد استطاع ابن الأشتر أن يضرب ابن زياد ضربة قدته نصفين ، وسقط فى هذه المعركة أيضاً الحصين ابن نمير السكونى الذى سبق له أن حاصر الكعبة ورماها بالمنجنيق . ووصل المختار بذلك إلى قمة مجده فدانت له الموصل وأرمينية وآذربيجان ، وأرسل رأس ابن زياد إلى المدينة وأحرق جثته[2] .

ولكن المختار لم يدم فى القمة طويلا ، فقد اجتمعت عليه عوامل

---

(١) ا - ج - ص ٥٢٢

(٢) ... ص ٥٥٥

هزت المجد الذى يجلس عليه ، وأهم هذه العوامل ترهاته وأباطيله التى كانت تزيد كل يوم ظهوراً ووضوحاً مما جعل ابن الحنفية يعلن براءته منه[١] ، وقد سبب هذا الإعلان خسارة كبيرة للمختار فقد فر عنه قائده الأعظم إبرهيم بن الأشتر وبقى بالموصل ، بعد هزيمته لعبيد الله ابن زياد ، وظهرت الجفوة بين المختار وبينه ، ومن العوامل التى أضعفت المختار كثرة الدماء التى سفكها بالكوفة ليصل إلى المجد أو ليحافظ عليه بعد أن وصل إليه ، ومنها كذلك أنه اعتمد على أهل الكوفة واتخذها عاصمة له ، ولا بد أن يهوى إلى القاع كل من اعتمد على الكوفيين أو وثق بهم . ثم يجىء العامل الأهم وهو أن انتصارات المختار جعلته منافسا لخليفتين عظيمين أحدهما عبد الله بن الزبير بمكة والثانى عبد الملك بن مروان بدمشق ، وهيهات أن يستطيع المختار أن يصمد لهذين البطلين أو لهذه العوامل مجتمعة .

وعين عبد الله بن الزبير أخاه مصعبا واليا على البصرة وأمره بحرب المختار . وصحب مصعب معه بطلا مغوارا هو المهلب بن أبى صفرة ودارت معركة عنيفة بحمَّام أعيَن قضى فيها على جيش المختار الذى كان يقوده أحمر بن شميط بعد أن اعتزل ابن الأشتر قيادة جيوش المختار . ولم ينج من جيش المختار إلا الفرسان الذين ولوا بخيولهم هاربين . وانتهز أهل الكوفة هذه الفرصة فانفضوا من حول المختار وثاروا عليه ، وسرعان ما وجد نفسه وحيداً ليس معه أحد ، فنزل بسيفه يحارب ويقاتل حتى خرّ قتيلا فى شوارع الكوفة . وكان ذلك فى نفس السنة التى قتل فيها عبيد الله ابن زياد . وكانت تلك نهاية المختار[٢] .

بقى شىء يتعلق بهذه النهاية . ذلك أن المختار — كما ذكرنا من قبل — كان قد أسرف فى التنكيل بأهل الكوفة والفتك بأشرافها عقب

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٣٣

(٢) اليعقوبى ج ٣ ص ٩ والطبرى ج ٤ ص ٥٧٠

ثورتها الأولى عليه ، وكان الموالى يمثلون عصب جنده فى هذه الجولة ، فلما هزمت جيوش المختار أمام مصعب هبّ أهل الكوفة ليثأروا لأنفسهم مما انزله المختار وأتباعه الموالى بذويهم من فناء وتدمير ، وشجعهم على ذلك مصعب بن الزبير ، وكان نتيجة ذلك أن خر فى المعارك عدد كبير واستسلم آلاف من أتباع المختار وأكثرهم من الموالى ولكن مصعبا أعمل فيهم السيف بعد الاستسلام ، وقد عيب ذلك على مصعب ؛ ويروى أنّ عبد الله بن عمر رأى مصعبا بعد هذه الحادثة فصاح به : أنت قاتل سبعة آلاف من أهل القبلة فى غداة واحدة ؟ فأجابه مصعب مدافعاً عن نفسه : إنهم كانوا كفرة سحرة . فقال ابن عمر : والله لو قتلت عدتهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفا[1] .

الزيدية :

بطلا الزيدية هما زيد بن على بن الحسين وابنه يحيي بن زيد ، وقد قتل أولهما بالكوفة سنة ١٢١ هـ وقتل الثانى بخراسان سنة ١٢٥ هـ ، وليس معنى هذا أن الكوفة هدأت بين مقتل المختار سنة ٦٧ هـ ومقتل زيد بن على سنة ١٢١ هـ ، لا ، فقد اشتبكت الكوفة فى ألوان من الصراع غير شيعية كثورة ابن الأشعث وغيرها من الثورات الكبيرة والصغيرة حتى أخضعها الحجاج بالعصا والسلطان فطأطأت الرأس حتى هبّت على يد زيد بن على .

وقد تكلمنا فيما سبق عن زيد بن على ومبادئه . ولم يكن زيد بن على من سكان الكوفة . وإنما ساقه إليها ما ساق سواه من المطالبين بالخلافة من الشيعة من الوعود الخلابة والأيمان المغلظة والعهود والمواثيق التى سرعان ما تختفى وتذوب ، وقد أعدّ زيد نفسه للخلافة واستجمع كل الشروط التى يراها لازمة لحمل هذا العبء من عدالة وعلم وشجاعة ولم يبق إلا أن يطالب بها ، فانتظر الفرصة التى تسنح بذلك .

---

(١) الطبرى جـ ، ص ٥١٢

وكان خالد بن عبد الله القسرى والياً لهشام ، ثم غضب هذا عليه وألزمه بغرامة كبيرة ، ويقال إن خالداً ادعى أن له أموالا عند زيد بن على ليتخلص من العذاب الذى كان نازلا به ، فطولب زيد بن على بهذا المال فأنكر أن لديه أموالا لخالد فسيق إلى الكوفة لمواجهة خالد ، وكان يوسف ابن عمر هو أمير الكوفة آنذاك ، وتمت المواجهة فاعترف خالد أنه ليس له مال عند زيد ، وأُخرج زيد من الكوفة دون إبطاء خوفاً من التفاف الشيعة حوله ، واتخذ زيد طريقه إلى المدينة ولكن أهل الكوفة تبعوه ، ويروى لنا اليعقوبى والطبرى وابن طباطبا وغيرهم أنَّ أهل الكوفة قالوا لزيد نفس العبارات التى قالها أجدادهم لأجداده ،وسلكوا معه نفس السلوك الذى سلكه أجدادهم مع أجداده ، وأكدوا له كما أكد أجدادهم من قبل أنهم هذه المرة لن يخونوا ولن يسلموه ، ومن عباراتهم التى توردها المراجع السابقة قولهم : أين تذهب يرحمك الله ومعك مائة ألف سيف نضرب بها دونك ، وليس عندنا من بنى أمية إلا نفر قليل لو أن قبيلة واحدة منا صمدت لهم لكفتهم بإذن الله . فقال : يا قوم إنى أخاف غدركم فإنكم فعلتم بجدى الحسين ما فعلتم . فقالوا : نناشدك الله إلا ما رجعت ونحن نبذل أنفسنا دونك ونعطيك من الأيمان والمواثيق والعهد ما تثق به . . . . ووقع الرجل العالم المفكر فى نفس الخطأ الذى ارتكبه أسلافه ، ووثق بقوم ليسوا جديرين بالثقة ، والتف حوله آلاف من الرجال وشرعوا الأسلحة ، وأعلن زيد دعوته ، فهب فى وجهه يوسف بن عمر ، ومعه قليلون من أهل الشام . ولكن يوسف سرعان ما جذب الرجال من صفوف زيد . فإذا بصفوف زيد تتناقص ورجال يوسف يتكاثرون . ونظر زيد فوجد الناس قد انفضوا عنه وخذلوه وأسلموه . ولم يبق معه إلا شرذمة يسيرة ظل يجاهد بها جهاداً لا أمل فيه حتى هوى . ودفن أتباعه القليلون جثته ، ولكن يوسف بن عمر دل عليها فأخرجها وصلبها ثم حرقها وذرى رمادها فى

الفرات[١] وانتهت بذلك ثورة أخرى من ثورات الكوفة .

وفر من المعركة بعد قتل زيد ابنه يحيي فاتجه متنكرا إلى خراسان حتى وصلها ، وحط رحاله فى بلخ وتوارى بها فكتب يوسف بن عمر بذلك إلى هشام ، فكتب هذا إلى نصر بن سيار يحذره من يحيي ، وقد استطاع نصر أن يلقى القبض على يحيي ويودعه السجن ، ولكن يحيي استطاع أن يهرب من سجنه ويجد له بعض الأنصار الذين التفوا حوله ، والعجيب أنه استطاع بجماعة لا تزيد عن مائة وعشرين رجلا أن يهزم جيشاً يقوده عمرو بن زرارة القسرى عامل نيسابور ، . وقُتل عمرو هذا فى المعركة . فكبر شأن يحيي وكثر أتباعه وسلاحه وأصبح خطراً يهدد الأمويين وكان ذلك فى عهد الوليد بن يزيد ، فاضطر نصر بن سيار أن يواجهه بنفسه بجيش كثيف بالقرب من مَرْو ، ودارت معركة عنيفة انتهت بقتل يحيي وصلبه ثم حرقه على نحو ما فُعِل بأبيه[٢] .

وانتهت ثورات الزيدية بذلك ولكن انتقال ميدان ثورات الشيعة من الكوفة إلى خراسان كان ذا أثر كبير جداً ، فلم تكن فى خراسان خيانة الكوفة ، ولذلك لم تهدأ خراسان وظلت تكافح الأمويين حتى أسقطتهم على نحو ما سيجىء عند الكلام عن قيام الدولة العباسية فى الجزء التالى من هذا الكتاب إن شاء الله .

---

(١) انظر اليعقوبى ج ٣ ص ٥٦ وما بعدها والطبرى ج ٥ ص ٤٨٢ وما بعدها والفخرى لابن طباطبا ص ١١٢ وما بعدها .

(٢) اليعقوبى ج ٣ ص ٥٧ و ٦١ والطبرى ج ٥ ص ٥٣٦ — ٥٣٨

عبد الله بن الزبير

هل كانت لعبد الله بن الزبير فلسفة ؟

وهل تُعَدُّ الحركة التي قام بها ثورة فكرية ؟ وهل تعد ثورة عسكرية ؟

الجواب عن هذه الأسئلة يوجِّه حكمنا على عبد الله بن الزبير في نتائج الحركة التي قام بها ، لقد قال كثير من الباحثين إن عثمان أخطأ . وقلنا عند حديثنا عن عثمان تعبيراً قصيراً ولكنه بالغ الأهمية . وهو أنه كانت لعثمان فلسفة اتبعها . أي أنه اجتهد ووصل إلى رأي رضي به واقتفاه[1] . والمجتهد قد يخطئ وقد يصيب . وهذا يخفف من ذنب عثمان إن كان فيما عمل ذنب . أو لا يلحق به ذنباً أصلا إن كان في طبيعة ما قام به ما يستدعي الذنوب .

فهل كانت لابن الزبير فلسفة ؟ وهل كانت ثورته قائمة على مبادئ وفكر ؟ وإذا لم تكن كذلك فهل كانت ثورة عسكرية فحسب ؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تستدعي ألواناً من البحث والعرض والأدلة سنحاول أن نقوم بها . ولكنا بادئ ذي بدء نسارع فنقرر أنه لم تكن لعبد الله ابن الزبير فلسفة عامة على الإطلاق . وأن ثورته لم تكن ثورةً من أجل مبادئ ، بل إنها لم تكن كذلك ثورة عسكرية .

تعال بنا نبدأ الحديث من أوله :

عبد الله بن الزبير موضوع حديثنا الآن ولد بالمدينة بعد سنة تقريباً من الهجرة . وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة . ولذلك فرح به المسلمون . وهو عريق النسب من جهة أبيه وأمه . ونشأته عالية رفيعة . فوالده الزبير بن العوام أحد السابقين الأولين وأحد الأبطال المشاهير في الجزيرة العربية . قيل له مرة وقد ضرب عدوه بسيفه ضربة قسمته نصفين . ما أحَدَّ سيفك ! ! فغضب وقال : ليس السيف ولكن اليد التي ضربت به[2] . وأمه أسماء امرأة التي اشتهرت بالحكمة والفصاحة وثبات الجنان . وجدّه لأمه من خير

---

(١) انظر التاريخ [illegible] جـ ١ ص ٢٣٠

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ١٢٠

الأجداد ، إنه طيب الذكر أبو بكر الصديق الذى تجمعت له أكرم الصفات. وأسمى الخلال ، وجدته لأبيه صفيه بنت عبد المطلب عمة الرسول صلوات الله عليه ، أسلمت وهاجرت ، وخالته عائشة زوجة الرسول الحبيبة[١] ، ولما لم يكن لعائشة أولاد فقد أخذته من أختها أسماء ، فنشأ فى بيت الرسول وأصبح كأنه ابن عائشة حتى كان يقال لها : أم عبد الله .

هل بعد هذا نسب ؟ وهل فوق تلك نشأة ؟ اللهم لا .

ولكن علماء النفس والأخلاق لا يدعون الغريزة ظهريا ، ويرون أن البيئة قد تُغيِّر من الغريزة ولكنها لا تزيلها ، فما أبرز الغرائز فى عبد الله ؟ لقد أجمعت كل المراجع التى بين أيدينا على أن ابن الزبير كان بخيلا كزًّا ممسك اليد ، ولم يغير سخاء أبى بكر وقناعة الرسول من خلق عبد الله ، وأخذ عبد الله من الجو الذى انحدر منه والذى عاش فيه خصلة كان فيها رداه ، تلك أنه عاش فى بيت الرياسة والسؤدد بيت الرسول ، ولما مات الرسول اتجهت السلطة إلى جده أبى بكر ، وبعد وفاة عمر كان أبوه من المرشحين الستة للخلافة وكان له فيها أطماع ، وهذا دفع عبد الله إلى حب الرياسة وتمنِّى السلطان ، وغريزة حب السلطة طبيعية ، ونمَّتها هذه الظروف فى بطل حديثنا ، ونمَّاها كذلك ذكاء فيه وورع وإحساس بالكمال أو ما يقرب من الكمال .

ولكن قامت دونه حواجز كما قامت دون أبيه ، فبنو هاشم وبنو أمية أعرق محتدا وأوسع جاها وأكثر أنصاراً ، ومن هنا دب فيه عامل الحقد والحسد ، وإذا اجتمع الحقد والذكاء والحرمان كانت النتيجة ناراً ملتهبة يمتد لهيبها فيحرق كثيرين بالحق أو بالباطل .

وهذا هو المفتاح الذى يُبرز لنا حقيقة هذا الرجل : طموح للرياسة ، وإدراك أن دونها عقبات ، وعجزٌ عن مقابلة هذه العقبات وجها لوجه . وحيل غير كريمة لإزالة هذه العقبات من طريقه .

---

(١) النووى : تهذيب الأسماء واللغات القسم الأول جـ ١ ص ٢٦٦ - ٢٦١

وقد بدأت هذه الأطماع فى عبد الله مبكرة ، وقد تحدثنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب عن الدور الذى لعبه ليدفع خالته عائشة إلى حرب الجمل[1] رغبة أن يزيل من طريقه على بن أبى طالب الذى كان دون مراء يفضل عبد الله بن الزبير فى كل شىء ، وكانت معركة غاشمة ظالمة سقط فيها الآلاف رجاء تحقيق هذا الطموح دون جدوى . ومن الواضح أن هذا الرجل لم يواجه المشكلة بصراحة ، بل استتر خلف خالته ، ودفعها إلى هذا الأتون ، واستتر كذلك خلف أبيه وخلف طلحة بن عبد الله .

والإنسان يحار فى تحايل هذه الحادثة العجيبة ، ويدهش كيف جاز لرجل أن يدفع خالته لمثل هذا الصراع ، وليست لنا خالات مثل عائشة ، ومع هذا لا نرى من يدفع خالته إلى مثل هذا اللظى ليحقق لنفسه أملا غير مشروع ، وقد قلنا من قبل إن ابن الأشتر كبَّ عبد الله على وجهه فتظاهر هذا بالموت وترك خالته وحدها هدفاً للسيوف والحراب .

وخاب أمله على كل حال فى هذه المرة وبدأ يبحث عن أمل جديد .

وأشرق هذا الأمل ، فقد قُتل على ومات معاوية ، وآل الأمر إلى طبقة ابن الزبير من أبناء الصحابة ، لقد تولاه يزيد ببيعة من أبيه ، وكان ظاهرا أن الناس لم يحبوا أن يجتمعوا على يزيد ، فانْتَسَمُ الأمل فى نفس عبد الله ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك وهناك الحسين ؟ وله من محتده وأسرته وشيعته ما يجعله أحق بالأمر منه ، وقد ذاق عبد الله الهزيمة عند ما حارب عليا فأنَّى له بحرب الحسين ؟

لقد لجأ عبد الله إلى حيلة خبيثة سبق أن شرحناها وهى أن دفع الحسين ليستجيب لنداء الكوفة وهو يعرف صبغه الغدر فى رجالها وطبيعة الخيانة . وسقط الحسين ، فقوى الأمل فى نفس عبد الله . وجدَّت ظروف أخرى جعلت كفته ترجح . فقد هزت مصيبة كربلاء بنى هاشم فأخلدوا حيناً

---

(١) انظر التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للمؤلف حـ ١ ص ٢٤٧ وما بعدها .

إلى الدعة ، وجرت موقعة الحرة التى سقط فيها كثير من أبناء المهاجرين والأنصار فزاد سخط الناس على يزيد ، وهوجمت مكة ورميت الكعبة بالمنجنيق ، ومات يزيد ، وضعف ابنه معاوية عن تولى الأمر ، وانقسمت دمشق على نفسها ، وكل هذه الظروف جنى ثمارَها عبدُ الله بن الزبير .

فلنبرز مرة أخرى أن الرجل لم تكن له عبقرية فيما حصل عليه ، وإنما ساقته له الأقدار . وأنه لم يقم بثورة عسكرية دبرها وقادها ، وإنما هى ثورات فى الكوفة والبصرة والمدينة لأسباب متعددة ، ثم قسوة عنيفة أخمد بها يزيد هذه الثورات . فلما مات يزيد وانقسم الأمويون على أنفسهم حانت للرجل الرابض فى مكة الفرصة التى ينتظرها ، فتلقاها وبنى مجده على أشلاء هذه الضحايا ، ومن الواضح أنه لم يخرج مرة لقيادة جيش ، ولم يجازف مرة ليحمى ما حصل عليه من ملك ، كما سنرى فيما بعد موقفه مع الحصين بن نمير ، وإنما بقى فى مكة ، وكانت تَرِدُ له البيعة فيها من هنا ومن هناك . ولا شك أن كفته تشيل إذا قارناه بندِّه عبد الملك بن مروان الذى طُلِب إليه أن يكف عن قيادة الجيوش فأبى وألقى بنفسه فى خضمّ الصراع .

بقيت نواح أخرى جديرة بالإيضاح فى حياة هذا الرجل العجيب نذكرها فيما يلى :

أولا : لم تكن شجاعة ابن الزبير [illegible] حتى [illegible] الناس إليه ، [illegible] كان [illegible] أعدائه . [illegible] . [illegible] عبد الله [illegible] .

[illegible] عبد الله [illegible] (١)

وقد [illegible] أولاده [illegible] .

---

(١) [illegible]

ولم يقبل أولاد مصعب أن يتركوا أباهم فى محنته على الرغم من أن أباهم حثهم على ذلك ، وفضلوا أن يموتوا بين يديه .

ثانياً : كان الرجل ممسكا كزًّا وإذا جاز لهشام بن عبد الملك مثلا أن يكون بخيلا فلا يجوز ذلك لعبد الله بن الزبير لأن هذا يكوّن مُلْكًا وطبيعة هذا العمل تحتاج إلى السخاء ، ومن العجيب أنه كان كزاً حتى فى أحرج الأوقات ، وحين كان الدينار يكسب لصاحبه النصر .

ثالثاً : كان هذا الرجل أنانيا إلى أبعد حدود الأنانية ، يروى اليعقوبى[1] أن عبد الله لما هدم الكعبة أخذ الحجر الأسود فوضعه فى بيته ، فلما بلغ البناء إلى موضع الحجر أمر فحفر له الحفار على قدره ، ثم أمر ابنه عبادا أن يأتى بالحجر فيضعه فى مكانه عندما يكون الناس فى صلاة الظهر مع عبد الله ، وأطال عبد الله الصلاة بالناس ليعطى ابنه فرصة الاستقلال بهذا العمل ، فلما أتم عاد وضع الحجر كبر فختم أبوه الصلاة . وقد غضب المسلمون لهذا التصرف وقالوا : ما هكذا فعل رسول الله . ولقد حكّمته قريش فجعل لكل قبيلة نصيباً ، ولكنها أنانية الرجل حتى فيما يسخط ولا يفيد .

رابعاً : بنى عبد الله بن الزبير مجده على أشلاء أهل البيت . فلما تقدم أمره اضطهدهم وقسا عليهم وتطوّر فى ذلك — إذا صح ما يقوله اليعقوبى — إلى درجة [illegible] إسلامه كما سنرى فيما بعد . أما أنه [illegible] مجده على أشلاء أهل البيت فيوضحه لنا [illegible] الحسين . [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وأخزى [illegible]

(١) [illegible] ج ٣ ص

حسين ، أفبعد الحسين نطمئن إلى بنى أمية أو نقبل لهم عهدا ؟ لا ولا نراهم لذلك أهلا ، أما والله لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه ، كثيرا فى النهار صيامه ، أحق بما هم فيه منهم وأولى به فى الدين والفضل ، أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء ، ولا بالصيام شرب المدام ، ولا بالمجالس فى حلق الذكر الركض لتطلاب الصيد ، فسوف يلقون غيا (وكان فى ذلك يعرض بيزيد) فثار إليه السامعون ، وقالوا له : أيها الرجل أظهر بيعتك فإنه لم يبق أحد بعد الحسين ينازعك هذا الأمر . وكان ذلك بدء أمره[١] .

أما اضطهاده لبنى هاشم بعد أن تقدم أمره ومدى هذا الاضطهاد فيرويه اليعقوبى بقوله : وتحامل عبد الله بن الزبير على بنى هاشم تحاملا شديدا ، وأظهر لهم العداوة والبغضاء ، حتى بلغ ذلك منه أن ترك الصلاة على محمد فى خطبته ، فقيل له : لِمَ تركت الصلاة على النبى ؟ فقال : إن له أهل سوء يشرئبون لذكره ويرفعون رءوسهم إذا سمعوا به ، وأخذ ابن الزبير محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وأربعة وعشرين رجلا من بنى هاشم ليبايعوا له فامتنعوا فحبسهم ثم نفاهم ، نفى ابن عباس إلى الطائف وظل بها حتى مات ، ونفى محمد بن الحنفية إلى رضوى فظل بها حتى مات أيضاً ، وانتهك بذلك حرمة الحرم فأزعج من استجار به[٢] .

خامسا : لقد حاول الرجل أن يستسلم إلى الحجاج . ولولا أمه لفعل ذلك . وتلك خطيئة كبرى لا يعرفها المجاهدون وأصحاب المبادئ وقادة الثورات ، وإنما هى رضا بالدنية من أجل الحياة الفانية .

ونتيجة هذه الدراسة أنه لم تكن هذا الرجل فلسفة ، ولم تكن ثورته ثورة مبادئ . بل لم تكن ثورة عسكرية أيضاً ، وأنه لذلك

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٦٤

(٢) تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ٧ – ٨ والعقد الفريد ج ٤ ص ٤١٣ وفى رواية ابن عبد ربه أن الذى أخرج بنى هاشم من السجن رجال بعث بهم المختار بن أبى عبيد وانظر كذلك الطبرى ج ٤ ص ٥٤٤ – ٥٤٥

مسئول عن الدماء التى أراقها ليحقق لنفسه حلماً وليبنى لنفسه مجداً . ولم يكن له من خلقه ولا من عبقريته ما يستطيع به أن يواجه الأحداث أو يملأ المنصب الكبير الذى حاول أن يناله .

والآن نستطيع أن نذكر بإيجاز الخطوات التاريخية المتسلسلة للثورة التى قام بها ابن الزبير .

قلنا من قبل إن الناس دَعَوْه عقب قتل الحسين وعقب خطبته السابقة ليعلن نفسه خليفة . وكان هذا هو الأمل الذى يتطلع إليه ، فسارع وأعلن خلافته وخلع يزيد وبايع له أهل مكة ، وكان ذلك سنة إحدى وستين[1] .

وفى نفس هذا الوقت أو بعده بقليل أظهر أهل المدينة سخطهم على يزيد ثم ثاروا عليه وعزلوه وأخرجوا بنى أمية من المدينة كما قلنا من قبل ، والعجيب أن أهل المدينة خلعوا يزيد ولكنهم لم يبايعوا لابن الزبير ، وذلك بلا شك دليل سخطهم عليه وعدم اطمئنانهم إليه ، وعلى إثر ثورة المدينة تمت موقعة الحرة حيث أهلك جيش الأمويين بقيادة مسلم بن عقبة خيرة أبناء المهاجرين والأنصار . وأباح المدينة لرجاله ثلاثة أيام كما سبق القول ، والعجيب كذلك أن ابن الزبير لم يحرك ساكنا ، ولم يتقدَّم لمساعدة أهل المدينة فى صراعهم ضد بنى أمية ، وبقى فى مكة ينتظر دوره وزَحْفَ الجيش الأموى عليه، وذلك فعل النعامة التى تغمض عينها عندما يقرب منها الخطر ظانَّةً أن فى ذلك سلامتها مع أن فيه حتفها .

وزحف جيش الأمويين المنتصر من المدينة إلى مكة . وكانت قيادته قد آلت إلى الحصين بن نمير بعد موت مسلم بن عقبة . ونزل الحصين أعلى مكة وأرسل خيلا فأخذت أسفلها ونصب عليها المجانيق وضربها

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٦٣

بالحجارة واستمر حصارهم لها طيلة الشهور الأربعة الأولى من سنة ٦٤ هـ حتى جاءهم الخبر بهلاك يزيد[١] ، وفى تلك الأثناء احترقت الكعبة بسبب شرارة تطايرت إليها من النار التى كان يشعلها أنصار ابن الزبير[٢] .

ولما جاء الخبر بموت يزيد أوقف الحصين ضربه وفك حصاره والتقى بعبد الله بن الزبير وأسرّ إليه قائلا : إن يكن هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر ، هلم نبايعك ، ثم اخرج معى إلى الشام فإن هذا الجند الذى معى هم وجوه أهل الشام وفرسانهم فوالله لا يختلف عليك اثنان ، وتُؤَمِّن الناس وتهدر الدماء التى كانت يوم الحرة ، ولكن عبد الله رد عليه جهرا رداً قاسياً . قال الحصين له : قبّح الله مَن يعدُّك داهية ، أكلمك سراً وتكلمنى جهراً ، وأدعوك للخلافة وتَعِدُنى القتل والهلكة ، ثم تركه وعاد للمدينة ، وندم ابن الزبير على الذى صنعه مع الحصين ، فأرسل خلفه يطلب بيعته وأن يأخذ له البيعة من أهل الشام على أساس أن يبقى عبد الله فى مكة فرفض الحصين ذلك[٣] .

وضعف معاوية بن يزيد عن حمل هذا العبء الثقيل الذى خلفه له أبوه ، واختلف بنو أمية على الخلافة ، وبدأت دلائل النصر تبدو لابن الزبير . فقد حقق كثيراً من النجاح فى حربه ضد الخوارج[٤] وانهزم جيش ابن زياد الزاحف على العراق وقتله المختار ، ثم دارت الدائرة على المختار وصرعه مصعب . واتسع ملك ابن الزبير حتى شمل مصر والكوفة والبصرة ومَن بالقبلة من العرب وأهل الشام وأهل الجزيرة إلا أهل الأردن[٥] .

---

(١) الامامة والسياسة ٢ ص ١٠
(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٣٨٣
(٣) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٣٨٦
(٤) سيأتى الحديث عن ابن الزبير والخوارج عند كلامنا عن الخوارج .
(٥) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٤٠٨

بدء النهاية :

وبدأت نهاية الرجل تلوح عندما استقر الأمر لمروان بن الحكم فى الشام ، فقد سارع هذا وهزم أتباع ابن الزبير فى سوريا فى موقعة مرج راهط ، ثم سار إلى مصر ومعه ابنه عبد العزيز فدانت له ، وجاء عبد الملك بن مروان بعد أبيه فبدأ زحفه إلى الشرق وبدأ صراعه مع مصعب بن الزبير الذى كان واليا لأخيه على العراقين ، وهُزِم مصعب وقتل عند نهر يقال له « الدجيل » سنة ٧١ هـ ولكن هزيمة مصعب فى الحقيقة كانت سياسية أكثر منها حربية ، وقد أسهم أخوه عبد الله فى هزيمته ؛ يروى ابن قتيبة(١) أن مصعبا جاء بعد قتل المختار حاجا ومعه رؤساء أهل العراق ووجوههم وأشرافهم ، فقدّمهم إلى أخيه قائلا : يا أمير المؤمنين ، قد جئتك برؤساء أهل العراق وأشرافهم ، كل مطاع فى قومه ، وهم الذين سارعوا إلى بيعتك ، وقاموا بإحياء دعوتك . ونابذوا أهل معصيتك ، وسعوا فى قطع عدوك ، فَهَبْ لهم وأعطهم . فقال عبد الله : جئتنى بعبيد أهل العراق وتأمرنى أن أعطيهم مال الله . لا أفعل ، وأيم الله لوددت أنى أصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم ، عشرة من هؤلاء برجل من أهل الشام . قال رجل منهم : عاقناك وعلقت أهل الشام . ثم انصرفوا عنه وقد يئسوا مما عنده . لا يرجون رفده . ولا يطمعون فيما معه . فاجتمعوا وأجمعوا على خلعه وكتبوا إلى عبد الملك ابن مراون أن أقبل إلينا .

هذا سبب من الأسباب التى هزمت مصعب . وهناك سبب آخر هو طبيعة أهل العراق التى تدفعهم دائماً للغدر والخيانة فى جميع الأحوال . وسبب ثالث هو حيلة قام بها عبد الملك بن مروان . فقد كتب لرؤساء جند

---

(١) الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٢٣

مصعب يدعوهم للانضمام إليه ويعد كلاً منهم الوعود الخلابة والمال والجاه والسلطان ، وكان إبراهيم بن الأشتر أحد هؤلاء ، فقد تلقى من عبد الملك كتابا مقفلا أدرك إبراهيم ما فيه فأخذه إلى مصعب وتولى مصعب فتحه بنفسه . قال مصعب : إنه يعدك بالجاه والمال إذا خذلتنى . قال إبراهيم : وقد كتب بمثل ذلك إلى كل القادة ، والرأى عندى أن تقتل هؤلاء القادة الخونة قبل أن يوجهوا الحرب ضدك . قال مصعب : ما كنت لأفعل ذلك حتى يستبين لى أمرهم . قال إبراهيم فأخرى . قال مصعب : ما هى ؟ قال : احبسهم حتى يستبين لك ذلك . قال مصعب : ما كنت لأفعل . قال إبراهيم : فعليك السلام والله لا ترانى بعد فى مجلسك أبدا[1] . أما القادة الآخرون فسرعان ما تخلوْا عن مصعب فى أحرج الأوقات ، ولما تحققت هزيمة مصعب وكان بجواره ابنه عيسى أرسل له محمد بن مروان رسولا يعطيه الأمان على أن يكف ، فقال مصعب : إن مثلى لا ينصرف عن هذا الموقف إلا غالبا أو مغلوبا . فنادى محمدُ بن مروان عيسى بنَ مصعب أن هلم إلىّ يا ابن أخى فما فى الحرب الآن من فائدة . قال مصعب لابنه : إن عمك آمنك فامض له . قال عيسى : والله لا تتحدث نساء قريش أنى أسلمتك وتركتك وحدك للقتل ، وصُرِع عيسى بين يدى أبيه ، وبقى مصعب يكافح وحده حتى طعنه من الخلف زائدة بن قدامة لثأر كان له عنده[2] ودانت العراق لعبد الملك وكان ذلك فى ذى القعدة سنة ٧٢ هـ .

ولم يبق أمام عبد الملك إلا ابن الزبير فى مكة فأرسل له عبد الملك قائده البطل الحجاج بن يوسف فى عشرين ألفاً من أهل الشام ، ولم يخرج ابن الزبير لمواجهة الجيش بل تحصن بالحرم ، فرماه الحجاج بالمجانيق ، وانفض الناس

---

(١) ابن عبد ربه . العقد الفريد حـ ٤ ص ٤١٠

(٢) الطبرى ٥ ٨ – ٩ واليعقوبى ٣ : ١٠ – ١١ والإمامة والسياسة ٢ : ٢٦

من حول ابن الزبير وانفض من حوله ذووه وولداه حمزة وخبيب ، وكان لشدة بخله يجرى على أصحابه فى هذه الأيام نصف صاع من التمر ، فتثاقلوا عنه فقال لهم : أكلتم تمرى وعصيتم أمرى . وقد حاول هو أن يستسلم ، ولكن أمه صاحت به : لا تمكن عبيد بنى أمية منك ، ولضربة سيف فى عز خير من ضربة سوط فى ذل . قال لها : يا أماه إنى أخاف إن قتلنى هؤلاء القوم أن يمثلوا بى . قالت : يا بنى إن الشاة لا تألم للساخ إذا ذبحت . ودنا منها ليعانقها فمست على جسمه الدرع فقالت له : ما هذا صنيع من يريد ما تريد . فخلع درعه وخرج يقاتل حتى قتل سنة ٧٣ هـ . وأرسل الحجاج رأسه إلى عبد الملك وصلب جسمه . وبعد بضعة أيام خرجت أمه على الحجاج وهى عجوز عمياء فقالت له : أما آن لهذا الراكب أن ينزل ؟ فسأل الحجاج من هذه ؟ فقيل له إنها أسماء أم ابن الزبير . فأنزله الحجاج إكراماً لها وأمر بدفنه[1] .

وقد رآه عبد الله بن عمر وهو مصلوب فقال : يرحمك الله أبا خبيب ، لولا ثلاث كن فيك لقلتُ أنت أنت : إلحادك فى الحرم ، ومسارعتك إلى الفتنة ، وبخل بكفك ، وما زلت أتخوف عليك هذا المركب وما صرت إليه مذ كنت أراك ترمق بغلات شهبا كن لابن حرب فيعجبنك ، إلا أنه أسوس لدنياه منك[2] .

وأغلب الظن أنه كان فى ابن الزبير غير هذه العيوب الثلاثة ، ولكنها عادة العرب لا يذمون بأكثر من ثلاث . ولا يمدحون بأكثر من ثلاث ، فالثلاث الكريمة عندهم دليل امتياز ، والثلاث الدنية دليل انحلال .

---

(١) الطبرى والمسعودى [illegible] وابن الأثير و [illegible]

(٢) المسعودى ٢٠٣

الخــــوارج

لون جديد من الحركات الفكرية والثورية التى حدثت فى الدولة الأموية ، والحديث عن الخوارج سيشمل ـ كما اتبعنا فى حديثنا عن الشيعة ـ أفكارهم وتاريخهم ، ولكنا هنا نتساءل هل نبدأ حديثنا عنهم بشرح أفكارهم ثم نتحدث عن تاريخهم كما سرنا عند الكلام عن الشيعة ؟ أو نبدأ هنا بذكر تاريخهم ثم نتلوه بشرح أفكارهم ؟

عندى أن النهج التانى أكثر ملاءمة للخوارج ، فسنرى أن تاريخهم كان أقدم من أفكارهم ، لقد ثاروا أولا ثم حاولوا أن يجدوا سبباً لثورتهم ، وطالما أعياهم العثور على السبب فعادوا إلى على ، ثم عاودهم الحنين إلى الانشقاق فعادوا ينشقون عليه ، وذلك بخلاف الشيعة الذين تكونت أفكارهم قبل أن تبدأ ثوراتهم وحركاتهم ، فإذا كان النهج الأول لاءم الشيعة فأعتقد أن النهج الثانى يلائم الخوارج .

والخوارج هو الاسم الغالب على هذه الطائفة وقد اشتق هذا الاسم من الفعل « خرج » لأنهم خرجوا على علىّ بعد أن كانوا ضمن أتباعه ، وهم يطلقون على أنفسهم « الشراة » أى الذين شروا آخرتهم بدنياهم ، كما يُطلَق عليهم أيضاً الحَرُورِيَّة نسبة إلى حَرُوراء وهو موضع على الفرات بقرب الرقة نزلوا به إثر عودة علىّ وجيشه من صفين ولم يريدوا أن يدخلوا الكوفة ، ومن الأسماء التى تطلق عليهم أيضاً « المحكِّمة » أى الذين يقولون لا حكم إلا لله .

وقد سبق أن تحدثنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب عن نشأة الخوارج ولكنا كنا هناك نتحدث عن خلافة علىّ . فاقتصرنا ـ فيما ذكرناه من حديث الخوارج ـ على ما يتصل بعلى . ونحن هنا الآن نتحدث عن الخوارج أنفسهم . وذلك يقتضى أن نعود للكلام عنهم بشىء من التفصيل :

ففى موقعة صفين كاد علىّ أن يحرز النصر ، ولكن معاوية حينما رأى نفسه أوشك أن ينهزم فى ميدان القتال لجأ إلى الميدان الذى لا يجاريه علىّ فيه ، وهو ميدان الدهاء والحيلة ، وكان مع معاوية داهية العرب عمرو ابن العاص ، فصاح به معاوية : هلكنا يا ابن العاص فهلم مخبأتك . فأشار عمرو أن يرفع الجنود المصاحف على أسنة الرماح وأن يصيحوا : نريد تحكيم كتاب الله .

وأدرك علىّ الخدعة ، ولكن سيوف جنده كانت قد كلّت ، وكأنما كانوا ينتظرون هذه الصيحة بصبر وشيك النفاد ، فتراجع كثير منهم واستجابوا لرغبة أعدائهم ، وحاول علىّ أن يحثهم على المضى فى الحرب حتى يكسبوا النصر الذى كان منهم قاب قوسين أو أدنى . ولكن سلطان علىّ على جيشه كان دائماً ضعيفاً كما أوضحنا ذلك عند الحديث عن علىّ ، فلم يذعنوا له ، وأصروا على وقف القتال ، وتولى قيادةَ المتمردين الأشعثُ ابن قيس الكندى ومسعر بن فدكى التميمى وزيد بن حصين الطائى ، وصاح هؤلاء بعلى : القوم يدعوننا إلى كتاب الله وأنت تدعونا للسيف . فأجابهم علىّ : أنا أعلم بكتاب الله ، انفروا إلى بقية الأحزاب . . . . وحاول علىّ أن يثنيهم أو على الأقل أن يرجئ الاستجابة إلى طلبهم ليعطى قائده الأشتر فرصة يتوّج بها انتصاراته على جيش معاوية ، إذ لم يكن قد بقى أمام الأشتر إلا شرذمة قليلة من أهل الشام كانت على وشك الهزيمة ، ولكن الأشعث بن قيس صاح بعلى : لتَرْجِعَنّ الأشتر أو لنفعلن بك ما فعلنا بعثمان[1] ، فأرسل علىّ إلى الأشتر يستدعيه . ولكن الأشتر أجابه : ليست هذه الساعة تزيلنى عن موضعى ، وقد رجوتُ أن يُفتح لى فيها فلا تعجلنى . ولما عرف الأشعثُ وأصحابُه إجابةَ الأشتر زادت ثورتهم

(١) الشهرستاني - الملل والنحل ج ١ ص ١٠٥

واتهموا علياً بأنه الذى أوعز للأشتر بالاستمرار فى القتال ، وأطلّت الفتنة ، فأعاد علىٌّ الرسول للأشتر وقال له : ويحك قل للأشتر أن يُقبل فإن الفتنة وقعت . فعاد رسول علىٍّ وهو يزيد بن هانئ يخبر الأشتر بذلك ، ولما أحس يزيد التردد من الأشتر قال له : أتحب أنك ظفرت هنا وأمير المؤمنين يُقتل أو يُسلم هناك ؟ قال الأشتر : لا والله ، سبحان الله . قال يزيد : هو كذلك ، لقد هددوه بالقتل أو بدفعه لأهل الشام إن لم تعد . فعاد الأشتر وأُوقِف القتال[1] .

وهكذا انتصر الأشعث بن قيس ورفاقه ، ولكن هذا الانتصار كان مطلع فرقة ومطلع حروب قاسية ، فإن الأشتر وأتباعه هاجموا هؤلاء المتمردين وأغاظوا لهم القول وعدوهم خونة[2] ، على أنه يبدو أن الغالبية من أصحاب على استطابت إلى حين هـــذا الهدوء ونعمت بالراحة التى لم تكحل لهم عيناً منذ مطلع خلافة علىٍّ ، واستأذن الأشعث علياً أن يأتى معاويةَ ليسأله ماذا يريد برفع المصاحف ، فأذن له على أن يأتيه ، فلما جاءه قال له معاوية : لنرجعْ نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فى كتابه ، نبعثون منكم رجلا ترضونه ، ونبعث منا رجلا ، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه ، ثم نتبع ما اتفقا عليه[3] .

وبدأت بذلك مرحلة أخرى من الخلاف فى جيش على ، فقد أجمع أهل الشام رأيهم على اختيار عمرو بن العاص داهية العرب ، ورأى علىٌّ أن يقدّم عبد الله بن عباس ، ولكن أصحاب علىٍّ أبوْا عليه ذلك وقالوا إن ابن عباس قريب القرابة منك ضنين بأمرك ، فعرض علىٌّ أن يقدّم الأشتر فصاحوا به : وهل سَعَّرَ الأرضَ غيرُ الأشتر ؟ والعجيب أن هؤلاء

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٣٤ — ٣٦

(٢) انظر خطاب الأشتر لهؤلاء عقب عودته من ميدان القتال . الطبرى ٤ : ٣٥ — ٣٦

(٣) المرجع السابق ص ٣٦

لم يسمحوا لعلى أن يختار شخصاً قريب الصلة به ، وأصروا على أن يختارو شخصاً محايداً ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك مع معاوية وتركوه يختار شخصاً تجتمع فيه كل الصفات التى تسبب رجحان كفته، فهو قريب القرابة من معاوية ، متحد معه فى المصالح ، ثم هو داهية من دواهى العرب . ليت شعرى كيف قبل علىٌّ هذا الوضع الذليل ؟ ألم يكن فى مقدوره أن يتنازل عن خلافة لا سلطان له فيها ؟ وعلى كل حال فقد قدّمت الأغلبية أبا موسى الأشعرى . فقال على لهم : لقد عصيتمونى فى أول الأمر فلا تعصونى الآن ، وليس أبوموسى بثقة لى ، قد فارقنى وخذّل الناس عنى ، ثم هرب منى حتى آمنته . ولكن أهل العراق أصروا على رأيهم ، فاستسلم على عن غير رضا[١] . وحدد الطرفان دومة الجندل مكانا للاجتماع على أن يكون فى شهر رمضان من نفس العام (٣٧) وكتبت وثيقة بهذا الاتفاق[٢] .

وعاد الجيشان بعد أن استقر الرأى على التحكيم ، ولكن عودة جيش معاوية كانت تعتبر عودة ظافرة للنجاتهم من الهزيمة ، ولتوحيد كلمتهم ، وللأمل فى المستقبل ، وكانت عودة جيش علىٌّ تنبئ بهزيمة لامحيص عنها. فقد عادوا فى صراع وخلاف ومناوشات ، ووصل علىٌّ إلى الكوفة ولكن ببعض جيشه ، أما البعض الآخر فقد اعتزله وخرج عليه وعرج على قرية حروراء ، ولم يرد هؤلاء أن يدخلوا الكوفة ، والعجيب أن هؤلاء كانوا ممن أكرهوا عليا على قبول التحكيم .

وذهب على إلى هؤلاء الخوارج وخطبهم قائلا : أنشدكم الله ، هل علمتم أن أحداً كان أكره للحكومة منى ؟ قالوا : اللهم لا . قال : أفعلمتم أنكم أكرهتمونى عليها حتى قبلتها ؟ قالوا : اللهم نعم . قال : فعلام خالفتمونى ونابذتمونى ؟ قالوا : إنا أتينا ذنبا عظيما فتبنا إلى الله منه ،

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٦ والإمامة والسياسة ج ١ ص ١٢٦ – ١٢١

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٥٣

خُسُبْ إلى الله منه ، واستغفره نعد إليك . فقال على : أستغفر الله من كل ذنب . فرجعوا معه وكان عددهم حوالى ستة آلاف[١] .

وأشاع هؤلاء فى الكوفة أن عليا اعتبر التحكيم إثما وندم عليه وعاد عنه واستغفر الله منه ، فجاء الأشعث بن قيس عليا وسأله عن ذلك فقال على : من زعم أنى رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضلالا فهو أضل منها . فخرج عنه الخوارج مرة أخرى ، فأرسل إليهم عبدَ الله بنَ عباس فناظرهم ووضح لهم ما خفى عليهم .

قالوا له : إن عليا أتى عظيما حينما حكَّم الرجال فى الدماء ولا حكم إلا لله .

فأجاب : أما علمتم أن الله أمر بتحكيم الرجال فى أرنب تساوى ربع درهم تصاد فى الحرم ، وفى شقاق رجل وامرأته ؟ وأما علمتم أن النبي أمسك عن القتال للهدنة بينه وبين أهل الحديبية ؟

قالوا : نعم ولكن عليا محا نفسه من خلافة المسلمين .

فأجاب : وكذلك فعل الرسول فقد محا اسمه من النبوة عند صلح الحديبية ولكنه ظل نبيا .

وقبل بعضهم رأى عبد الله بن عباس فرجع إلى علىّ ، وهتف آخرون بعد أن أعياهم الحق : لا تحاجوا هذا ، فإنه من القوم الذين قال الله فيهم « بل هم قوم خصمون[٢] » وقال فيهم أيضا « وتنذر به قوما لدا[٣] » واستمر هؤلاء فى انشقاقهم ولم يريدوا العودة إلى علىّ[٤] .

وجاء أوان التحكيم ، واجتمع الحكمان بدومة الجندل ، ولم يكن أبو موسى كفئا لهذا العمل الخطير ، ولا كان يستطيع أن يكون نظيرا للداهية

---

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد جـ ٢ ص ٢٨١
(٢) الزخرف ٥٨ (٣) مريم ٩٨
(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٢ ص ٣٨٩

عمرو بن العاص ، وكان أهل العراق خلف أبي موسى غير متفقين فى الرضا عنه كما كانوا متفرقى الكلمة ، وكان أهل الشام خلف ابن العاص كالبنيان المرصوص ، وكانت نتيجة التحكيم تُناسِبُ هذه المقدمات ، كانت هزيمة وخدعة جازت على أبي موسى كما وصفناها فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، والذى يهمنا هنا أنها فتحت باباً جديداً فى الفرقة وقوّت جانب الخارجين على علىّ ، ولم يعد هناك أمل فى عودة الخوارج إليه .

وربما جاز القول أنه هنا تكوّن حزب الخوارج ، وبدأت أفكارهم تظهر وتتضح مشوبة بمبالغات عنيفة وصلت إلى تكفير عثمان وتكفير أصحاب الجمل ، ثم تمادى هؤلاء فعبثوا بأموال الناس وبأرواحهم واستباحوا قتل كل من لم ينضم إليهم من المسلمين ، إذ عدّوا من سواهم كفارا ومرتدين ، وكان من ضحاياهم عبد الله بن خباب ، إذ لقوه وفى عنقه المصحف ومعه زوجته وهى حامل فقالوا له : إن هذا الذى فى عنقك يأمرنا بقتلك . ثم ذبحوه وبقروا بطن زوجته ، ولما طالبهم علىّ بقتلته ليقتلهم فيه ، قالوا : كلنا شركنا فى قتله ، وأمّروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبى فخرج بهم إلى النهروان ، وهى كورة واسعة بين بغداد الحالية وواسط[1] . وكانت بيعة ابن وهب فى منزل زيد بن حصين ، وتولى بيعته زعماء الخوارج وهم عبد الله بن الكواء وعروة بن جرير ويزيد بن عاصم[2] ، وبدأ بذلك صراع الخوارح الحربى .

موقعة النهروان :

واضطر علىّ إزاء ذلك أن يسير للخوارج بجيشه ، وحضب فيهم على بحثهم على الطاعة والعودة لرحابه وتقديم قتلة عبد الله بن الخباب . وذكّرهم أنهم هم الدين أرغمـــوه على فبول التحكيم . فقالوا له مقالة

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ٢٥ .

(٢) الامامة والسياسة جـ ١ ص ١٣١ ـ ١٤٢ والشهرستانى : الملل والنحل القسم الأول ص ١٠١ – ١٠٦ والطبرى جـ ٤ ص ٦١ ، ٦٢

شنيعة ، قالوا : إنا كفرنا بتحكيمنا الرجال ، وتُبْنا إلى الله وعدنا إلى الإسلام ، فاشهد على نفسك بالكفر وتب إلى الله كما تبنا وعد إلى الإسلام نعد إليك ، وسخر عليّ من هذا الطلب الدنىء وقال لهم : أبعد إيمانى وهجرتى وجهادى مع رسول الله أشهد على نفسى بالكفر ، وما دخل الكفر لحظة نفسى منذ آمنت بالله . فقالوا لن نخاطبكم بشىء غير هذا وبيننا وبينكم الحرب ، فاستعد عليّ لمحاربتهم ونظّم جنده ، وقبل أن يلتقى الفريقان أمَّرَ عليّ أبا أيوب الأنصارى فرفع لهم راية أمان وناداهم : من جاء منكم إلى هذه الراية فهو آمن ، ومن دخل المصر فهو آمن ، ومن انصرف إلى العراق فهو آمن ، ومن خرج من هذه الجماعة فهو آمن . فانصرف بعضهم وبقى أكثرهم . ووقف عليّ بجيشه وقفة استعداد وتهيؤ ، ولكنه قال لأصحابه لا تبدءوهم بالحرب حتى يبدءوكم ، وسرعان ما شدّ الخوارج على أصحاب على فشد هؤلاء عليهم ، ولم تكن إلا جولة سريعة حتى خرّ هؤلاء ، ويقول الثعلبى فى رواية ابن قتيبة(١) : والله ما لبثوا إلا فواقاً حتى صرعهم الله كأنهم قيل لهم : موتوا فماتوا ، ويقولون إنه لم ينج منهم إلا عدد لم يبلغ العشرة ، وما قتل من المسلمين إلا أقل من عشرة(٢) .

وموقعة النهروان ذات نتائج خطيرة أهمها أنه لم يعد هناك أمل فى عودة الخوارج إلى صفوف على أو إلى صفوف الجماعة على العموم ، وكان الخوارج يتذاكرون ما حل بإخوانهم فى النهروان فتشتد حماستهم وتتأجج أحقادهم ، ومن نتائج النهروان كذلك أن تفرق الذين نجوا من المعركة فذهب اثنان إلى عمان ، واثنان إلى كرمان ، واثنان إلى سجستان ، واثنان إلى الجزيرة وواحد إلى اليمن ، وظهرت بدع الخوارج فى هذه المواضع منهم(٣) .

---

(١) الإمامه والسياسه جـ١ ص ١٤٤

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل : القسم الأول ص ١٠٧

(٣) المرجع السابق

نهاية على :

ودبر الخوارج مؤامرة للفتك بعلى بن أبى طالب ومعاوية وعمرو ابن العاص ، ولكن هذه المؤامرة لم تنجح إلا فى القضاء على على ، وكان قتله على يد عبد الرحمن بن ملجم ، وقد عد الخوارج ابن ملجم بطلا مجاهدا واعتبروا عمله هذا وسيلة تقربه إلى الله وتضمن له الجنة ، وفى ذلك يقول عمران بن حطان أحد شعراء الخوارج :

يا ضربة من منيب ما أراد بها   إلا ليبلغ عند العرش رضوانا
إنى لأذكره يوماً فأحسبه   أوفى البرية عند الله ميزانا[1]

الخوارج فى عهد الدولة الأموية :

لئن عادى الخوارج عليا وكرهوه فقد كان عدوّاهم لبنى أمية أشد وأعمق ، ولذلك نجد صراعهم يطول فى عهد الدولة الأموية ، ونجدهم فى كثير من الأحيان يظفرون ويكوّنون لأنفسهم سلطة ونفوذاً . فقد استطاع خوارج العراق أن يستولوا على كرمان وبلاد فارس ويهددوا البصرة ، وقد تصدى لهم المهلب بن أبى صفرة وطال صراعه معهم ، ولولا انشقاقهم على أنفسهم لكان من المحتمل أن يكون لهم الظفر والفوز . ومن أشهر قادة هذا الفرع نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة ويعرف هذا الفرع بالأزارقة . وهناك فرع آخر من الخوارج نال نصيباً من التوفيق وإن لم يصل إلى مكانة فرع العراق . ذلك هو الفرع الذى استولى على جنوب الجزيرة العربية والطائف . ومن أشهر قادة هذا الفرع أبو طالوت ونجدة بن عامر وأبو فديك وسنذكر بعض التفاصيل لنشاط الخوارج فى عهد الدولة الأموية :

---

(١) الشهرستانى . الملل والنحل القسم الأول ص ١٠٩

فى عهد معاوية :

كان تنازل الحسن بن على لمعاوية ، وبيعته وبين الحسين إليه ، سببين هامين لهدوء الشيعة فى أثناء عهد معاوية ، وقد دخل معاوية الكوفة وبايعه أهلها سنة ٤١ هـ عقب تنازل الحسن ، ولكن بقى عدو آخر لمعاوية أكثر من الشيعة إخلاصاً لفكرته وأكثر منهم استعداداً للتضحية ، ذلك هو الخوارج ، وقد كان بين الخوارج وبين علىّ نوع من الصلات ، فقد كانوا فى يوم من الأيام أتباعه وجنده ولذلك اعتزله بعضهم دون حرب ، ولكن عداءهم لمعاوية كان عميق الجذور ، ولذلك أحسوا أن الواجب يدفعهم لمقاتلة هذا الغاصب الذى يعيش عيشة الملوك ويسكن القصور ويلبس الرياش ويتخذ الحُجَّاب .

ومن أجل هذا توالت ثورات الخوارج فى عهد معاوية ، ولعل أول من ثار فى وجه معاوية من الخوارج هو فروة بن نوفل الأشجعى فقد هتف فى الخوارج عقب تنازل الحسن لمعاوية ودخول هذا الكوفة قائلا : قد جاء الآن ما لا شك فيه فسيروا إلى معاوية فجاهدوه . وقد أرسل إليه معاوية خيلا من خيل أهل الشام فردها مهزومة ، وحينئذ صاح معاوية فى أهل الكوفة : لا أمان لكم عندى حتى تكفوا بوائقكم . فخرج أهل الكوفة يحاربون الخوارج ، فقال لهم الخوارج : ويلكم ما تبغون منا ؟ أليس معاوية عدونا وعدوكم ؟ دعونا حتى نقاتله فإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم وإن أصابنا قد كُفِيتُمونا . ولكن أهل الكوفة استمروا فى قتالهم حتى هزموهم[١] .

وفى العام التالى (٤٢ هـ) تجمع حرحى النهروان والذين اعتزلوا القتال يوم النهروان وتذاكروا صرعاهم الذين ماتوا للدفاع عن

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ١٢٦

مبادئهم ، وجعلوا إمارتهم إلى المستورد بن علفة وحيان بن ظبيان ومعاذ ابن جوين ، وكانت القيادة للأول وتجمع حول هؤلاء عدد كبير من الخوارج وأصبح لهم سطوة ونفوذ واتّعدوا على يوم يخرجون فيه ، ولكن والى الكوفة المغيرة بن شعبة استطاع أن يقبض على بعض زعمائهم قبل اليوم الموعود وفيهم حيان ومعاذ ، ولكن المستورد بن علفة الذى أعطاه الخوارج لقب أمير المؤمنين لم يُقبض عليه ، فأعد العدة وخرج بأصحابه ، ولكن المغيرة أرسل له جيشا كثيفاً بقيادة معقل بن قيس فاستطاع هذا الجيش أن ينتصر عليهم بعد معارك طويلة[١] .

ولما تمّ الصلح بين معاوية وزياد بن أبيه عُيِّن هذا واليا على البصرة سنة ٤٥ هـ ، وبعد موت المغيرة سنة ٥١ هـ امتدت ولاية زياد فشملت الكوفة أيضاً ، وقد بذل زياد جهدا كبيرا فى حرب الخوارج حتى قلّم أظفارهم وأضعف شوكتهم .

ولما مات زياد وتولى البصرة ابنه عبيد الله بن زياد سنة ٥٥ هـ بدأت حركات الخوارج تظهر من جديد ولكن عبيد الله قابلهم بشدة وصرامة لا تقلان عن شدة أبيه وصرامته فقتل منهم جماعة صبرا منهم عروة بن أديّة أخو أبى بلال مرداس بن أديّة[٢] كما قتل فى الحروب منهم عددا كبيرا منهم أبو بلال مرداس[٣] سالف الذكر وبعد قتل أبى بلال تجرد عبيد الله لاستئصالهم وهلاكهم كما يقول الطبرى[٤] .

الخوارج والمهلب بن أبى صفرة :

يرتبط تاريخ الخوارج فى أزهى عصورهم بالبطل الكبير المهلب بن

---

(١) الطبرى حـ ٤ ص ١٣١ وما بعدها

(٢) المرجع السابق ص ٢٣١

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٠ (٤) المرجع السابق ص ٤٣٦

صفرة ، فقد شهد العقدُ السادس الهجرى والسنون الأولى من العقد السابع وفاة الأبطال الذين سدوا كل الطرق فى وجه الخوارج ، فقد توفى المغيرة ابن شعبة وزياد بن أبيه ومعاوية وعبيد الله بن زياد ، فكأنما انطلقت الخوارج بذلك من عقالها ، وساعد على ذلك ذكرهم للدماء التى أراقها الأمويون منهم وللأرواح التى أزهقوها فى شدة وغلظة ، كما ساعد على ذلك أيضاً اضطراب الأحوال بعد موت معاوية ، ثم إنه كان قد تهيأ للخوارج قيادة رائعة على يد البطلين الشهيرين نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة .

وبينما تطور شأن الخوارج على هذا النحو ظهرت فى وجوههم قيادة تشبههم فى البطولة أو ترجحهم ، تلك هى قيادة عبد الملك بن مروان والحجاج والمهلب بن أبى صفرة ، ولهذا يمكن القول أنه فى عصر عبد الملك ارتطمت قوتان جبارتان ، وتصارعت جبهتان حديديتان ، ولولا الانقسام الذى وقع فى صفوف الخوارج لكان من المحتمل أن يتغير وجه التاريخ .

وكان الخوارج بعد موت معاوية قد انضموا إلى ابن الزبير ، ولكنهم — كما سنبين فيما بعد — عادوا ولاموا أنفسهم على نصرته ورحلوا من مكة ،ولكنهم انقسموا قسمين كما ذكرنا من قبل ، فاتجه الأزارقة إلى البصرة واتجه النجدات إلى اليمامة[١] ، وكان الفرع الأول أقوى وأشد مراسا كما كان أكثر تأويلا فقد استحل نافع بن الأزرق قتل الأطفال وكفّر القعدة وعدّ مال مخالفيهم حلالا لأصحابه[٢] ، ولقى نافع نجاحاً كبيراً ساعده عليه اضطراب الدولة الأموية آنذاك فدانت له الأهواز وأصبح له النفوذ فى السواد ، ولكنه بمبادئه السابقة جلب على نفسه كثيراً من الأعداء حتى أولئك الذين كانوا يشاركونه عداء بنى أمية ، ولذلك اجتمع أهل البصرة وولوا عليهم المهلب ابن أبى صفره الذى تصدى لقتالهم وهزمهم وقتل قائدهم نافع بن الأزرق ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٨٠

(٢) انظر شرحه لرأيه فى العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩٧ — ٣٩٨

ولكنهم جددوا نشاطهم مرة أخرى فى نواحى كرمان وأصبهان وبخاصة عندما أُبْعِد المهلب عن الوقوف فى وجوههم ، إذ امتد نفوذ ابن الزبير إلى البصرةُ وعَيَّنَ مصعبٌ المهلبَ والياً على الجزيرة وعين مكانه عمر بن عبيد الله ابن معمر لحرب الخوارج ، ولكن هذا لم يستطع أن يملأ فراغ المهلب ، فطلب أهل البصرة من مصعب إعادة المهلب فأعاده(١) ، وكانت قيادة الخوارج قد آلت إلى بطل شهير هو قطرى بن الفجاءة الذى يقول :

فصبراً فى مجال الموت صبراً   فما نيل الخلود بمستطاع
سبيل الموت غاية كل حى   وداعيه لأهل الأرض داع
وما للمرء خير من حياة   إذا ما عُدَّ من سقط المتاع (٢)

وانتهى أمر ابن الزبير ، وأُلْقِيَ على عاتق الحجاج وعبد الملك حربُ الخوارج ، فأقرَّا المهلب ليستمر فى نضاله مع الأزارقة ، وضمَّا له عبدالرحمن ابن مخنف ، ولكن الخوارج باغتوا جيش ابن مخنف ليلا فأوقعوا به هزيمة بالغة قُتِل فيها ابن مخنف نفسه ، واستمر المهلب يحاربهم فى شدة ممزوجة بالسياسية والفطنة مما كسب له النصر .

وحدث خلاف بين أتباع قطرى فانقسموا قسمين . بايع أكثرهم عبد ربه الكبير وبقى أقلهم مع قطرى وحارب بعضهم بعضا حرب فناء فاضمحلوا ، وكان من سياسة المهلب أن يتركهم يُغْنِى بعضُهم البعض . وقد آذن ذلك بضعف الجميع فاستطاعت جيوش الأمويين قتل قطرى وعبيده بن هلال وعبد ربه الكبير سنة ٧٧ هـ وهزيمة جيوشهم(٣) .

ومن الخوارج الذين هددوا الحجاج وزلزلوا سلطانه البطل العظيم شبيب

---

(١) انظر تفاصيل حروب المهلب مع الخوارج فى الطبرى جـ ٤ ص ٤١١ وما بعدها والمسعودى جـ ٣ ص ١٠ والعقد الفريد جـ ٢ ص ٣٩١
(٢) انظر ترجمة حياة قطرى فى ابن خلكان وانظر العقد الفريد جـ ١ ص ١٢٣
(٣) الطبرى جـ ٥ ص ١٢٦

ابن يزيد الشيبانى الذى أُثِرَ عنه قوله : الليل يكفيك الجبانَ ونصفَ الشجاع ، وكان إذا أمسى الليل يقول لأصحابه : أتاكم المدد[١] .

وقد خرج سنة ٧٦ هـ وهزم كثيرا من جيوش بنى أمية حتى دخل الكوفة وهدد قصر الحجاج نفسه ، وقد هبَّ الحجاج لمحاربته ودارت بينه وبين الحجاج معارك طاحنة طالما هزمت فيها جيوش الحجاج ، وأخيرا فرَّ شبيب ودخل الأهواز فأرسل إليه الحجاج جيشاً بقيادة سفيان بن أبرد فطلبه سفيان حتى حاصره فى البحر فأغرقه سنة ٧٨ هـ[٢] .

وينبغى أن نوضح أن نجدة وأصحابه ممن اتجهوا إلى اليمامة كانوا يميلون إلى القعود أى عدم الحرب ولذلك كان نشاطهم محدوداً فى هذه البقاع ، وينبغى أن نوضح أيضاً أن الضربات الشديدة التى أوقعها بالخوارج عبد الملك والحجاج والمهلب أزالت خطرهم حتى عم الهدوء آخر عهد عبد الملك وشمل إلى حد كبير عهدى الوليد وسليمان .

الخوارج وعمر بن عبد العزيز :

هب الخوارج من جديد فى عهد عمر بن عبد العزيز ، وكان خروجهم بالعراق بالقرب من الحيرة ،وكان قائدهم رجلا من بنى شيبان يسمى شوذب ، وقد أرسل عمر للخوارج جيشاً كبيراً أمَّر عليه مسلمة بن عبد الملك وأمره ألا يحاربهم إلا إذا حاربوه أو أفسدوا فى الأرض ، وأرسل فى الوقت نفسه رسولا إلى شوذب يدعوه لمناظرته ليريا أين يكون الحق ، فاستجاب له شوذب وأرسل رجلين من رجاله ، والتقيا بعمر ، ودارت بينهما هذه المناقشة :

عمر : ما الذى أخرجكم علينا ؟

أحد الرجلين . لا نكر عليك عدلك ولا سيرتك ، ولكن هناك أمراً

---

(١) العقد الفريد حـ ١ ص ١١٣ (٢) اليعقوبى حـ ٣ ص ١٧

أخرجنا عليك وهو أن أهلك كانوا ظالمين وسميتهم أنت الظلمة ، وسميت أعمـــالهم مظالم فالعنهم فإن أنت لعنتهم اتفقنا معك .

قال عمر : لقد حارب أبو بكر المرتدين وسبى نساءهم وذراريهم ، فلما جاء عمر أعاد هؤلاء إلى ذويهم ، فهل لعن عمرُ أبا بكر؟ وهل تلعنون أنتم أحدهما ؟

الرجل : لا .

عمر : وهل كان فرعون ظالماً يستحق اللعن ؟

الرجل : نعم

عمر : متى عهدك بلعنه ؟

الرجل : لا أذكر أنى لعنته .

عمر : لا عهد لك بلعن فرعون وتريدنى أن ألعن أهلى ؟

الرجل : وموضوع آخر هو يزيد ، لِمَ تقرُّه خليفة من بعدك ؟

عمر : صيَّرَهُ غيرى .

الرجل : أفرأيت لو وليت مالا لغيرك ثم وكلته إلى غير مأمون عليه أتُراك كنت أدَّيت الأمانة ؟

عمر . أنظرانى ثلاثة أيام .

وانتهت هذه المناظرة باقتناع الرجلين بأن عمر على حق وأنه يحاول بكل جهده أن يعمل لخير الإسلام والمسلمين فبقى أحدهما مع عمر وغادر الآخر لينبئ شوذب بما جرى . ويقول الطبرى أن بنى أمية خافوا أن يعزل عمرُ يزيدَ فدسوا له السم فمات بعد أيام[1] .

---

(١) اقرأ المناقشة كاملة فى سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٣٠ – ١٣٤ واقرأ كتب مرإن احرارح ص ٨٣ – ٨٦ ، ٨٩ – ٩٠

الخوارج فى آخر الدولة الأموية :

نشطت حركات الشيعة مع مطلع القرن الهجرى الثانى ، واتجهت لهم الأنظار ، وبدءوا يحققون انتصارات سياسية ثم عسكرية ، وهذا أخفى نشاط الخوارج فلم يعد لهم كبير شأن : وقد تجددت على العموم ثورة شوذب بعد موت عمر بن عبد العزيز ، وحقق بعض الانتصارات فى الكوفة وما حولها فتصدى له مسلمة بن عبد الملك وسعيد بن عمر الحرَشى فقضيا عليه على الرغم مما أبداه عن بطولة فائقة وعبقرية حربية فذة[١] وممن ثار فى عهد هشام البهلول بن عمير الشيبانى ، وكانت ثورته بالكوفة فتصدى له خالد ابن عبد الله القسرى . ثم رحل البهلول تجاه الموصل فتبعه جيش خالد حتى قتل ذلك الثائر هناك[٢] ، وآخر حركاتهم فى عهد الدولة الأموية تلك الحركة التى قام بها أبو حمزة الخارجى بمكة سنة ١٢٩ هـ وقد امتدت انتصاراته إلى المدينة سنة ١٣٠ ، ولكن مروان بن محمد أرسل له جيشا قضى عليه وعلى أتباعه[٣] .

وسقطت الدولة الأموية بعد أن ضعف شأن الخوارج وكلَّت عزيمتهم ولم يبق منهم إلا بقية ضئيلة سنرى مرة أخرى ثوراتها ونضالها عند الحديث عن الخلافة العباسية فى الجزء الثالث من هذا الكتاب إن شاء الله .

وقد أمضى الخوارج أزهى عصورهم فى عهد الدولة الأموية ، وكانوا عربا إلى البداوة أقرب ، كما كانوا قليلى الصلة بالثقافات الخارجية ، وهذه العوامل جعلت مذهب الخوارج قليل الفلسفة وجعلت أفكارهم قليلة العمق ، فهم لم يدرسوا بعمق من تلقاء أنفسهم ، ولم يفتحوا أبوابهم وقلوبهم لثقافات الخارج كما فعل الشيعة منذ عهدهم الباكر ، ولم يغمرهم طوفان

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٣٢٦ — ٣٢٧ والعقد الفريد حـ ٢ ص ٤٠١ — ٤٠٣

(٢) النجوم حـ ٣ ص ٥٤ (٣) المرجع السابق ص ٦٦

الفلسفة الذى غمر العالم الإسلامى فى خلال الدولة العباسية ، لأن هذا الطوفان لم يكن قد بدأ إبان عنفوان الخوارج ، فلما بدأ طوفان الثقافة والفلسفة يعم العالم الإسلامى كان نجم الخوارج يؤذن بالزوال ، وسنرى فى دراستنا لمبادئهم كيف كانت آراؤهم ضحلة وأفكارهم قليلة العمق .

أفكار الخوارج :

حديثنا عن أفكار الخوارج سيشمل ثلاثة أبحاث :

(ا) سبب حركات الخوارج

(ب) ملامح الخوارج الغالبة .

(ج) فرق الخوارج وآراءها فى السياسة والدين . وسنتكلم عنها واحدا واحدا .

(ا) سبب حركات الخوارج :

لا يكاد الباحث يجد سبباً حقيقياً جديراً بأن يدفع الخوارج إلى إراقة الدماء التى أراقوها وإزهاق الأرواح التى أزهقوها . وإلى سلب أموال المسلمين وقتل نسائهم وأطفالهم ، وقد هُزِم الخوارج عدة مرات عندما نوقشت آراؤهم ، هُزِمُوا أمام علىّ عندما رفضوا دخول الكوفة ، وهزموا أمام عبد الله بن عباس عندما أرسله على إليهم كما سبق القول ، وناقشهم عمر بن عبد العزيز فهزمهم واستسلموا إليه . ولذلك نقرر أنه لم تكن هناك أسباب حقيقية ذات شأن تدفعهم لما ارتكبوا من إثم ، وما أراقوا من دماء . وما شعثوا من جيوش المسلمين . وأضاعوا من جهد القادة والجنود .

تعالوا [illegible] نبحث [illegible] عن الأسباب التى دفعتهم هذا الحمق [illegible]

وأول ما نجده هو أنهم كانوا عربا ، وليسوا كالشيعة ينحدر أكثرهم من غير العرب ، وطبيعة العربي الثورة لأتفه الأسباب ، وإذا درسنا أيام العرب وحروبهم لا نجد سببا ذا بال يستحق أن تراق له الدماء التي أريقت وأن تشهر له السيوف والرماح التي شهرت ، وحسبك أن تتذكر أن حرب البسوس التي استمرت عدة سنوات وسقط فيها عدد ضخم من الضحايا . تسببت لأن كليب بن ربيعة سيد تغلب الذي كان يحمي مواقع الحيا ، طَعَنَ بسهم ناقةً لخالةِ جساس بن مرة من بكر ، فلم يغفرها له جساس الأحمق وقَتَلَه فيها مع أن أخت جساس كانت زوجة لكليب ، وهبت الحروب بعد ذلك ولاقت الجزيرة العربية منها الأهوال[1] .

ذلك فيما أعتقد سبب هام لثورات الخوارج ، إنهم عرب يقاتلون لأتفه الأسباب ، فلا تشغل نفسك بالسؤال : لماذا خرجوا ولماذا يقاتلون ؟ فإنه ليمكن القول إن القتال عندهم كان عملا عاديا يوشك أن يكون كالطعام والمشي ، ويقول ابن عبد ربه[2] في ذلك : وكانت الخوارج تقاتل على القدح يؤخذ منها والسوط والعلق الخسيس (الجراب التافه) أشد قتال ، وسقط في بعض أيامهم رمح من خارجي فقاتلوا عليه حتى كثر الجراح والقتل وصاحب الرمح يرتجز :

الليل ليل فيه ويلٌ ويلْ
وسال بالقوم السراه السيلُ
إن حار للأعداء فيا قولْ

على أن هذا السبب أمام لسبب آخر هو أيضاً من عادة العرب ، ذلك هو الأخذ بالثأر ، فقد حارب عليٌّ الخوارج في النهروان وقتل أكثرهم ، وهبَّ الخوارج بعد ذلك يتذاكرون ما حصل لإخوانهم في

---

(١) [illegible] أيام العرب [illegible] وأمثال أيام العرب في الجاهلية [illegible]
(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ٢٦٠ – ٢٦١

النهروان ويعملون للأخذ بثأرهم ، ويقول الطبرى[١] إنهم كانوا يأتون مصارع إخوانهم فى النهروان فيتوضئون ويصلون ويتذاكرون إخوانهم ويبكون ثم يهبون للأخذ بثأرهم .

واعتقادى كذلك أن من الأسباب التى دعت الخوارج للثورة على علىّ ومحاربته أن ولاءهم له لم يكن كاملا ، ويبدو أن اتصالهم بالشيعة ومدعى التشيع فى جيش علىّ نقل إليهم هذا الاتجاه ، وبخاصة أن صلتهم بعلى كانت حديثة ، وأن عليا لم يغدق عليهم من المال والهبات ، فلم تتوثق به صلة الكثيرين الذين يجذبهم متاع الحياة الدنيا .

ويمكن القول كذلك أن بعض من أثاروا الفتن فى وجه علىّ لم يكن ولاؤهم للإسلام كاملا ، وحسبنا أن نذكر الأشعث بن قيس الذى أصرّ على إيقاف القتال وهدد عليا إن استمر يحارب معاوية ولعب دوراً كبيراً جلب الهزيمة والفرقة إلى جيش على .

من هو الأشعث بن قيس هذا ؟ وإلى أى حد كان ولاؤه للإسلام ؟ وحبه لاتجاهات هذا الدين ؟

يذكر لنا التاريخ أن الأشعث هذا ارتد عن الإسلام بعد وفاة الرسول وحاربه أبو بكر ، فلما رأى الهزيمة أوشكت أن تحيق به كتب إلى أبى بكر يعلن عودته للإسلام ويطلب العفو . . . . وعفا عنه أبو بكر ولكن أغلب الظن أن الإسلام لم يتعمق فى طيات قلبه[٢] .

وللأشعث هذا ابن اسمه محمد وهو الذى أمَّن مسلم بن عقيل وهتف به : إياك لا تُكذب ولا تُخدَع ولا تغترّ . ودنا محمد بن مسلم وقال : لك الأمان . قال مسلم : آمن أنا ؟ قال محمد نعم وسرعان ما أسلمه محمد إلى حتفه ولم يبال بما قدمه له من الوعود[٣]

---

(١) تاريخ [illegible]

(٢) [illegible] ٢٣

(٣) [illegible]

وللأشعث هذا حفيد اسمه عبد الرحمن وقد مرَّ بنا أنه خرج بجيش الحجاج ثم استدار بالجيش يحارب الحجاج .

تلك قصة أسرة أغلب الظن أنها لا تعرف الولاء للإسلام ولا لقادة الإسلام .

ويبدو كذلك أن من أسباب نشأة الخوارج أن يد معاوية لعبت فأحدثت الانقسام فى جيش على وسببت ظهور الخوارج ، يقول اليعقوبى[1] « إن أهل الشام لما رفعوا المصاحف قال على : إنها مكيدة وليسوا بأصحاب قرآن ، فاعترض الأشعث بن قيس الكندى وقد كان معاوية استماله وكتب إليه ودعاه إلى نفسه ، فقال قد دعانا القوم للحق وللقرآن فلا تدعنا للسيف .... » ويذكر ابن قتيبة[2] أيضاً أن معاوية أرسل عتبة بن أبى سفيان إلى الأشعث وقال له : ألِنْ إلى الأشعث كلاما فإنه إن رضى بالصلح رضيت به العامة . فناداه عتبة وكلمه ...... » .

وتاريخ معاوية وذكاؤه ودهاؤه تجعل من الأقرب أنه لم يكتف برفع المصاحف بل هيأ فى جيش علىّ من يقبل هذه الخدعة ، ويؤكد المستشرقون أن الأشعث مثَّل دور الخيانة فى جيش على ، فقد ألقى فيل Weil ودوزى Dozy وبرنّوف Brunnow وملَّر Müller عبء التهمة الرئيسى عليه ، فيقال إن أهل الشام قالوا له (للأشعث) مقدما احتياطا للخروج من المأزق إذا وقعوا فيه إننا إذا شعرنا بخطر الهزيمة سنرفع المصاحف على أسنة الرماح ، فاعمل بحث يوقف القتال . ووفقا لهذه الخطة عمل الأشعث[3]

وقد ذكرنا من قبل كيف تحمس الأشعث لوقف القتال ، وهدد عليا بقتله أو تسليمه لأهل الشام ، ولم يرد أن يعطى فرصة فصيرة الأسر

(١) تاريخ اليعقوبى جـ ١ ص ١٢٤

(٢) الإمامة والسياسة جـ ١ ص ١١٣

(٣) Wellhausen Die Chavarig, Die Shi'a 9

ليكمل بها انتصاراته ، وكل هذا يوحى بثبوت التهمة ضد هذا المارق .

قد يقول قائل : إن هذا الادعاء لا يقبل لأن الخوارج عادوا معاوية وحاربوه ، فكيف نتهم يد معاوية بأنها لعبت وأثارت الفتن فى جيش على ؟

والجواب على ذلك واضح فإن يد معاوية عندما لعبت لم تلعب مع الجميع بطبيعة الحال ، وإنما لعبت مع بعض القادة كالأشعث مثلا وتبعته الجماهير التى كانت قد أضناها الوغى ، ولكن الجماهير لم تكن تعرف الخدعة بل كانت كراهيتها لمعاوية أكثر من كراهيتها لعلى ، ولذلك استمروا فى حربهم مع معاوية وفى عدائهم لبنى أمية .

وامتدت حياة الخوارج وكان صراعهم مع بنى أمية عيفاً قاسياً وأغلب الظن أن العصبية القبلية كانت أيضاً من دوافع هذه الحروب . فقد تجددت هذه العصبية التى حاربها الإسلام ، ووجدت بعض القبائل أن من المشين أن تلقى عصا القيادة إلى بنى أمية فهبوا فى وجوههم .

وكانت البصرة والكوفة مركزا للخوارج وفيهما التقى الخوارج ، طويلا بالشيعة ومدعى التشيع ، وأغلب الظن أنهم أخذوا عنهم حبهم للثورات وميلهم للفتن والعصيان .

وأخيراً من أهم الأسباب لحركات الخوارج مبالغتهم فى تقديرهم لرأيهم ، فإنهم يرون الرأى فيصبح عندهم عقيدة ولا يحيدون عنه . وقد يكون ذلك الرأى خطير النتائج أو [illegible] [illegible] لذلك . لقد كانوا عبيداً مخلصين لآرائهم لا يفهمون وراءها [illegible] المصلحة [illegible] .
فقد قالوا لعبد الله بن خباب [illegible]
[illegible] أن يأمر [illegible] [illegible]
[illegible] على هذا [illegible]
[illegible]

ويكرمونه ، ويقولون : احفظوا ذمة نبيكم ، ومما روى فى ذلك أن واصل ابن عطاء زعيم المعتزلة كان يسير فى رفقة من أصحابه فأحسوا الحرورية فلدعزوا ، فقال واصل لأصحابه : لا تكلموهم ودعونى وإياهم ، ثم سأله الخوارج ، ما أنت وما أصحابك ؟ قال : مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله . قال الخوارج : قد أجرناكم . قال واصل : فعلمونا . فجعلوا يعلمونهم أحكامهم وجعل واصل يقول قد قبلنا ، فسُرَّ الخوارج منهم وقالوا لهم : امضوا مصاحبين ما عليكم من بأس . قال واصل : ليس ذلك لكم فإن الله يقول : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه »[1] فنظر الخوارج بعضهم لبعض وقالوا : هذا حق وأرسلوا منهم من أبلغهم مأمنهم[2] .

وأمامنا الآن وثيقتان هامتان لزعيمين من زعماء الخوارج تبينان لنا كيف كوّن الخوارج آراءهم وبنوا معتقداتهم .

الوثيقة الأولى كتبها نجدة إلى نافع بن الأزرق لما بلغه استعراضه[3] للناس وقتله الأطفال واستحلاله الأمانة . ونص الوثيقة هو كما أوردها ابن عبد ربه[4] :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فإن عهدى بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف كالأخ البرّ ، لا تأخذك فى الله لومة لائم ، ولا ترى معونة ظالم ، فلما شريت نفسك فى طاعة ربك ابتغاء رضوانه . وأصبت من الحق فصه تجرد لك الشيطان ، فلم يكن أحد أثقل وطأة عليه منك ومن أصحابك . فاستمالك

---

(١) التوبة ٦

(٢) المبرد : الكامل فى اللغة والأدب ج ٢ ص ٢٥٤

(٣) أى استعراضه الناس وقتلهم دون أن يسأل أحداً إن كان مسلماً .

(٤) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩٦ – ٣٩٧

واستغواك ، فغويت ، وأكفرت الذين عذرهم الله فى كتابه من قَعَدة المسلمين وضعفتهم ، فقال جلّ ثناؤه وقوله الحق ووعده الصدق « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله »[1] ثم سماهم أحسن الأسماء فقال « ما على المحسنين من سبيل »[2] ثم استحللت قتل الأطفال وقد نهى رسول الله عن قتلهم ، وقال جلّ ثناؤه « ولا تزر وازرة وزر أخرى »[3] وقال فى القَعَد خيرا وفضل الله من جاهد عليهم ولا تدفع منزلةُ أكثر الناس عملا منزلةَ من هم دونهم قال تعالى « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله »[4] فجعلهم الله من المؤمنين وفضل عليهم المجاهدين . ورأيتَ من رأيك ألا تؤدى الأمانة إلى من يخالفك والله يأمر أن تؤدى الأمانات إلى أهلها فاتق الله . . . .

أما الوثيقة الثانية فجواب نافع بن الأزرق لنجدة ونصه كما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فقد أتانى كتابك تعظنى فيه وتذكرنى . . . . . وتعيب علىّ ما دنتُ به من إكفار القَعَد وقتل الأطفال واستحلال الأمانة ، وسأفسر لك ذلك إن شاء الله . أما هؤلاء القعد فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لايجدون إلى الهرب سبيلا . ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا . وهؤلاء قد فقهوا فى الدين وقرءوا القرآن . والطريق لهم نهجٌ واضحٌ . وقد عرفت مايقول الله فيمن مثلهم إذ قال : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا . ألم تكن أرض الله

---

(١) التوبة ٩١ (٢) التوبة ٩١
(٣) الأنعام ١٦٤ (٤) النساء ٩٥

واسعة فتهاجروا فيها »[١] وقال : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله »[٢] وقال « وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم ، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله »[٣] وقال : « سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم[٤] » فسماهم بالكفر .

وأما أمر الأطفال فإن نبى الله نوحا كان أعرف بالله يا نجدة منى ومنك قال « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفار[٥] » فسماهم بالكفر وهم أطفال وقبل أن يولدوا فكيف جاز ذلك فى قوم نوح ولا يجوز فى قومنا . . .

وأما استحلال الأمانات ممن خالفنا فإن الله عز وجل أحل لنا أموالهم كما أحل لنا دماءهم فدماؤهم حلال طلق (طيب) وأموالهم فىء للمسلمين . فاتق الله يا نجدة وراجع نفسك . . . .[٦]

وهكذا كان استدلال نافع ، ومن الواضح أنه استدلال واهٍ ضعيف ، ولكن الأزارقة كانوا يرونه سـليما كأنه التنزيل وكانوا يدينون به ويعملون بمقتضاه ، وقد جلب عليهم هذا سخط الكثيرين حتى أعداء بنى أمية ، ولكنهم لم يبالوا بسخط أحد أو رضاه وكان كل اهتمامهم أن يسيروا فى الطريق الذى اعتقدوا أنه الحق مهما كانت نتائج سيرهم .

(ب) ملامح الخوارج العالية :

امتاز الخوارج بملامح وصفات خاصة قلّ أن توجد فى سواهم . وسنبرز فى الصفحات التالية خصائص الخوارج وأخلاقهم . وسنرى أنها

---

(١) النساء ٩٧ — (٢) التوبه ٨١

(٣) التوبة ٩٠ — (٤) التوبه ٩٠

(٥) نوح ٢٦ — ٢٧

(٦) العقد الفريد جـ ٢ ص ٣٩٧ — ٣٩٨

خصائص عربية تختلف عن أخلاق الشيعة الذين كان طابعهم العام غير عربي ، سنرى أن أخلاق الخوارج عربية فى خيرها وشرها ، عربية فى البساطة وعدم العمق ، عربية فى الصراحة والوضوح ، عربية فى الشجاعة وحب الوعى ، عربية فى الفردية وضعف الروح الجماعية ، عربية فى الوفاء ، عربية فى عدم تقديس الزعماء . وفيما يلى تفصيل لهذا الإجمال :

وأول ما نبرزه من ملامح الخوارج هو البساطة والسطحية وعدم العمق فى فهم الأمور ، وعدم الغور فى تقدير نتائج ما يقدمون عليه ، ولا شك أن من سطحيتهم وأخذهم بالظاهر الخاطئ ما أوردناه آنفا مما استدل به نافع بن الأزرق على صحة قتل الأطفال والنساء ، وما أوردناه كذلك من قتلهم عبد الله بن خبّاب متأولين حل قتله ، وقصة ذلك أن فى القرآن آية نصها « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »[١] وآية أخرى نصها « إن الحكم إلا لله[٢] » وعلىّ حكم الرجال ، وعلَى هذا حكموا بكفره ، فلما قَدِم عليهم عبد الله بن خباب وسألوه رأيه فى على فأثنى عليه ومدحه ، قالوا له : إن القرآن الذى فى رقبتك يأمرنا بقتلك . لأنه يتولى عليا وعلى فى نظرهم كافر[٣] . والعجيب أنهم فى الوقت الذى قتلوا فيه عبد الله يأنفون أن يقبلوا هبة صغيرة من نصرانى وأصروا على دفع ثمنها له ، فدهش النصرانى وقال : تقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلون منى جنى نخلة إلا بثمن[٤] .

ومن بساطتهم وعدم تعمقهم أنهم يقدمون على ابن الزبير ويحاربون معه وينصرونه حتى تنجلى جيوش الأمويين عن مكة ، وحينئذ فقط يطلبون معرفة كنهه وهل يعترف بكفر عثمان وعلىّ وكفر أبيه الزبير

---

(١) المائدة ٤٤ (٢) الأنعام ١٥٧

(٣) اقرأ قصة عبد الله مع أحد رجال فى العقد الفريد جـ ٢ ص ٣٩٠

(٤) المرجع السابق

وخالته عائشة . . . ومن الطبيعى أن يرفض عبد الله هذا الحمق . وحينئذ ينفضون عنه ويهاجمونه ويشعلون الحروب فى المناطق التابعة له[١] .

ومن ملامح الخوارج الغالبة تشددهم فى العبادة ومبالغتهم فيها ، فقد روى أن ابن عباس عندما ذهب إليهم رسولاً من علىٍّ رأى منهم جباها قَرِحةً لطول السجود وأيدياً كثَفِنات الإبل (أى ما يمس الأرض عندما يبرك البعير لغلظ أيديهم من كثرة السجود) وهم مشمِّرون للعبادة[٢] .

وقتل زيادُ بن أبيه أحدَ الخوارج ثم دعا مولاه فقال له : صف لى أمره واصدق ؛ قال المولى : أأطنب أم أختصر ؟ فأجابه زياد : بل اختصر . قال المولى : ما أتيته بطعام فى نهار قط ، ولا فرشت له فراشا بليل قط[٣] .

ويصف أبو حمزة الخارجى أتباعه بقوله فى خطبة ألقاها بمكة : يأهل مكة ، تعيروننى بأصحابى ، تزعمون أنهم شباب ، وهل كان أصحاب رسول الله إلا شبابا ، شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر (بهم نحافة من شدة السهر) نظر الله إليهم فى جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مرَّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مرَّ بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك فى جنب الله ، حتى إذا رأوا

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٣٧ واقرأ المراسلات والمناقشات بين ابن الزبير وبين نافع ابن الأزرق فى العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩١ وما بعدها .

(٢) ابن عبد ربه العقد الفريد ج ٢ ص ٣٨٩

(٣) الشهرستانى الملل والنحل القسم الاول ص ١٠٨

السهام قد فُوِّقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتُضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت إليه طير السماء ، فكم من عين فى منقار طير ، طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله .

وجماعة فيهم هذا الورع وهذه التقوى لا يُتَّهمون فى إيمانهم ، ولا يقال عنهم ما قلناه من قبل فى مدعى التشيع من أنهم تظاهروا بدخول الإسلام ليكيدوا له وليخضدوا شوكته ، فالخوارج مسلمون حقيقة ، يسعون لخير الإسلام ومجده ، ولكنهم فى سعيهم ضلوا الطريق دون أن يدركوا أنهم ضلوا ، فواصلوا السير فى طريق الضلال وأوغلوا فيه ، ولقد وصفهم عمر بن عبد العزيز أبلغ وصف حين قال لهم : إنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها[1] .

ويقول Wellhausen إن الخوارج لم يكونوا بذرة فاسدة بذرها اليهودى ابن سبأ سرًّا ، بل كانوا نبتة إسلامية حقيقية . . . ولم يكونوا فرقة تعيش فى الظلام بل كانوا ظاهرين علنا على أوسع أساس[2] .

على أن الخوارج إذا لم يكونوا أعداء للإسلام والمسلمين بطريق مباشر فقد آل أمرهم ليصبحوا أعداء خطرين على الاسلام والمسلمين . فقد ابتدعوا فى الإسلام ما ليس منه وأسرفوا فى التنكيل بالمسلمين وأزهقوا آلاف الأرواح وقضوا باليتم والترمل والثكل على آلاف الأطفال والزوجات والأمهات . ثم شغلوا جيوش الدولة فأوقفوا نشاطها وأتاحوا لجيوش الأعداء أن تهدد العالم الإسلامى وأن تزحف على أطرافه .

---

(١) ابن عبد الحكم سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٣١

(٢) الخوارج والشيعة ص ٢٥ — ٢٦

وليس معنى دفاعنا عن إسلام الخوارج أنهم كانوا جميعاً مُوَالين للإسلام ، لا ، فإن من فرقهم العجاردة الذين أنكروا كون سورة يوسف من القرآن وزعموا أنها قصة من القصص[١] ، ومنهم اليزيدية الذين زعموا أن الله تعالى سيبعث رسولا من العجم وينزل عليه كتابا قد كتب فى السماء[٢] ، وقد كفرْ الفريقان بهذا التفكير السقيم .

ومن الملامح البارزة فى الخوارج الشجاعة وحب الوغى والاستهانة بالدنيا دفاعا عن رأى يعتنقونه أو مبدأ يدينون به ، يحكى الطبرى أن جماعة من الخوارج كسروا سجن الكوفة وخرجوا منه عقب وفاة المغيرة بن شعبة ثم اجتمع هؤلاء ليتدبروا أمرهم ويتدارسوا شئونهم فخطبهم زعيمهم حيان بن ظبيان ، وحبَّب إليهم الموت فى سبيل المبدأ وذكر لهم ألا أمل فى النصر لقلة العدد والعدة ولكنَّه قال إن حربنا للظلمة يخرجنا من الإثم ، وهتف فيهم : تعالوا إلى الموت ، أخرجوا أنفسكم من الفتن ، هلموا إلى جنة الخلد . فأطاعوه ، وأشعلوا ثورة كانوا جميعاً ضحية فيها وكانوا يعتقدون أنهم سيكونون ضحية[٣] .

وقيل للمهلب بن أبى صفرة : ما أعجب ما رأيت فى حرب الأزارقة ؟ فقال : فتى كان يخرج إلينا منهم فى كل غداة فينشد :

وسائلة بالغيب عنى ولو درت ... مقارعتى الأبطال طال نحيبها

إذا ما التقينا كنتُ أول فارس ... يجود بنفس أثقلتها ذنوبها

ثم يحمل فلا يقوم له شىء إلا أقعده . فإذا كان من الغد عاد لمثل ذلك[٤] .

---

(١) الشهرستانى الملل والنحل القسم الأول ص ١١٥

(٢) المرجع السابق ص ١٢٢

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٢٢٩ — ٢٣٠

(٤) ابن عبد ربه العقد الفريد ج ١ ص ١٢١

والمهلب بطل مغوار يرجع إليه الفضل فى تحطيم صخرة الخوارج وهزّ سلطانهم ، ومع هذا فالمهلب قاسَى منهم كثيرا وعانى من صمودهم إليه وثباتهم أمام حملاته ، يذكر الطبرى[1] وابن عبد ربه[2] أن عبد الملك ابن مروان أعطى للمهلب خراج بلاد فارس وخراج كثير من الكور الأخرى المجاورة ليستعين بها على حرب الخوارج ، ويبدو أن الحجاج نَفِس على المهلب ذلك وظن أنه يتهاون فى حرب الخوارج ليبقى له هذا الجاه والغنى ، فكتب له يستعجله حربهم فأجاب المهلب : إن من البليّة أن يكون الرأى بيد من يملكه دون من يبصره[3] . ولكن الحجاج لم يسكت عنه ، وأرسل إليه البراء بن قبيصة مع خطاب يقول فيه : « لقد اصطلمت هذه الخارجة وأنت تحب طول بقائهم لتأكل الأرض حولك ، فانهض لهم وجاهدهم وإياك والعلل والأباطيل . . . » فأخرج المهلب بنيه فى الكتائب ، وخرج هو يدير المعركة العظمى وأخرج البراء ليشهد ، فرأى البراء قتالا أشد ما يكون القتال ، ورأى الرجال تحمل على الرجال فى حرب شعواء ، وتكرر ذلك المنظر فى عدة أيام ، فقال البراء للمهلب : ما رأيتُ كبنيك فرسانا قط ، ولا كفرسانك من العرب فرسانا ، ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك قط أصبر ولا أبأس ، ووالله ما يعينك عليهم إلا الله ، وأنت بهم معذور . وعاد البراء ليخبر الحجاج بذلك .

وخرج مرداس أبوبلال فى أربعين رجلا أيام عبيد الله بن زياد ، فأرسل لهم هذا أسلم بن زرعة الكلابى فى ألفين . ودارت معركة بين الفريقين فى مكان يقال له آسَك ، والعجيب أن تدور الدائرة على أسلم وأصحابه ، وقال أحد شعراء الخوارج فى ذلك :

أألفا مؤمن منكم زعمتم ويقتلهم بآسَك أربعونا

---

(١) تاريخ الطبرى حـ ٥ ص ١٢٠ وما بعدها

(٢) العقد الفريد حـ ١ ص ١٤٥ والكامل للمبرد حـ ٢ ص ١٧٢

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ١ . ١٠٥

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصرونا(١)

وتروى عن الخوارج مجموعة ضخمة من المواقف يستعذبون فيها الموت حبا للقاء الله ، فمن ذلك أن على بن أبي طالب حمل على خارجى وضربه بسيفه ضربة قاتلة ، فلما أحس الخارجى بالموت قال : حبذا الروحة إلى الجنة ، وهناك خارجى آخر طعن برمح ، فجعل يسعى إلى قاتله ويقول : وعجلت إليك ربى لترضى(٢) .

ولما خرج حَوْثرة الأقطع يقود جماعة من الخوارج فى عهد معاوية استعان معاوية بأبى حوثرة ليرد ابنه ، فجاء الأب يطالب من الابن الكف عن الثورة فلم يجبه . فقال الأب لحوثرة : أجيئك بابنك لعلك تراه فتحن إليه ؟ فقال حوثرة : يا أبت ، أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق منى إلى ابنى(٣) .

ومما قاله مرداس أبو بلال بعد أن قتل بعض أصحابه يتعجل الموت للحاق بهم :

أبعد ابن وهب ذى النزاهة والتقى ومن خاض فى تلك الحروب المهالكا
أحب بقاءً أو أُرَجِّى سلامة وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فياربِّ سلِّم نيتى وبصيرتى وهب لى التقى حتى ألاقى أولئكا(٤)

وكان بين صفوف الخوارج مجموعات كبيرة من النساء ، ولم يكن هؤلاء أقل من الرجال شجاعة واستعدادا للموت ، ومن هؤلاء أم حكم

---

(١) الطبرى ح ٤ ص ٢٣٢ وابن عبد ربه ج ١ ص ٢٥٥
(٢) ابن عبد ربه العقد الفريد ح ١ ص ٢٥٦
(٣) ابن عبد ربه . العقد الفريد ح ١ ص ٢٥٣ والكامل للمبرد ح ٢ ص ١٧٤
(٤) ابن عبد ربه العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩٩ - ٤٠٠

زوجة قطرى بن الفجاءة ، وكانت تشترك فى الحروب بشجاعة فائقة وإيمان بالغ ، ومن رجزها وهى تحمل على صفوف الأعداء :

أحمــل رأسا قد سئمتُ حمله
وقــد مللت دهنــه وغسْلَه
ألا فتى يحمــل عنى ثِقْله[1]

وكان شبيب بن يزيد الشيبانى يخوض حروبه الطاحنة الطويلة ضد جيوش الحجاج ومعه مجموعة من النساء اللائى لم يكنّ أقل من الرجال حماسة وبطولة ، ومن هؤلاء زوجته غزالة وأمه جهيزة . وقد ماتت زوجته فى ساحة الوغى بين صليل السيوف وطعن الرماح[2] .

ومن ملامح الخوارج الوفاءُ . يذكر الطبرى[3] أن عبيد الله بن زياد قبض على مرداس أبى بلال الذى تحدثنا عنه من قبل وأودعه السجن ، ولكن السجان رأى عبادة مرداس وصلاحه ، فكان يأذن له فى مطلع الليل فينصرف إلى داره ويعود إلى السجن فى مطلع الفجر دون أن يعلم ذلك أحد ، وكان لعبيد الله بن زياد جليس على صلة صداقة بأسرة مرداس ، فسمع هذا الجليس من ابن زياد ذات ليلة أنه ينوى قتل مسجونى الخوارج إذا أصبح ، وصدرت الأوامر للسجان بتقديمهم صباحا إلى المقصلة ، فعرف مرداس وهو فى بيته ذلك الخبر من جليس ابن زياد ، وقيل لمرداس : أنج بدمك ولا تعد إلى السجن . قال مرداس : إنى أكره أن أواجه ربى وأنا خائن وعزم على أن يعود فى مطلع الفجر كعادته . أما السجان فأمضى ليلة سوء إشفاقا من أن يعلم مرداس الخبر فلا يرجع . فلما كان الوقت الذى يرجع فيه إذا به قد طلع . فقال له السجان بعد أن سماه

(١) الأغانى ج ٦ ص ٣ – ٧
(٢) انظر اليعقوبى ج ٣ ص ١٧ والطبرى ج ٥ ص ٩٥
(٣) تاريخ الطبرى ج ٥ ص ٢٣٢

السجن : هل بلغك ما عزم عليه الأمير ؟ قال : نعم . قال : ثم غدوت ؟ قال : نعم ولم يكن لى أن أخون ولا أن أقابل إحسانك لى بفرار تعاقب أنت بسببه . وفى الصبح جلس ابن زياد وقدم الخوارج للموت حتى جاء دور مرداس فوثب السجان – وكان ظئرا لابن زياد – وأخذ بقدمه وقال : هب لى هذا وقص قصته فوهبه له وأطلقه .

ومن الملامح شديدة الوضوح فى الخوارج ما يمكن أن نسميه « الفوضى » والاضطراب وعدم الخضوع للنظام ، ولولا ذلك لكانت قوتهم غالبة ، ولكان من العسير القضاء عليهم ، ومن فوضاهم أنهم عادوا الناس جميعا ، وأعلنوا الحرب على كل من لم يكن من جماعتهم ، ومن فوضاهم أنهم كانوا كثيرى الفرقة ، يخرج بعضهم على بعض لأوهى الأسباب ، ويعتبرون الصديق عدوا دون جريرة تذكر ، وكان خروجهم على على نموذجا احتذوه فى جميع تاريخهم . فاستسهلوا الخروج على الزعماء فى كثير من الأحايين وكفروا الرؤساء واستحلوا دماءهم ، والأمثلة على ذلك تزدحم بها كل المراجع التى بين أيدينا وقد مر منها نماذج عديدة ، ومن فوضاهم البالغة أنهم كانوا يحكمون بتكفير الناس لأتفه الأسباب أو بدون سبب حتى قال بعضهم إن الإمام إذا كفر كفرت الرعية[1] ، وليت شعرى كيف يزول اعتقاد المؤمنين إذا ضل إمامهم ؟ ومن فوضاهم مثال أورده الشهرستانى[2] يدعو للسخرية والضحك ، فقد نقم أصحاب نجدة بن عامر عليه بعض تصرفاته فاستتابوه فتاب ، ثم ندموا على استتابته وقالوا : أخطأنا وماكان لنا أن نستتيب الإمام ، وماكان له أن يتوب باستتابتنا إياه ، فتابوا من ذلك وطلبوا منه أن يتوب من توبته وإلا نابذوه فتاب من توبته ، ولكن ذلك لم يكفهم أيضا فقال بعضهم إن هذا إقرار منه بصحة أحد الذنبين : صحة ذنب تاب منه أولا أو صحة توبة من غير ذنب فكفروه ووثبوا عليه وقتلوه .

---

(١) الشهرستانى الملل والنحل القسم الاول ص ١١٤

(٢) ... ص ١١١ – ١١٢

تلك هي صور من ملامح الخوارج فيها خير وفيها شر ، وذلك لأنه لم تكن لهذه الجماعة مبادئ ثابتة مبنية على دراسات عميقة . فما أبعدهم عن الدراسات ، وما أبعدهم عن العمق فيها .

(ج) فرق الخوارج وآراؤها فى السياسة وللدين :

قلنا فيما سبق إن من ملامح الخوارج حب الفرقة والانقسام وعدم احترام الزعماء ، وقد ظهر لنا ذلك فى عهودهم المبكرة . فهم يخرجون على علىّ ثم يدعوهم فيعود أكثرهم إليه ، ويخرجون مرة أخرى فيرسل إليهم عبد الله بن عباس فينشطرون ويعود شطرهم ويبقى الشطر الآخر ، ويحارب بعضهم عليا ويعتزله آخرون دون حرب . ولكنهم بعد موت علىّ أجمعوا أمرهم على كراهة معاوية وعلى حربه . وهتف فيهم زعيمهم فروة بن نوفل الأشجعى قائلا : قد جاء الآن ما لا شك فيه فسيروا إلى معاوية فجاهدوه . . . . .[1] وهكذا التقى الخوارج وزال ترددهم وشكهم ، فتكونت منهم قوة جبارة .

ووضع الخوارج برنامجهم ودونوا اتجاههم فى تلك الفترة الأولى من حياتهم . وكان برنامجا سياسيا جلّ الحديث فيه عن الخلافة . فقالوا إن الإمامة غير ضرورية ، وعلى الناس أن يتناصفوا فيما بينهم[2] ، ويجوز لهم أن ينصبوا إماما ، ويلزم أن يختاره المسلمون اختياراً حرا . ولا يشترط فيه أن يكون من قريش ، ويجوز أن يكون حراً أو عبداً أو نبطياً ، وتلزم طاعته ما أطاع الله ورسوله ، فإن لم يطع وجب تنحيته وعزله . وطبّق الخوارج هذه النظرية ، وقد [illegible] عروة بن [illegible] صدق [illegible] عن وجهه [illegible] تصور هذه [illegible] . [illegible] عن أبى بكر وعمر [illegible] على

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

أحواله فى خلافته ست سنين ، ثم تبرأت منه بعد ذلك للأحداث التى أحدثها ، وشهد عليه بالكفر ، وسأله عن علىّ فقال : كنت أتولاه إلى أن حكّم الحكمين ثم تبرأت منه بعد ذلك وشهد عليه بالكفر ، وسأله عن معاوية فسبه سباً قبيحاً (١) .

وهكذا حتى عهد معاوية كان الخوارج قوة واحدة تقريبا ، وحديثهم كله عن نظرية الخلافة سالفة الذكر . وبناءً على هذه النظرية يُعَدُّ معاوية غاصبا ، لأنه لم يتم اختياره بطريقة حرة ، ثم هو بعيد عن العدالة ، قيصريُّ المظهر ، ومن ثم كان واجبا عليهم الخروج عليه ففعلوا ، وإذا كان هناك تردد فى عدائهم لعلى فقد جاء فى عهد معاوية ما لا شك فيه من الأمر كما ورد فى عبارة فروة السالفة الذكر .

ومضى معاوية وتولى الخلافة بعده ابنُه يزيد ، ولم يتولها بانتخاب ، ولا كان فى نظرهم صالحا لها ، ولذلك هبوا فى وجهه كما هبوا فى وجه أبيه ، ورأوا عبد الله بن الزبير يحاربه ويخرج عليه فأحبوه لخروجه على الإمام الجائر ، ولوقوفه للدفاع عن البيت الحرام الذى كانت جيوش الأمويين تسعى لدكه بعد أن هدمت المدينة المنوَّرة وقتلت صناديدها ، فقالوا : يجب علينا أن نمنع حرم الله منهم ، ونمتحن ابن الزبير فإن كان على رأينا بايعناه ، فلما صاروا إليه عرفوه أنفسهم وما قدموا له ، فأظهر لهم أنه على رأيهم . فساعدوه حتى عادت جيوش الشام ، ثم أقبلوا يلوم بعضهم بعضا ، وقالوا : كيف ننصر هذا الرجل دون أن نعرف كنهه ، تعالوا بنا ندخل على هذا الرجل فننظر ما عنده ، فإن قدّم أبا بكر وعمر وبرئ من عثمان وعلى وكفَّر أباه وطلحة بايعناه ، وإن كانت الأخرى تشاغلنا بما يجدى علينا . ولم يوافقهم ابن الزبير على رأيهم . فخرجوا من مكة ، ولكنهم انقسموا جماعتين

(١) الملل والنحل ص ١٠٨

كبيرتين لكل منهما رأى واتجاه ، وأخذوا يتكلمون فى اللاهوت فشملت أبحاثهم الجديدة السياسة والدين وكانوا من قبل يتكلمون فى السياسة لا يتعدونها ، واتجهت الجماعة الأولى إلى البصرة وكان على رأسها نافع بن الأزرق فسميت الأزارقة ، واتجهت الجماعة الثانية إلى اليمامة ، وكان من أصحاب نافع عبد الله بن الصفار وعبد الله بن إباض وحنظلة بن بيهس ، أما الطائفة التى اتجهت لليمامة فكان من زعمائها عبد الله بن ثور أبو فديك وعطية ابن الأسود واليشكرى وأبو طالوت ، ثم اتفقت هذه الطائفة على اختيار نجدة بن عامر رئيساً لها فسميت النجدات[1] ، وكان مصدر الانقسام هو بدؤهم الكلام فى اللاهوت واختلافهم فى الرأى ، وقد كان هذا الانقسام نذير انقسامات أخرى كثيرة حدثت لأوهى الأسباب .

ويجدر بنا هنا أن نثبت وثيقة تبين لنا مطلع التفكير الدينى عند الخوارج وأسلوبه وكيف كان ذلك التفكير سبباً فى انقسامهم إلى فرق وشيع :

يقول الطبرى[2] إن أتباع نافع دخلوا البصرة بعد عودتهم من مكة ، ووجدوا فى البصرة تلك الخلافات والاضطرابات التى أعقبت وفاة يزيد فانتهز نافع هذه الفرصة وأعلن الخروج والثورة . وتبعه أغلب الخوارج . وتخلف عنه قليل منهم عبد الله بن صفار وعبد الله بن إباض ورجال معهما لم يروا الخروج . ونظر نافع بن الأزرق ورأى أن ولاية من تخلف عنه لا تنبغى وأن من تخلف عنه لا نجاة له . فقال لأصحابه : إن الله قد أكرمكم بمخرجكم وبصَّركم بما عمى عنه غيركم . ألستم تعلمون أنكم إنما خرجتم تطلبون شريعته وأمره . فأمره لكم قائد . والكتاب لكم إمام . وإنما تتبعون سننه وأثره ؟ فقالوا : بلى . فقال : أليس حكمكم فى وليكم حكم

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٣٦ وما بعدها والمبرد ج ٢ ص ٣٥٠ وما بعدها .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٤٣٩ وما بعدها

النبى صلى الله عليه وسلم فى وليه ، وحكمكم فى عدوكم حكم النبى صلى الله عليه وسلم فى عدوه ، وعدوكم اليوم عدو الله وعدو النبى صلى الله عليه وسلم ، كما أن عدو النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ هو عدوُّ الله وعدوكم اليوم ؟ فقالوا : بلى : قال : فقد أنزل الله تبارك وتعالى « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين »(١) وقال « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن »(٢) فقد حرم الله ولايتهم ، والمقام بين أظهرهم ، وإجازة شهادتهم ، وأكل ذبائحهم ، وقبول علم الدين منهم ، ومناكحتهم ومواريثهم ، وقد احتج الله علينا بمعرفة هذا وحق علينا أن نعلم هذا الدين الذى حرّجنا ولا نكتم ما أنزل الله ، والله عز وجل يقول : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون »(٣) فاستجاب له إلى هذا الرأى جميع أصحابه . فكتب به إلى عبد الله بن الصفار وعبد الله بن إباض ومَنْ قبلهما من الناس ، فلما قرأ عبد الله بن الصفار الكتاب وضعه خلفه . فقال له ابن إباض . مالك لله أبوك ؟ فدفع الكتابَ إليه فقرأه وقال : قاتله الله ! أىَّ رأىٍ رأى ، صدق نافع لو كان القوم مشركين ، ولكنه كذب وكذبنا فيما يقول . وإن القوم كفّار النعم وهم برآء من الشرك . فقال ابن الصفار برئ الله منك فقد قصرت ، وبرئ الله من ابن الأزرق فقد غلا ، برئ الله منكما جميعاً وقال الآخر . فبرئ الله منك ومنه وتفرق القوم

ذلك هو أساس تفكيرهم ومطامع خلافاتهم ، وقد انشعب الأزارقة بهذا إلى ثلاث فرق هى الأزارقة أتباع ابن الأزرق . والاباضية أتباع ابن إباض . والصفرية أتباع ابن الصفار(٤) ويضاف إليهم النجدات

(١) سورة براءة الآية ١

(٣) البقرة ٢٢ (٢) البقرة ١٥٩

(٤) [illegible] ج ٢ ص ٥٩١ [illegible] يذكر الصفرية [illegible] ابن الاصفر [illegible] ص ٢٣)

سالفه الذكر ، وبهذا تتكون الفرق الأربعة الأولى من فرق الخوارج ، وقد توالت بعد ذلك انقساماتها وتشعبها إلى شيع وأحزاب ، وسنتكلم فيما يلى بإيجاز عن أهم فرق الخوارج ثم نتكلم عن آرائهم فى المشكلات الدينية التى بحثوها .

الأزارقة :

أصحاب أبى راشد نافع بن الأزرق الذين خرجوا مع نافع من البصرة إلى الأهواز فغلبوا عليها وعلى فارس وكرمان ، وكان مع نافع من زعماء الخوارج عطية بن الأسود[1] ، وقطرى بن الفجاءة وعبيدة بن هلال اليشكرى وصخر بن حبيب وصالح بن مخراق وعبد ربه الكبير وعبد ربه الصغير . والأزارقة أعظم فرق الخوارج ، وأكثرهم خطراً ، وأبعدهم انتصارات . وقد هزموا كثيراً من جيوش المسلمين ، وتصدى لهم المهلب بن أبى صفرة ، اختاره أهل البصرة ليذود عنهم وعن حرمهم ، ثم أقره ابن الزبير على حربهم ، وبعد ابن الزبير أقره عبد الملك بن مروان والحجاج ، وقد استمرت الحرب بين المهلب والأزارقة تسعة عشر عاماً . ولولا بطولة المهلب وانقسام الأزارقة لامتدت هذه الحروب أكثر مما امتدت . ومن أعظم قادتهم بعد نافع قطرى بن الفجاءة وقد تحدثنا من قبل عن اتجاهات الأزارقة الدينية ، ويقول الشهرستانى[2] إن أهم بدعهم هى

١ — تكفير من سواهم من المسلمين وتخليدهم فى النار [illegible]

٢ — تكفير القعدة .

٣ — إباحة قتل أطفال المخالفين ونسائهم

٤ — إسقاط [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

٥ ـ الحكم بأن أطفال المشركين فى النار مع آبائهم .

٦ ـ التقية غير جائزة فى قول ولا عمل .

٧ ـ تكفير من ارتكب الكبيرة .

النجدات العاذرية :

أتباع نجدة بن عامر وكان قد ذهب إلى اليمامة بعد خروجه من مكة كما سبق القول ، ثم أراد العودة للوحدة مع نافع وتقريب وجهات النظر ، فسار بعسكره تجاه البصرة فقابله أبو فديك وعطية بن الأسود مع أتباع لهما عائدين من معسكر نافع ، وذكروا لنجدة بِدَعَ نافع ، وأعادوه وبايعوه رئيساً لهم ، ونجدة متساهل جداً إذا قيس بالأزارقة ، فهو لا يكفر القعد ويبيح التقية ويعذر بالجهالات ، ويرى أن الدين أمران : أحدهما معرفة الله ومعرفة رسوله والإقرار بما جاء من عند الله جملة ، وهذا واجب على جميع المسلمين ، والأمر الثانى هو ما سوى ذلك والناس معذورون إن جهلوه ، ولذلك سمى هؤلاء العاذرية ، ويرى أن من كذب كذبة صغيرة أو كبيرة وأصر عليها أشرك ، ومن زنى وشرب وسرق دون إصرار لا يشرك[١] .

الإباضية :

أتباع عبد الله بن إباض ويرون صحة مناكحة المخالفين من المسلمين ، والتوارث معهم ، وأن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى . ويقبلون شهادة مخالفيهم ، وقالوا إن أفعال العباد مخلوقة لله إحداثاً وإبداعاً ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً ، ولا يسمون إمامهم ،

---

(١) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى والفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم والملل والنحل للشهرستانى .

« أمير المؤمنين » ولا يسمون أنفسهم « مهاجرين » ولا يجيزون قتال مخالفيهم إلا بعد دعوتهم ، ولم يبق من الخوارج إلا طائفة من الإباضية تقيم فى عمان وفى جهات قليلة بشمال إفريقية[١] .

العجاردة :

أتباع عبد الكريم بن عجرد ، وهو من تلاميذ عطية بن الأسود اليشكرى من النجدات ، وقيل إنه من تلاميذ ابن بيهس . ولا مانع أن يكون قد تنقل بين هذا وذاك ، ويتوقف العجاردة فى أمر أطفال المسلمين حتى البلوغ فيُدْعَوْن للإسلام . أما أطفال المشركين ففى النار مع آبائهم . ويتولون القَعَدة ويرون الهجرة فضيلة لا فريضة ويكفرون بالكبائر . ويتضح فى العجاردة الميل للانقسام . ويذكر الشهرستانى من أقسام العجاردة سبعة هم : الصَّلْتيَّة والميمونية والحمزية والخَلَفية والأطرافيَّة والشُّعَيْبيَّة والحازميَّة[٢] .

الصفرية :

يختلفون فى نسبة هذه الفرقة من الخوارج فينسبها بعضهم إلى زياد بن الأصفر ، وينسبها آخرون إلى عبد الله بن الصمار ، وتنسب كذلك إلى الصفرة لأن أصحابها اصفرت وجوههم من طول العبادة وكثرة الصوم . وهى بهذا المعنى تبدأ بصالح بن مسرّح الذى كان – كما يقول الطبرى[٣] – ناسكا مخبتا مصفرّ الوجه صاحب عبادة ثم خرج يقود فريقاً من الخوارج . ومن أهم رجاله شبيب بن يزيد الشيبانى الذى تنسب له طائفة الشبيبية . وقد تولى شبيب قيادة الفرقة بعد موت صالح ويوضع شبيب فى عداد أبطال مع نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة . وقد دوّخ شبيب جيوش

---

(١) المراجع السابقة (٢) مراجع السابقة أيضا

(٣) الطبرى جـ ٥ ص ٥٥

الحجاج وقتل أربعة وعشرين من أمراء هذه الجيوش وسجل انتصارات باهرة واستطاع أن يدخل الكوفة مرتين ويدق باب الحجاج ، ويبث الذعر فى نفوس بنى أمية ، ولكن الحجاج صمد إليه وأرسل إليه الجيش بعد الجيش حتى استطاع سميان بن أبرد الكلبى أن يحاصره وهو يعبر نهر دجيل ، فدارت السفن وغرق شبيب سنة ٧٧ هـ أو ٧٨ كما سبق القول .

ومبادئ الشبيبية هى المبادئ العامة للخوارج ، ويحكى أن الأسرى من أصحاب شبيب لما وقفوا بين يدى الحجاج أخذ يضرب رءوسهم واحداً واحداً ، حتى جاء دور واحد منهم فقال : أمهلنى حتى أقول كلمة وأنشد :

أبرأ إلى الله من عمرو وشيعته ومن على ومن أصحاب صفين
ومن معاويه الطاغى وشيعته لا بارك الله فى القوم الملاعين

وهو بذلك يسجل مبادئ جماعته[1] .

المشكلات الدينية التى بحثها الخوارج :

اتجه أغلب الخوارج إلى القول بأن العمل جزء من الإيمان ، فليس الإيمان هو فقط الاعتقاد والنطق بالشهادتين وإنما يلزم أن يتمّ مع ذلك العملُ بأوامر الدين كالصلاة والصوم والحج والعدل والصدق .

وفيما سوى هذا المبدأ (العمل جزء من الإيمان) نجد الخوارج يختلفون فرقا وشيعا . وفيما يلى حديث موجز عن آرائهم فى أهم المشكلات التى تعرضوا لها .

(٢) انظر الطبرى والملل والنحل ... [illegible]

مرتكب الكبيرة	أطفال المخالفين	القعود	الـ ة
الأزارقة : كافر كفر ملة يخرج بذلك عن الإسلام **الإباضية :** كافر كفر نعمة فلا يخرج عن الإسلام **الصفرية :** ما كان من الأعمال له حد فى القرآن سمى مرتكبه باسمه فمن ارتكب الزنى سمى زانيا ومن سرق سمى سارقا ، ولا يسمى كافرا ، أما الكبائر التى لم يحدد القرآن عقوبتها فيكفر بها مرتكبها كترك الصلاة والفرار من الزحف **البيهسية :** ما فيه حد يحد صاحبه ويسمى باسمه وما ليس فيه حد فهو مغفور	**الأزارقة :** يجوز قتل أطفال المخالفين ونسائهم **النجدات :** لا يجوز قتلهم **العجاردة :** يوقف الحكم عليهم حتى البلوغ **الأباضية :** التوقف ولكن يجوز تعذيبهم على سبيل الانتقام	**الأزارقة :** يكفر القعده ومن لم ساحروا مع مانع **النجدات :** القعود جائز والخروج أفضل **الصفرية :** القعود جائز	**الأزارقه** لا ـور التقية ى ٭ل ولا ـ١، ٤ و ١ يستطع عرة ٣ س أده ، أن يقول دالة ة لـ حو ى القتل ، فهه ـأل ـاد ، أنه ٣ ١ دا رايك ى ؟ ١ ٥احات إن أولك لر ٥ . ١ رك اسلـ ام ، وأ ـ ٭ ما ىد ما عاص ر ىات **النجداب** ٠ التقيه جائزه مطلقا **الصفريه** التقيه جائزه ى ا ٥ ا ، ـ ا ا

المعـــتزلة

والمرجئة والجبرية

المعتزلة لون آخر من الحركات التى قامت فى إبان الدولة الأموية ، ولها طابع يختلف عن طابع الحركات التى سبق الحديث عنها ، فهى حركة فكرية محضة ، لم تكون جيشاً ولم تشهر سيفاً ، وما روى عن اشتراك بعض قادتها كعمرو بن عبيد فى الهجوم الذى شنه يزيد بن الوليد وأسقط به الوليد بن يزيد ، لا يجعلها فرقة ذات مبادئ عسكرية ، لأن الثورة ضد الوليد لم تكن ثورة المعتزلة . وإنما كانت ثورة بعيدة الجزور تتصل بكفاءة الخليفة وأخلاقه كما سبق أن شرحنا ، فاشتراك بعض المعتزلة فيها إنما هو اشتراك فردى يدخل فى حدود المبادئ العامة التى تثير الناس على حاكم باغ أو حاكم مستهتر .

وإذا كانت حركة المعتزلة فكرية دينية ، وإذا كانت لم تكون جيشاً ولم تشهر سيفاً . فإنها عندما قويت لم تأنف أن تستعمل الضغط ضد مخالفيها كما سنشرح ذلك عند الكلام عن مشكلة خلق القرآن فى الجزء التالى من هذا الكتاب[١] ، يوم أرغم الخليفة المأمون العلماء على اتباع رأى المعتزلة فى القول بأن القرآن مخلوق ، واقتضت فلسفته أن يُعَدَّ فاسقاً وخارجا على الدين من يقول بأن القرآن ليس مخلوقاً[٢] . وقد عُدَّ استعمال الضغط من مواقف المعتزلة المعيبة ، وكان هذا الضغط من أهم الأسباب التى قضت على هذا المذهب .

ذلك هو لون حركة المعتزله ، حركة فكرية . بحثت كثيراً من المبادئ الدينية وبحثت كذلك بعض الأحداث السياسية بحثا فكريا كما

---

(١) انظر التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج ٣ ص ١٢٩ – ١٣٤

(٢) انظر كتابه إلى نائبه ببغداد إسحق بن إبراهيم فى جمهرة رسائل العرب للأستاذ صفوت ج ٢ ص ٥٤٠ – ٥٤٧

سيأتى إيضاحه وكان سلاحها فلسفياً عقلياً ، فاما اعتنق المأمون بعض مبادئها دافع عن عقيدته بالقوة والضغط ، وإذا كان هذا قد عيب على المعتزلة ، فإنه يمكن الدفاع عنهم بأن هذا كان تصرف الحاكم لا تصرف المعتزلة ، أما هم فقد ظلوا فى حركاتهم الفكرية والفلسفية دون أن يحملوا سلاحاً أو يثيروا فتنا عسكرية ، وبهذا ظل طابعهم بعيداً عن طابع الشيعة أو طابع الخوارج .

والحديث عن المعتزلة سيقتضينا الكلام ولو بإيجاز عن فرق أخرى لها صلة بالموضوعات التى تكلم فيها المعتزلة وذلك كالجبرية والمرجئة وأهل السنة .

ومذهب المعتزلة يرتبط ارتباطا كبيراً بمذهب الخوارج الذين سبق أن تحدثنا عنه ، أو قل إن مذهب الخوارج أثار مشكلة كانت سببا لا فى قيام المعتزلة فحسب بل فى قيام المرجئة والجبرية أيضاً . وهذه المشكلة هى مشكلة مرتكب الكبيرة ، فقد سبق أن ذكرنا أن الأزارقة أكبر فرق الخوارج وأهمها قالت بكفر مرتكب الكبيرة كفر ملَّة أى خروجه من الإسلام وخلوده فى النار ، وهذا القول أثار بحث المفكرين حول حقيقة الإيمان وهل تأدية الفرائض والابتعاد عن الكبائر جزء منه أو ليست جزءاً ، وما مكانة من آمن بالله ورسوله ثم قصَّر فى تأدية الفرائض أو ارتكب الكبائر أى ما يدخل ضمن المشكلة المعروفة فى اصطلاح المتكلمين باسم « خلق أفعال العباد » . وفى هذا البحث ظهرت اتجاهات ثلاثة تكونت حولها مذاهب المرجئة والجبرية والمعتزلة :

قالت المرجئة :

إن الإيمان هو الإقرار بوحدانية الله وبرسالة محمد إقراراً قلبياً . فمن أقر بذلك عن اعتقاد فهو مؤمن سواء أدَّى الفرائض أو لم يؤدِّها . بَعُدَ عن الكبائر أو ارتكبها [illegible]

م الناس شركاً إذا ما وحّدوا الصمدا   ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً

أما من قصّر فى أداء الفرائض أو من ارتكب الكبائر فيرى بعض المرجئة عدم الحكم عليه فى الدنيا وإرجاء الحكم إلى الله يوم القيامة[1] ، ومن هذا المذهب اتُّخِذَت كلمة « المرجئة » من الإرجاء أى التأخير . ويرى اليونسية أصحاب يونس بن عون النميرى أن الإيمان هو المعرفة بالله والخضوع له وترك الاستكبار عليه والمحبة بالقلب ، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن ، وما سوى ذلك من الطاعة فليس من الإيمان ولا يضر تركها حقيقة الإيمان ولا يعذّب على ذلك إذا كان الإيمان خالصاً واليقين صادقاً[2] . ومن هذا المذهب اتُّخِذَت كلمة « المرجئة » من أرجأ أى أعطى الرجاء فى العفو ، وعلى هذا المذهب ما روى من قولهم : لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، وما قاله عبيد المكتئب من أن العبد إذا مات على توحيده لا يضره ما اقترف من الآثام واجترح من السيئات[3] .

وقال غسان الكوفى أحد زعماء المرجئة : إن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى وبرسوله ، والإقرار بما أنزل الله وبما جاء به الرسول ، والإيمان لذلك لا يزيد ولا ينقص[4] ، وهذا الرأى يخالف رأى أهل الحديث والسنة ، فإنهم يرون أن الإيمان يزيد وينقص بزيادة الطاعات أو نقصها لقوله تعالى « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً »[5] والذى يقبل الزيادة يقبل النقصان ، ولما سئل صلى الله عليه وسلم : هل يزيد الإيمان وينقص ؟

---

(١) الشهرستانى الملل والنحل ج ١ ص ١٢٥

(٢) المرجع السابق

(٣) المرجع السابق و[illegible] لابن حزم [illegible] مقالات الإسلاميين للأشعرى وانظر كتاب Nicholson . A Literary History of the Arabs p. 22[illegible]

(٤) المرجع السابق   (٥) الأنفال الآية الثانية

أجاب : نعم يزيد حتى يُدْخِل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار ، ويوافق أبو حنيفة على رأى غسان الكوفى وله تأويلات فى الأدلة السابقة(١) .

وقالت الجبرية :

إن الأفعال التى يأتى بها الإنسان محامدَ كانت أو رذائل ليست من عمله ، وإنما هى من خلق الله أجراها على يد الإنسان ، فالعبد ليس له فعل ولا قدرة على فعل . ومن ثَمَّ فالمؤمن لا يكفر بما يرتكبه من كبائر لأنه مجبر على ارتكابها . وهو كالريشة المعلقة فى الهواء تتحرك كيفما يحركها الريح . ومن كلام جهم بن صفوان زعيم الجبرية الذى سميت باسمه هذه الفرقة أحيانا فقيل « الجَهميّةَ » ما يلى : إن الإنسان لا يقدر على شىء ، ولا يوصف بالاستطاعة . وإنما هو مجبور فى أفعاله ، لا قدرة له ولا اختيار . وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق فى سائر الجمادات ، وتنسب إليه الأفعال مجازا كما تنسب إلى سائر الجمادات ، كما يقال : أثمرت الشجرة ، وجرى الماء ، وتحرك الحجر ، وطلعت الشمسُ وغربت ، وتغيمت السماء وأمطرت ، واهتزت الأرض وأنبتت . . . . إلى غير ذلك ، والثواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال جبر . قال : وإذا ثبت الجَبْر فالتكليف أيضاً كان جبرا(٢) .

ويدعم جهم وأصحابه رأيهم فى القول بالجبر بآيات يَرَوْنها تؤيد ذلك مثل قوله تعالى « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء »(٣) وقوله « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً »(٤) وقوله « ختم

(١) [illegible] الفرق [illegible]

(٢) [illegible] ورد فى كتب الفرق السابقة .

(٣) القصص ٥٦ (٤) يونس ٩٩

الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة »[١] وقوله « ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم »[٢] .

ويرد جمهور المسلمين على هذا المذهب الذى يدعو للكسل والتوانى ويلغى المسئولية بآيات واضحة ردَّ بها القرآن الكريم على هذا القول السطحى الزائغ ، وهذه الآيات هى :

« سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون ، قل : فلله الحجة البالغة »[٣] .

« وقال الذين أشركوا : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء ، كذلك فعل الذين من قبلهم ، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين »[٤] .

« وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ إن أنتم إلا فى ضلال مبين »[٥] .

« وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم . ما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يخرصون »[٦] .

ولعل الإمام جعفر الصادق يعبر أحسن تعبير عن رأى جمهور المسلمين فى هذا الموضوع حين يقول فى الإرادة : إن الله تعالى أراد بنا شيئاً ، وأراد منا شيئاً ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا . فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا ، وما بالنا نشتغل بالباطن عن الظاهر ؟ وحين يقول عن القدر : هو أمر بين أمرين ، لا جبر ولا تفويض[٧] .

---

(١) البقرة ٧ — (٢) هود ٣٤
(٣) الأنعام ١٤٨ — (٤) النحل ٣٥
(٥) يس ٤٧ — (٦) الزخرف ٢٠
(٧) الشهرستانى : الملل والنحل القسم الأول ص ١٤٧

وقال المعتزلة :

إن الشخص هو الذى يخلق أفعاله بنفسه ، وهو بذلك مستحق للثواب فيما يعمله من خير ، ومستحق للعقاب فيما يرتكبه من آثام ، واستدل المعتزلة على رأيهم بآيات من القرآن الكريم منها : « كل نفس بما كسبت رهينة »(١) . و « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(٢) و « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً »(٣) و « إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا »(٤) و « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »(٥) و « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى »(٦) و « ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه »(٧) .

وإذا كان الإنسان هو الذى يخلق أفعال نفسه وهو لذلك مسئول عنها مسئولية كاملة ، يثاب على الخير ويعاقب على الشر ، فما مكانة مرتكب الكبيرة عند المعتزلة ؟

الجواب عن هذا السؤال يرويه لنا الشهرستانى(٨) بقوله :

دخل رجل على الحسن البصرى فقال : يا إمام الدين ، لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفّرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفرٌ يُخْرَج به عن الملة ، وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ، ولايضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة . فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقاداً ؟ .

فتفكر الحسن فى ذلك ، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا

---

(١) المدثر ٣٨ — (٢) الكهف ٢٩
(٣) الدهر ٣ — (٤) المزمل ١٩
(٥) فصلت ٤٦ — (٦) النجم ٣٩ – ٤١
(٧) النساء ١٠ — (٨) الملل والنحل ١ . ٥٢

لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً ، بل هو فى منزلة بين المنزلتين ، لا مؤمن ولا كافر .

ويقول الشهرستانى إن واصلا قام من حلقة الحسن واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن . فقال الحسن : اعتزل عنا واصل . فسمى هو وأصحابه معتزلة ، ويورد الشهرستانى الإيضاح الذى أدلى به واصل لتأييد اتجاهه وهو : أن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمى المرء مؤمناً وهو اسم مدح ، ومرتكب الكبيرة لم يستجمع خصال الخير ، ولا استحق اسم المدح ، فلا يسَمى مؤمناً . وليس هو بكافر مطلقاً ، لأن الشهادة وأعمال خير أخرى موجودة فيه لا وجه لإنكارها ، لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة ، فهو من أهل النار خالداً فيها إذ ليس فى الآخرة إلا فريقان « فريق فى الجنة وفريق فى السعير » لكن عذابه أخف من عذاب الكفار[١] .

وهكذا كان موضوع « مرتكب الكبيرة » سبباً فى الانقسام الذى حصل فى حلقة الحسن البصرى وبالتالى سبباً فى قيام المعتزلة ، ولكن الباحث المدقق يدرك أن الخلاف بين الحسن وتلميذه واصل كان قد بدأ قبل بحث موضوع مرتكب الكبيرة ، وفى « الملل والنحل للشهرستانى » ما يؤكد اتجاه واصل وصديقه عمرو بن عبيد إلى القول بأن الإنسان هو الذى يخلق أفعال نفسه وهو موضوع أوسع من موضوع مرتكب الكبيرة . وكذلك إلى القول بنفى صفات الله . وكان رأى واصل وعمرو بن عبيد مخالفا لرأى الحسن فى هذين الموضوعين (خلق الأفعال ونفى الصفات) ، ولكن واصلا وزميله ظلاً فى حلقة الحسن مع اختلاف الرأى . فلما جاءت مسألة « مرتكب الكبيرة » وسّعت هذه الخلاف وسببت الاعتزال . يقول

---

(١) انظر الملل والنحل والفصل والفرق بين الفرق ومقالات الاسلاميين

الشهرستانى بعد تقريره اعتزال واصل : وتابعه على ذلك عمرو بن عبيد بعد أن كان موافقا له فى القدر وإنكار الصفات[١] .

ومن الملاحظ أن واصلا لم ينتظر إجابة الحسن عندما عُرِضَ السؤال عن مرتكب الكبيرة ، لأن واصلا كان يعرف إجابة أستاذه ، فالحسن كان مع أهل الحديث فى القول بالقضاء والقدر أى بأن الله هو الذى يخلق أفعال العبد . وليس للعبد فيها إلا الاختيار والميل وهو ما يسمونه بالكسب ، كما كان واصل يدرك اتجاه أهل الحديث إلى أن أفعال العبد ليست جزءاً من الإيمان . وعلى هذا فقد أدرك واصل أن رأى الحسن سيجعل مرتكب الكبيرة مؤمنا عاصيا . فسارع واصل وأعلن رأيه .

ونسأ بذلك مذهب المعتزلة على كل حال ، وأميل إلى الاقتناع بما أوردناه آنفا عن الشهرستانى وهو ما ذكرته كل كتب الفرق التى بين أيدينا من أن تسمية المعتزلة جاءت من اعتزال واصل حلقة الحسن وقول الحسن « اعتزلنا واصل » وقد أورد أستاذنا المرحوم أحمد أمين وجوها أخرى للتسمية ، وضعّف هذا الرأى الشهير . واعتقادى أن ما أورده الأستاذ لم يضعف هذا الرأى الشهير . وما اقترحه من أسباب أخرى لهذه التسمية لا يرجح أيضاً هذا الرأى[٢] .

وهكذا بدأت المعتزلة . وكان بدؤها مرتبطا بمعارضة رأى الخوارج فى مرتكب الكبيرة كما قلنا ، ولكنها — كما قلنا أيضاً — كانت لها آراء أخرى غير الكلام فى مرتكب الكبيرة . ولما تم استقلال هذه الطائفة بدأ شيوخها يعلنون آراءهم ويقررون اتجاهاتهم . وكان ذلك فى مطلع القرن الهجرى الثانى . واعتمد المعتزلة على العقل فى تقرير مبادئهم . والذلك عنوا بالعقل وأحلوه مكانا ساميا . ثم اعتمدوا على الفلسفة وبخاصة عندما ظهرت النهضة العلمية فى العالم الإسلامى . وترجمت فلسفات أمم متعددة

(١) الملل والنحل ١ ٥٢ (٢) فجر الإسلام ص ٢٨٨ — ٢٨٩

إلى اللغة العربية ، وكانت الفلسفة سلاح أعداء الإسلام يهاجمونه بها ، فاتخذ المعتزلة هذا السلاح سلاحا لهم ، وتصدوا للدفاع عن الإسلام به ضد كل من يناوئ الإسلام أو يتحداه ، ويقول الشهرستانى عن نفى المعتزلة لصفات البارى ما يلى : وكانت هذه المقالة فى بدئها غير نضيجة ، وكان واصل بن عطاء يسير فيها على قول ظاهر ، وهو الاتفاق على استحالة وجود إلهين قديمين أزليين ، قال « ومن أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلهين » ولما طالع أصحابه كتب الفلاسفة انتهى نظرهم فيها إلى رد جميع الصفات إلى كونه عالما قادرا ، ثم الحكم بأنهما صفتان ذاتيتان هما اعتباران للذات القديمة كما قال الجبائى أو حالان كما قال أبو هاشم ، وميل أبى الحسن البصرى إلى ردهما إلى صفة واحدة وهى العالمية ، وذلك عين مذهب الفلاسفة(١) .

ويقول الأستاذ أحمد أمين(٢) : والحق أن المعتزلة هم الذين خلقوا علم الكلام فى الإسلام ، وأنهم أول من تسلح من المسلمين بسلاح خصومهم فى الدين ، ذلك أنه فى أوائل القرن الثانى الهجرى ظهر أثرُ مَنْ دخل فى الإسلام من اليهود والنصارى والمجوس والدهرية ، فكثير من هؤلاء أسلموا ورءوسهم مملوءة بأديانهم القديمة ، لم يزد عليهم إلا النطق بالشهادتين . فسرعان ما أثاروا فى الإسلام المسائل التى كانت تثار فى أديانهم ، وكانت هذه الأديان التى ذكرناها قد تسلحت من قبل بالفلسفة اليونانية والمنطق اليونانى ، ونظمت طريق بحثها وتعمقت فى ذلك فهاجموا الإسلام وهو الدين الذى يمتاز ببساطة عقيدته فأثاروا حوله الشكوك وليس هؤلاء الذين أسلموا هم الذين فعلوا ذلك فقط . بل كانت البلاد الإسلامية مملوءة بذوى الأديان المختلفة الذين ظلوا على دينهم ، وكان منهم كثيرون فى بلاد الدولة الأموية يشغلون مناصب خطيرة ،

---

(١) الملل والنحل ١ : ٥١ (٢) فجر الإسلام ص ٢٩٩ — ٣٠٠

هؤلاء وهؤلاء أثاروا مسألة القدر على هذا النمط الفلسفى ، وكانت معروفة فى دينهم ، وأثاروا مسألة صفات الله وخلق القرآن ولها نظير فى النصرانية ، وأثار الزردشتيون كثيراً من مسائلهم . وكل ذلك دعا المعتزلة أن يتسلحوا بسلاح عدوهم فجادلوهم جدالا علميا ، وردوا هجمات القائلين بالجبر والمنكرين لله ، وما أثار اليهود والنصارى والمجوس من شكوك ، ونشطوا لهذا العمل نشاطاً بديعاً .

مبادئ المعتزلة :

والاعتقادات التى ينضوى تحتها مذهب المعتزلة هى :

١ ـ العدل : يطلق المعتزلة « العدل » على ما سبق أن شرحناه من أن الإنسان يخلق أفعال نفسه خيرها وشرها ، ويستحقُ ـ بناءً على ذلك ـ الثوابَ والعقابَ ، والربُّ منزَّه عن أن يضاف إليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية ، لأنه لو خلق الظلم كان ظالما ، واتفقوا على أن الله تعالى لا يفعل إلا الصلاح والخير . ومن أجل هذا المبدأ يطلق على المعتزلة « العَدْلية » أى الذين يقولون بالعدل ، كما يطلق عليهم من أجله أيضاً « القَدَرِيَّة » أى الذين يعارضون القضاء والقدر ، ولا يقولون بهما وهذا اللقب يكرهه المعتزلة ، ولا يرضون به اسماً لهم ، ويرَوْن أن الأولى أن يطلق هذا اللقب على من يقول بالقدر لا على من ينفى القول به ، والسبب فى كراهيتهم لهذا اللقب أنه ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : (القدرية مجوس هذه الأمة) وقوله (القدرية خصماء الله فى القدر) ولهذا السبب نجد القائلين بالقدر يلصقونه بالمعتزلة ، ونجد المعتزلة يلصقونه بالقائلين بالقدر[1] .

وهذه الأحاديث تفيدنا أن القول فى القدر بدأ منذ عهد الرسول .

---

(١) الملل والنحل والفصل والفرق بين الفرق ومقالات الإسلاميين فى أماكن متعددة .

وهو موضوع قديم كثر الحديث فيه ، وينسب دخوله للعالم الإسلامى إلى رجل نصرانى أسلم ، وتلقاه عنه معبد الجهنى وغيلان الدمشقى ، وكان هذا الموضوع يطرأ فى المجالس الإسلامية من حين إلى آخر ، فلما جاء المعتزلة وقالوا به أكسبوه صبغة علمية وجعلوه أكثر دقة وإتقاناً .

٢ ــ التوحيد : يطلق المعتزلة « التوحيد » على ما سبقت الإشارة إليه من نفى المعتزلة لصفات الله ، فإنهم قالوا بنفي الصفات القديمة أصلا ، لأنه لو كانت هناك صفات قديمة لتعدَّدَ القدماء ، وهذا شرك ، وقالوا إن الله عالم بذاته ، وقادر بذاته ، وحى بذاته . ومتكلم بذاته ، وبناء على ذلك قالوا بخلق القرآن لأنه ليس هناك قديم إلا الله .

ومن أجل هذا المبدأ يُطْلِق أعداء المعتزلة عليهم لقبَ « المعطِّلة » لأنهم عطَّلوا صفات الله وألغَوْها ، ومن أجل هذا المبدأ كذلك يُطْلَق على من يقول بإثبات صفات الله تعالى « الصفاتية » ، ومن أجل المبدأين السابقين يطلق المعتزلة على أنفسهم « أهل العدل والتوحيد »[1] .

٣ ــ الوعد والوعيد : اتفق المعتزلة على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض . والتفضل معنى آخر وراء الثواب ، وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود فى النار ، لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار . وسموا هذا « الوعد والوعيد »[2] .

٤ ــ المنزلة بين المنزلتين . أى منزلة مرتكب الكبيرة دون أن يتوب توبة مقبولة ، وهذا عند المعتزلة فى منزلة بين منزلتى المسلم والكافر ، وقد سبق الحديث عن ذلك .

٥ ــ الحُسْن والقبح العقليان : اتفق المعتزلة على أن العقل يستطيع أن يميز الحَسَن من القبيح . فطبيعة كل من الحسن والقبيح معروفة . وعلى

---

(١) المراجع السابقة (٢) المراجع السابقة

الإنسان أن يعتنق الحسن ويجتنب القبيح ، ولا يلزم لذلك إرسال الرسل ، وإن قصّر الإنسان فى المعرفة استوجب العقوبة ، ويستوجبها كذلك إذا عرف الحسن ولم يتبعه ، أو عرف القبيح ولم يجتنبه . وأما إرسال الرسل فكان مزيد عون من الله تعالى « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة »[١] .

٦ — وهناك اتجاه لواصل بن عطاء زعيم المعتزلة يبدى به رأيه فى أصحاب الجمل وأصحاب صفين . فقال إن أحد الفريقين فاسق لا محالة ، لكن لا بعينه ، وقد عدّ الشهرستانى ذلك الاتجاه قاعدة[٢] ، ولست أراه قاعدة لأنه كلام عن حادثة معينة . والقاعدة أو المبدأ يجب أن يكون شيئاً عاماً يطبّق على الأحداث الفرديّة ، إلا إذا قصد الشهرستانى أن واصلا أراد أن أى خلاف أو حرب بين المسلمين يكون أحد الفريقين فيه فاسقاً لا بعينه ، بيد أنا لا نعتقد أن واصلا يقول بذلك فقد يكون أحد الفريقين معتدياً فيعتبر فاسقاً بعينه .

*

تلك خلاصة المبادئ التى قال بها المعتزلة . وقد بدأت كما قلنا من قبل سهلة يسيرة كما يتضح من سردها آنفاً . ولكنها فى العصر العباسى تعقدت ودخلتها الفروض والتفريعات والشذوذ أحياناً حتى مرقت فى بعض تصرفاتها عن طبيعة الدين الإسلامى . ونحب هنا قبل أن نطوى صفحة المعتزلة أن نثبت ما أخذ على هذه الفرقة من زلات وأخطاء :

أولا : بالغ المعتزلة فى احترام العقل وتقديره ، والعقول كثيراً ما تزل وتخطئ . وقد حمل العقلُ بعضَهم إلى القول بأن حركات الخلدين تنقطع ، وتصير الجنة والنار ومن فيهما إلى سكون دائم خموداً ، وتجتمع اللذات فى

(١) المراجع السابقة فى عدة أمكنة والآية رقم ٤٢ سورة الأنفال .

(٢) الملل والنحل ١ : ٥٢ — ٥٣

ذلك السكون لأهل الجنة ، وتجتمع الآلام فى ذلك السكون لأهل النار ؛ وسبب ذلك القول هو أن العقل هيأ لهم أن ما له أول له آخر ، والجنة والنار لهما أول فلابد أن يكون لهما نهاية وآخر(١) .

ثانيا : يمتاز الإسلام بسهولته ويسره ، ولكن المعتزلة عقّدوا هذه العقيدة السمحة بما أدخلوه عليها من فلسفات ودراسات لاهوتية وكونية ، لم تشرح الإسلام بمقدار ما أضفت عليه من غموض .

ثالثاً : نزل المعتزلة محيط الفلسفة ليدافعوا بها عن الإسلام ، ولكن كثيراً منهم طعن نفسه بالسلاح الذى بيده ، أو بعبارة أخرى غرق بعضهم فى هذا المحيط الفلسفى وتخبطوا فيه وضلوا ، حتى قال بعضهم بالتناسخ وبقدرة الله (جل وعلا) على الكذب والظلم ، ولو كذب أو ظلم كان إلهاً كاذباً أو ظالماً(٢) (تعالى الله عن ذلك) .

رابعاً : عندما بحث المعتزلة موضوع الفتن التى وقعت فى صدر الإسلام جوز أكثرهم الطعن فى الصحابة ونالوا منهم وهاجموهم هجوماً عنيفاً لا يناسب ما لهؤلاء من تاريخ حافل بالخير لنشر الإسلام وتأييد الرسول ، وَوَصَلَ الهجوم إلى التشكيك والتفسيق أحياناً(٣) .

كل هذه الأسباب بالإضافة إلى تأييدهم استعمال الضغط ضد من لم يقل بخلق القرآن كانت سبباً فى انفضاص الناس من حول المعتزلة ، ثم فى تدهور مذهبهم واضمحلال أمره .

---

(١) الملل والنحل ١ : ٥٤
(٢) المرجع السابق ص ٦١ ، ٦٧
(٣) المرجع السابق ص ٥٩

وبعد ، ذلك هو العصر الأموى ، عصر حافل بالحركات السياسية والحركات الفكرية ، ولا نزاع أنه لا ينافسه عصر آخر فيما خلّد من فتوح وما نشأت به من أفكار ، ولم تكن الآراء التى ظهرت فى العصر العباسى إلا ذات جذور أموية ، فالعصر الأموى بذلك عصر فريد بين عصور التاريخ الإسلامى ، وهو جدير بأن يكون مفخرة للمسلمين فى جميع البقاع حتى العهد الحاضر.

اقرأ الأجزاء التالية من هذا الكتاب حيث نواصل الحديث عن مراحل التاريخ الإسلامى وعن الحضارة الإسلامية .

ثبت المراجـــع

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ مجموعة من كتب التفسير

٣ ـ كتب الأحاديث الستة

٤ ـ مجموعة من كتب الفقه

٥ ـ Encyclopaedia of Islam

٦ ـ بعض المجلات العلمية

٧ ـ ابن الأثير — الكامل فى التاريخ

٨ ـ أحمد أمين — فجر الإسلام

٩ ـ أحمد أمين — ضحى الإسلام

١٠ ـ أحمد أمين — يوم الإسلام

١١ ـ أحمد زكى صفوت — جمهرة رسائل العرب

١٢ ـ دكتور أحمد الساداتى — تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية

١٣ ـ دكتور أحمد شلبى — تاريخ التربية الإسلامية

١٤ ـ دكتور أحمد شلبى — التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية الجزء الأول

١٥ ـ دكتور أحمد هيكل — الأدب الأسبانى

١٦ ـ الأزدى — فتوح الشام

١٧ ـ الأشعرى — مقالات الإسلاميين

١٨ ـ الأصفهانى — الأغانى

١٩ ـ Browne — A Literary History of Persia

٢٠ ـ لبلاذرى — فتوح البلدان

٢١ ـ البغدادى (عبد لقاهر) الفرق بين الفرق

٢٣ — البغدادي (محمد أمين) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب

٢٣' — الأمير تميم — ديوان الأمير تميم (مخطوط)

٢٤ — Thomas Arnold — The Caliphate

٢٥ — Thomas Arnold — The Preaching of Islam

٢٦ — Gibb — Muhammadanism

٢٧ — Gibb — The Arab Conquests in Central Asia

٢٨ — Guillaume — The Traditions of islam

٢٩ — جورجي زيدان — تاريخ التمدن الإسلامي

٣٠ — ابن الجوزي — تذكرة خواص الأمة

٣١ — حاجي خليفة — كشف الظنون

٣٢ — ابن أبي الحديد — شرح نهج البلاغة

٣٣ — ابن حزم — الفصل في الملل والنحل

٣٤ — دكتور حسن إبراهيم — تاريخ الإسلام السياسي

٣٥ — دكتور حسن إبراهيم — الفاطميون في مصر

٣٦ — الخضري — تاريخ الأمم الإسلامية

٣٧ — ابن خلدون — المقدمة

٣٨ — ابن خلدون — العبر

٣٩ — ابن خلكان — وفيات الأعيان

٤٠ — Dozy — The Muslims in Spain

٤١ — دوايت دونالدسن — عقيده الشيعة

٤٢ — الذهبي — تاريخ الإسلام

٤٣ — السبكي — طبقات الشافعية

٤٤ — سيديو — تاريخ العرب العام (ترجمة عادل زعيتر)

٤٥ — Stanly Lane-Poole — The Arabs in Spain

٤٦ — Lane Poole Muhamadan Dynasties

٤٧ — ابن سعد الطبقات

٤٨ — Sayid Ameir Ali A Short History of the Saracens

٤٩ — السيد ماضى أبو العزائم أسرار القرآن

[٥٠ — السيد محمد المهدى خلاصة الأخبار

٥١ — السيوطى تاريخ الخلفاء

٥٢ — الدكتور شعيره ممالك ما وراء النهر

٥٣ — الشهرستانى الملل والنحل

٥٤ — صلاح الدين المنجد خطط دمشق

٥٥ — ابن طباطبا الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية

٥٦ — الطبرى تاريخ الأمم والملوك

٥٧ — عارف تامر (ناشر) أربع رسائل إسماعيلية

٥٨ — عباس محمود العقاد مبادئ الإسلام وأباطيل خصومه

٥٩ — عباس محمود العقاد الصديقة بنت الصديق

٦٠ — عباس محمود العقاد الحسين سيد الشهداء

٦١ — ابن عبد الحكم فتوح مصر

٦٢ — ابن عبد الحكم سيرة عمر بن عبد العزيز

٦٣ — ابن عبد ربه العقد الفريد

٦٤ — عبد العزيز سيد الأهل الخليفة الزاهد

٦٥ — دكتور عبد المنعم ماجد التاريخ السياسى للدول العربية

٦٦ — ابن العربى أحكام القرآن

٦٧ — ابن العبرى تاريخ مختصر الدول

٦٨ — ابن عساكر تاريخ دمشق

٦٩ — على بن حنظلة عقائد الإسماعيلية

٧٠ ــ عمر أبو النصر — آل محمد فى كربلاء .
٧١ ــ الغزالى — الإحياء
٧٢ ــ فان فلوتن — السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات
٧٣ — Parasad — Medieval Moslim Rule in India
٧٤ ــ أبو الفدا — المختصر · أخبار البشر
٧٥ — Philip Hitti — History of The Arabs
٧٦ ــ ابن قتيبة — عيون الأخبار
٧٧ ــ ابن قتيبة — الإمامة والسياسة
٧٨ ــ ابن قتيبة — المعارف
٧٩ ــ القزوينى — آثار البلاد وأخبار العباد
٨٠ ــ الكلينى — أصول الكافى
٨١ ــ كيرك — موجز تاريخ الشرق الأوسط (ترجمة عمر الإسكندرى)
٨٢ ــ كارل بروكلمان — تاريخ الشعوب الإسلامية
٨٣ — Lewis. P. — The Origin of Ismailism
٨٤ ــ الماوردى — الأحكام السلطانية
٨٥ ــ المبرد — الكامل
٨٦ ــ المجلسى — تحفة الزائرين
٨٧ ــ محمد صادق الصدر — الشيعة
٨٨ ــ محمد عبد الله عنان — مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام
٨٩ ــ محمد عبد الله عنان — تاريخ المؤامرات السياسية
٩٠ ــ محمود البشبيشى — الفرق الإسلامية
٩١ ــ المسعودى — مروج الذهب
٩٢ ــ محمد أحمد جاد المولى — أيام العرب فى الجاهلية

٩٣ ــ محمد كرد على — خطط الشام
٩٤ ــ محمد كرد على — الإسلام والحضارة العربية
٩٥ ــ مصطفى الرافعى — إعجاز القرآن
٩٦ ــ Macdonald — Muslim Theology
٩٧ ــ المقرى — نفح الطيب
٩٨ ــ المقريزى — الخطط
٩٩ ــ المؤيد فى الدين — ديوان المؤيد فى الدين
١٠٠ ــ المؤيد فى الدين — المجالس المؤيدية
١٠١ ــ النعمان بن محمد — المجالس والمسايرات (مخطوط)
١٠٢ ــ النعمان بن محمد — دعائم الإسلام (مخطوط)
١٠٣ ــ النعمان بن محمد — تأويل دعائم الإسلام (مخطوط)
١٠٤ ــ النعمان بن محمد — أسباب التأويل الباطن (مخطوط)
١٠٥ ــ النووى — تهذيب الأسماء
١٠٦ ــ Nicholson — A literary History of the Arabs
١٠٧ ــ ابن هانئ — ديوان ابن هانئ
١٠٨ ــ Wells — A Short History of the world
١٠٩ ــ Wellhausen — The Chawarig die Shi, a
١١٠ ــ Wellhausen — The Arab Kingdom and its Fall
١١١ ــ الواقدى — فتوح الشام
١١٢ ــ ياقوت — معجم البلدان

فهرس الأعلام

١ — الطريقة التى اتُّبِعت فى تنظيم هذه الأعلام مبنية على عدم اعتبار الملحقات [أبو — ابن — ال] فيما عدا بعض الأسماء التى تُعَدّ هذه الملحقات جزءاً منها مثل أبى بكر فى التعريف بأبى بكر الصديق .

٢ — إذا تكرر الاسم فى صفحة واحدة وضعنا رقم الصفحة وبعده حرف « م » أى مكرر .

٣ — لم نورد فى فهرس الأعلام أسماء مؤلفى المراجع التى اعتمدنا عليها اكتفاءً بورودها فى ذيل صفحات الكتاب وذلك تحاشيا من الإسهاب .

فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهـــرس الأماكن

حرف الألف

حرف الباء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

